ريبر هبون

الزلزال

رواية

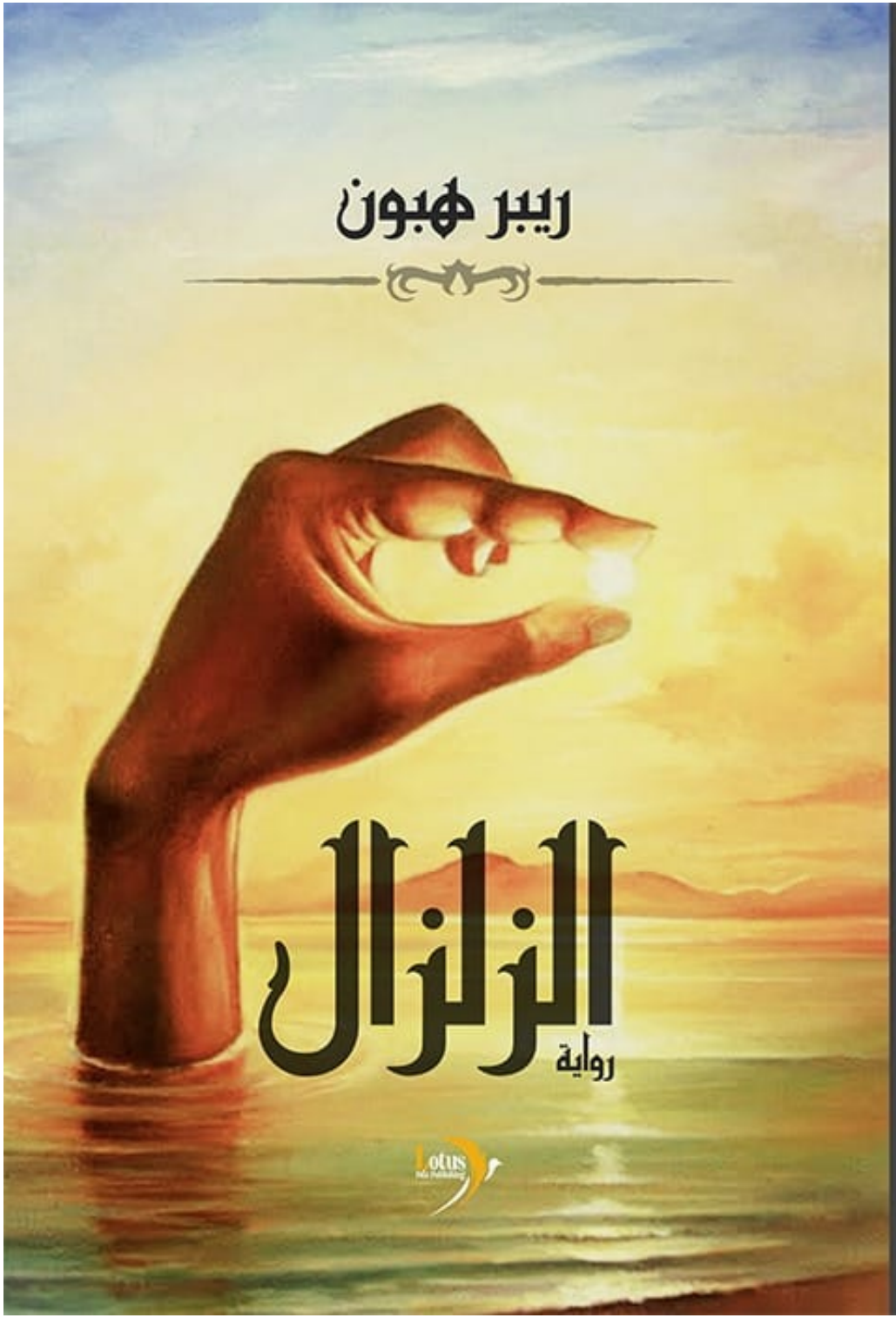

الزلزال

ريبر هبون

رواية

734

ريبر هبون

الزمن الصنديد يزداد وزنه ويعلو كرشه فيبدو الوقت سلحفاة أصيبت بشلل تام تراوح في مكانها كعقرب ساعة حائط متوقفة عند الثانية عشر تماماً دون دقيقة قبل أو بعد، وحدها الذكريات تسير كبكرة لشريط كاسيت في مسجلة جدي يابانية الصنع وجل ما أخشاه أن يتوقف ذلك الشريط وتنقطع تلك البكرة أو تتوقف داخل مكان دخول الشريط إثر خطأ تقني أدى بتوقف البكرة في أحد الأمكنة، أعني اقتحام العناصر السجن و اقتيادي إما للتحقيق أو للسجن النسائي أو لسجن انفرادي آخر أو لسجن آخر يقع بناحية منطقة أو مدينة أخرى أو للموت حيث لابد من التخلص من السجناء القدامى لاستقبال الجدد حيث لا أماكن كثيرة وبعد انقطاع رواتب العناصر وذلك التقارب التركي الروسي والوساطة فيما بينهم والنظام السوري، لم تعد هنالك ميزانية تكفي لإطعام المساجين لو علفاً أو خبزاً تعاف أكله الجرذان

Lotus
مشروع النشر الحر
الإصدار رقم: 734

رِيبر هبون

الزلزال

رواية

الطبعة الأولى

Lotus
Free Publishing

ريبر هبون

الزلزال

رواية

الطبعة الأولى

منشورات لوتس للنشر الحر

مشروع النشر الحر

الإصدار رقم

734

يوليو 2023

رقم الإيداع
2023MO3299

ISBN
978-9920-604-51-2

هاتف / واتسآب
+2 01091985809 +2 02/ 37390893
www.lotusforpub.com
lotusforpub@gmail.com

كل ما ورد بهذا الكتاب مسئولية مؤلفه من حيث الآراء والأفكار والمعتقدات، وكونه أصيلاً له غير منقول؛ وأية خلافات قانونية بهذا الشأن لا تتحملها دار النشر، وجميع الحقوق محفوظة للمؤلف ولا يجوز إعادة نشر الكتاب أو جزء منه بأية طريقة دون موافقته أو موافقة دار النشر.

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الإهداء

للقادمين الفانين من بعد فنائنا
عسى أن تكون الحياة
على زمانهم أوفر حظاً

أفواه فاغرة بفم الحطام

لوهلة اهتزت الأرض به وأولاده، صارت الجدران كقطع البسكويت، كشّرت الطبيعة عن مخالبها، حل الغبار ليخنق الأنفاس، في مدينة باتت بؤرة أشباح آدمية، موتى واقفين على أشلاءهم في طوابير، أسرٌ حلّت محل أسر، بمشيئة الفصائل المتطرفة وولاة نعمتها، حيث استقدمت عوائلها وأجبرت السكان الأصليين على ترك منازلهم أو دفع الإتاوة عوضاً عن ذلك، وبعض من منازل احتكرها قادة بعض الفصائل، أبقوا على بعض النساء والقاصرات، بعد أن كانوا قد تناوبوا في اغتصابهن، وأحلَّ لهم أن يفعلوا ذلك عن طريق فتاوٍ من بعض الشيوخ طويلي اللحى، أوليسوا حراساً ووكلاء للدين على الأرض!، فقد حلّت لهم وفق ذلك ملكات يمينهم، يؤمنون أن السبايا وعائلات الكفّار حسب وصفهم حرثٌ مشاع لأعضائهم الواقفة كالخوازيق العثمانية، وقد نسيوا ترهات الثورة السورية وإسقاط النظام وبات مبلغ همهم جني المال وممارسة الجنس حتى مع بغال القرية التي لم تسلم منهم، خصوصاً بعد قطع الراتب من قبل أمر أصدره الوالي، حيث راحوا يقطعون أشجار الزيتون وجعلوا من خشبها حطباً فتحول بعضهم لحطابين، والبعض الآخر لتجار آثار، والآخر إلى أغوات يأخذون محاصيل الزيتون عنوة ليعصروها ويستخرجوا زيتها ويبيعوها عن طريق تركيا إلى كافة دول الاتحاد الأوروبي، ألسنة البؤساء تلهج بموت سريع يخلصهم مما هم فيه، الألسنة التي تهتز وجلاً وحزناً تتمنى صاعقة تخسف بالأرض وتحيلها إلى يباب، أو طوفاناً يغسل الأرض من ظلم الأنجاس ورجسهم.

لم يدرك أبو بروسك بأن الله سيستجيب لدعاءه بهذه السرعة لغاية انتهاءه من صلاة الفجر، حيث يقيم في ذاك الطابق الأرضي الذي تم البناء فوقه على العظم شعر أن الجدران تهتز، تتصدع من ثم تتأهب للانهيار، لم يدر لأي ولد من أولاده يمد يده، الرعب في كل مكان، دعاؤه ارتد عليه، وذاك العقاب الإلهي شمل الجميع بلا استثناء، قالها في قرارة أعماقه، موت المساكين رحمة من الله عليهم، وموت الظالمين عقاب لهم، وفي الحالتين يتساوى الجميع أمام الموت، في النتيجة خرج أبو بروسك وهو يعرج دامي الجبين ممسكاً ببعض من أشلاء ابنه ذي الأعوام الخمس، لا يتوقف عن العويل والأنين، وما يزال الاهتزاز القوي مستمراً والأبنية تتساقط كالمكعبات، هنا جنديرس المدينة التي يعيش فيها أكثر من 100 آلاف بشري، باتت اليوم مدينة تعاف الأشباح السكنى فيها، لم يعد أبو بروسك يعي حقيقة ما جرى كيف نجا من الموت، أولاده الثلاثة جثة هامدة بلا حراك كانوا قبل دقائق نائمين معاً في غرفة وحيدة ثم ما لبثوا صرعى تحت الركام، البناء الذي صمم على عجل، وتُرك للرياح، الأمطار والثلوج تلوكه برداً كعلكة رديئة، ولديه ابنته البكر، سجينة في عفرين، يملك أبو بروسك أرضاً واسعة تمتلئ بأشجار الزيتون، الرمان والسرو المحاذية لتل جنديرس الأثري الواقع في الجهة الجنوبية من المدينة، حيث أقامت الفصائل المتطرفة الحد على الأشجار فقطعتها من جذورها، عندما عجز أصحابها عن دفع الإتاوة الباهظة المفروضة عليهم، تساوت الأبنية المتساقطة بالأرض، الركام في كل جهة، أصوات الصراخ في كل ركن من ذلك الحطام الواسع، تتسابق الحشرجات في محاولة يائسة في الإشارة إلى موقع أصحابها ممن علقوا وينازعون الموت، الكهرباء مقطوعة بالأصل،

الظلام في كل مكان، فرق الإنقاذ تعاني، لقد تحولت الأبنية المهدّمة إلى أماكن أشبه بالأثرية، مكتظة بالجثث والجرحى والموتى والباحثين على مخرج، لا يزال الوقت ظلاماً لطالما بني الحي الجنوبي القديم على أنقاض جنديرس القديمة وكأن قدر المدينة أن تهدم على أنقاض ما سبقتها، باتت الأرض من صنيعة تلك الجثث، تماهت بروائح وصحيات استغاثة الأرواح المنطفئة كفتيل فانوس انتهى كازه وأرواح تصارع الفناء وتنتظر الإنقاذ، شبه أحياء وموتى يتوسلون طلباً للحياة، وليس ثمة من مجيب سوى صدى صرخاتهم التي تحاول إحداث ثقب في السماء عبر غبار الركام الخانق الذي يحيل شدة الصرخة إلى خفوت وصمت أسود، دماء زجاج، أسلاك كهرباء مقطوعة، بواري الصرف الصحي المعطوبة ومياه متدفقة بشكل عشوائي، اختلاط مياه الصرف بمياه الشرب، حطام أثاث الغرف تحت ركام سقط، أطفال يصرخون، فتاة لا تتجاوز العاشرة تحت قطعة باطون كبيرة تحضن أخيها الصغير ذو الأعوام الخمس، تقول لموظف الإنقاذ.

- أرجوك أنقذني، سأصير خادمتك إن أخرجتني.

شخص يحاول امتصاص الذعر الذي بعينيها فيمازحها

الرعب الواقف على الحناجر يُسقط الحطام على الرؤوس ويجعل الأبنية تخر للأسفل، مناطق الزلزال هذه المرة مرتكزة في شمال وغربي كوردستان وكذلك تركيا أي مدينة أنطاكية وبالتركية تسمى هاتاي.

حينما تغضب الطبيعة من المفترض أن يلتفت الناس حول بعضهم لمواجهة خطر ليس من صنعهم، إلا أن الغائط الذي يخرجه السياسيون والمسيسون عبر أفواههم وبواسطة ألسنتهم، جعل المرء يدرك شيئاً واحداً وهو أن ما من كارثة أو حتى يوم قيامة بقادر على توحيد من يملأ

الحقد قلوبهم،بات من الطبيعي أن ترى طائفة من الناس وتحت غطاء المساعدات الإنسانية أن يقوموا بتوزيع المساعدات على البعض دون البعض الآخر،أحد المستوطنين ذو الضمير يقول لزميله:

- صورني أريد قول شيء، الأخوة الكورد لم يأخذوا شيئاً، لقد وصلت المساعدات وتوزعت فقط على العوائل العربية، حيث لم ينالوا شيئاً منها حتى الآن، هأنذا أخرج لكم وأقولها.

في ظل هذه الكارثة حيث لا خيام، ولا طعام للأطفال، يبدأ هذا البازار السياسي المقيت، قافلة مساعدات قادمة من مناطق الإدارة الذاتية تمنع الفصائل من عبورها بحجة أنها مساعدات من وراءها تسييس للكارثة واستغلال لها، رئيس الائتلاف على تلفزيون روداو يقول:

- لن نسمح باستغلال البعض للكارثة التي حلت بأهلنا باسم تقديم المساعدات.

آخر يرد عليه:

- عدم السماح بإدخال المساعدات من أي جهة كانت، كارثة أخلاقية.

مؤسسة البارزاني الخيرية تهمّ بإرسال قوافل الإغاثة للمتضررين من معبر السلامة إلى عفرين وجنديرس، حيث تم السماح لها بالعبور إلى عفرين وقاموا بتوزيع المساعدات،جمهرة من الفتيات والأمهات والأطفال يستقبلون تلك القوافل وعيني تلك الأم التي لم تستطع إلا أن تذرف دموعاً مصاحبة لأنين عميق يروي كل ما حدث من فواجع:

- شكراً لكم .. شكراً لكم، يعيش البارزاني، تحيا كوردستان.

ثم يقوم بعض من قادة ومسؤولي الفصائل بالتقاط الصور مع موظفي المؤسسة وعلى رأسهم أبو عمشة عرّاب النهب والاغتصاب والقتل، ليظهر من بين الجموع كحمامة سلام.

حميدة ارتعدت، أحست أن سريرها يهتز وبأن شيئاً ما يحاول أن يسقطها منه، فهرعت كالمجنونة للخارج، لحسن حظها فهي لا تعيش في شقة وإنما في بيت مفتوح خرجت باتجاه البستان، تشبثت بشجرة كبيرة أحست أن الدنيا كلها تهتز، صعقت بما حولها من أشياء غريبة لم تعشها أو تراها من قبل، انعقد لسانها واصفر وجهها كليمونة ولم تستطع أن تبتلع ريقها، كأن حصى كبيرة في حنجرتها تمنعها من التنفس.
جميل جارها المقابل منها، يقيم داخل شقة، إلا أنه وقتها كان خارجاً لحسن حظه و الذي يناهز السبعين من العمر، فقد الكثير من أقاربه، منهم من مات ومنهم جريح والبعض الآخر لا يعرف فيما إن كانوا على قيد الحياة، لقد شلّ ذهنه وفي كل مرة يصرخ بأعلى صوته كأنه يطلب من الله تقريراً على ما فعل يشعر بغيظ شديد من الزلزال، لقد تعرض منذ سنوات لنوع من الجنون إذ كان يشتم بلا سبب ويبصق بلا سبب أو بسبب لا يعرفه هو، مرة بصق على عنصر آخذ الضرائب، كان يتردد إليه مع مجموعة تحمل السلاح طلب منه ضريبة على مكان الاستوديو الذي يعمل فيه والمتوقف منذ الحرب الأخيرة،

- يا جماعة الخير الاستوديو متوقف في الأصل ولا أعمل فيه فلماذا تطلبون مني مالاً، من أين أدفع لكم أتاوة هل أبيع لكم نفسي؟

وبغتة بصق على لحية ذلك العنصر كث اللحية، بصقة كبيرة غطت تماماً عينه اليمنى، كأنما هي رصاصة من قناص محترف،كانت البصقة خليطاً من بلغم أخضر اللون ولعاب جاف،غطت عينه فباتت أشبه بنسيج عنكبوت على باب كهف،أمر ذلك العنصر بغضب، زملاءه الحانقين ركله بجنون فكسروا له ظهره، ومنذ ذلك الحين يمشي بعكازه،

لقد نجا رغم كل ما حدث، كي يستقبل المزيد من نوبات الجنون، والغضب والألم من وراء كارثة الزلزال.

أمين كأحد عناصر فرق الإنقاذ المحلية، كاد جدران من البناء المتداعي يسقط عليه أثناء عمل سائق الجرار للكشف عن الذين تحت الأنقاض، وقد نجا بأعجوبة من موت محتّم، ظل ومجموعته لأكثر من نهار كامل يخرجون الجثث من بين الأنقاض، الأطفال إما جرحى يتنفسون ببطء، نساء ميتات تحت ركام متعدد الأحجام، رضيع هو الآخر فقد والديه وآخر جنين خرج حياً من رحم أمه الميتة حديثاً، علت صيحات الله أكبر من هذه المعجزة، وتهافتت رسائل وتغريدات تويتر من فنانات وممثلات مفادها أننا مستعدات لتبني هذا الطفل عامل إنقاذ تعثر بموبايل معطوب الشاشة نسبياً، فتح الموبايل عثر على دردشة واتسآب بين عاشقين، شاب وشابة يتواعدان على لقاء مرتقب، يبدو أن حبيبته تلك متزوجة، يمارسان الجنس اللفظي:

- حين ألتقيك سأنام معك ليلة كاملة وأمارس معك سبع مرات على التوالي.

- لا حبيبي سيكون ذلك مؤلماً، لمرة واحدة ذلك يكفي.

- لماذا حبيبتي ألست مشتاقة لي.

- بلى لكن ذلك موجع، تخيل أن شيئاً حاداً يدخل فيك، بالتأكيد سيكون مؤلماً.

تبسم أمين قائلاً في نفسه:

- المسكين ظل حبيس خياله أن يلتقيها حتى أنهى الزلزال رغبته، لم يعد له أثر يُذكر.

موت ساخن

نظرت لساعة الحائط للمرة السادسة، لم يأتها النوم، حاولت مراراً، لكن الأفكار والآلام منعتاها عن النوم، فكرت كثيراً، تخيلت الماضي، تنظر للسقف المعتم السرير المزدوج الواسع الذي نامت على طرفه، جعلها تحن لزوجها المتوفى منذ سنة، تحاول إبعاده عن مخيلتها، تفكر بعرض صديقها المتقدم للزواج منها، وما بين ماض وحاضر، تتقلب يمنة ويسرة، شعرت بأن الثريا تهتز فوقها، الكؤوس تهتز، الصحون من على الرفوف، ثم سرعان ما ازدادت الهزات قوة، رمت غطاء السرير، بدأ الهلع، سرعان ما سمعت ضجة مباغتة خارج البيت، الصراخ المفاجئ هز قلبها، تقطعت أنفاسها رعباً، خرجت من البيت نصف عارية، دخلت المصعد، انقطعت الكهرباء، سقط المصعد بها،تهاوى السقف ومالت الجدران، وبثوان معدودة ودعت الحياة مسرعة صوب العدم،وللفناء فلسفة يستشفها المقبلون على التلاشي في ثوان معدودة تفصل حياتهم عن مماتهم، تلك الهنيهات القليلة تقول فيه النفس المودعة كل ما فشلت عن قوله مراراً في لحظات الاسترخاء والخيلاء، كل الذين رحلوا مع الأسقف المتداعية والأبنية ذي الطوابق الكثيرة أدركوا متأخرين فلسفة الفناء وتعاليمه الخفية،بضعة من الذين غطوا في نوم عميق، فكر كل منهم في الصباح التالي قبل أن يغفله النوم، عامل نفايات أوشك على الاستيقاظ عند الرابعة صباحاً، في مدينته كهرمان مرعش المدينة الكردية الواقعة في جنوب تركيا، تكاسل على النهوض من فراشه الدافئ، نظر لساعة الجدار ما تزال الرابعة.

- ثمة ساعة أو أقل لأنهض، رفاقي سيكونون بانتظاري، الرابعة و ١٧ دقيقة،كان عند بدء الأرض بالرقص الهستيري طريح فراش وثير مع زوجته البدينة، كلاهما من محبي النوم، شخيرهما ملأ الغرفة، للحظات أصبحت الشقة وغرفة النوم أشبه بعربة تزلج تهبط للأسفل مع السقف المتهالك، وكان هو النوم الأخير لعامل النفايات،وشطب القدر بقلمه الأسود على صباح موعود،الفجر بات حائلاً بين الليل وقدوم الصباح، بات حجر عثرة أمام عتمة لم تكد تنجلي إلا بتشقق الأرض وفورانها كعلبة كولا لم تفتح جيداً، ذاك الليل البارد الحاقد، أخمد الصرخات الخائفة، خبأها في بطنه الكبير، التحفت الأبنية المتهدمة الجثث كما يلف بدين ساقيه على وسادة طويلة، المصاعد المتساقطة، المياه الخارجة من الصنابير المعطوبة، الأعمدة الكهربائية التي أهلكها تماس متتال،الأبواب المخلعة المتراكضة علها تنقذ نفسها من الجدران،والجدران المذعورة كالأرانب تتعثر بالأرضية المتساقطة على بطنها مع السقف الذي تحتها، البشر المتثاقلون وكبيرو الأحجام فريسة سهلة للأرض ولقمة سائغة لفمها المتشقق الضخم والصغار يصرخ الحي منهم ويموت الجائع منهم فاقد الأمل من مساعدة أو خروج من بين الركام، هذه المرة، يقف الموت ضاحكاً، يكشف أسنانه التي أنهكها التسوس لينهي أرواحاً ناعسة، وأجساماً صفراء وزرقاء اجتاحها برد الموت.،عامل النظافة حلم كثيراً في الصباح التالي الذي يسمى بالغد بأنه سيلتقي المجموعة التي تنتظره في سيارة النفايات برتقالية اللون، وسيعملون معاً كخلية نحل على إفراغ الحاويات بنشاط وهمة، وإنه بعد عودته من العمل سيستحم ويتناول الغداء من ثم سيزور بيت قريبه ويهنأه بمناسبة ولادة ابنه الجديد.

لم يكن في عادته المكوث طويلاً بعد الساعة الرابعة، يستيقظ قبل هذا الوقت، قبل أن يرن جرس المنبه، يوقظ المنبه وليس العكس، يقف في الشارع بانتظار سيارة النفايات ليستقلها ويلتقي رفاقه، إلا أنه في ذلك اليوم بالذات بقي في فراشه، يبتسم وهو ينظر للأعلى مغمضاً أحياناً جفنيه، صامتاً كشاهدة قبر، حتى قرأ الزلزال عليه كل الكتب المقدسة تكريماً لروحه التي فارقت الحياة عند الساعة الرابعة و18 دقيقة.،العيون الجاحظة والأفواه الفاغرة، جعلت من في الخارج ناجياً بحكم الصدفة ومذهولاً حد أن صارت الأجسام البشرية كتلاً رخامية تتحرك تحتها الأرض كما الغربال الذي يحرك البرغل الخشن، تسمرت الوجوه أمام فداحة الكارثة، من يا ترى يستطيع نسيان ذاك الفجر ذو القرن الوحيد الحاد والدامي، الحرب وما يتخللها من قصف مزحة أمام تلك الهزة ذي الدقيقة الواحدة، أحالت كل بناء إلى أنقاض،العالقون تحت ركامها مشاريع موتى أنهكهم الجوع والعطش والغبار، شيوخ الذكر قالوا إنها من علامات نهاية العالم، لكن كل من نجا أدرك أن الكارثة استثنت من شيدوا تلك الأبنية دون أسس متينة، فها هم خارج الأنقاض يصورون بكاميراتهم ويبرؤون ساحتهم،أما من لا حول لهم ولا قوة، افترشوا الأرض المتشققة والساحات الخالية يفترسهم البرد، المطر والثلج، حلت الكارثة على كردستان في ديار بكر وغازي عينتاب ومرعش واتجهت الكاميرا لتغطية هاتاي، حين يكون ضحايا الموت هم الكورد، ينصرف اهتمام الحكومات عن النظر إليهم وتتوجه البوصلة إلى المناطق التركية الصرفة، كما هو الحال في سوريا، حيث توجهت تلك الكاميرات وفق معيار سياسي مديرة ظهرها لعفرين وجنديرس، يصرخ الفنان الكوردي (حكيم صفقان)، يطلق أغنيته هاوار أي بمعنى

الغوث، ويضيع الصدى كدخان سيجارة إلكترونية في الهواء، ما من غوث، ما من حياة.. فكل شيء رهين أمر الساسة وكل مأساة مكان مزاد ومناسبة تلميع لوجوه وتشويه لأخرى،وللزلزال قراره بتحويل الأرض لسندويشات لحوم نيئه ممتزجة بركام الأبنية ومياه صرفها وأسلاكها الكهربائية، للزلزال كلمة تفصل النزاعات البشرية اللامنتهية، ولا تفرق في عقابها الشمولي بين بريء ومذنب تدوس الجميع بحوافرها المدببة المسنونة، وفمها الضخم الفاتح فكيه لقضم الحياة دفعة واحدة، تاركاً تفاسير حلوله لعلماء المناخ و أنصار نظرية المؤامرة و جماعة الفقه ممن وجدوه علكة يعلكونها في الخطب والمنابر،فالفلكي الذي ظهر على شاشات التلفاز في ليلة رأس السنة صار يقول مفاخراً: ألم أقل لكم، لتنهال عليه سيول الإعجابات عبر وسائل التواصل الاجتماعي بينما راح الهولندي فرانك هوغربيتس يصيح عبر تغريدة له على التويتر:

- «تأهبوا! فقط تأهبوا»

لبنان على شفا زلزال قادم، ثمة تقلبات في الغلاف الجوي.

فرانك هوغربيتس راح يهز الأذهان ويقول: أنه في 20 و 22 شباط سيحدث زلزال أقوى مما سبق فجاء زلزال طاجيكستان وقد أصابت توقعاته بخصوص مصر حيث اهتزت الأرض هناك ثلاث مرات حسبما سجلته المحطة القومية حيث ذعر السكان في القاهرة، القليوبية، السويس، بورسعيد والإسماعيلية وصار غالب ناسها من متابعي فرانك الهولندي، وراحت عالمة الفلك اللبنانية ماغي فرح تقول بأن فرانك استند في توقعاته على كتابها الذي نشرته في 2023 حول وضعية الكواكب، وآخرين نفوا أن يكون للزلازل وحدوثه علاقة بتحرك الكواكب، فاهتزت عقول المتابعين ما بين قيل وقال، وراحت الكتل

الآدمية تتحرك بعيداً عن الأبنية ترتاد الساحات، البعض يجلس داخل سيارته، يشغل المكيف ليدفأ نفسه وأطفاله، لا خيم لا مساعدات، الأموال تذهب للجماعات المسلحة في عفرين وجنديرس، لم يعد للناس ثقة بأحد، تلك المساعدات لاتصل للمحتاجين سوى ما ندر، كل المساعدات وقوافل الإغاثة وفرق الإنقاذ من مختلف الدول ذهبت لتركيا.،طبقات الصخور تستشيط غضباً تتحرك بكل الاتجاهات، تململها جنونها،أرعب الكائنات، وقد دب خلاف لا نظير له بين الصفائح التكتونية وتلك البركانية فراحت تفتك بالمباني والطرقات، فصارت تحتك ببعضها بعضاً مما نجم عن ذلك الاحتكاك الأشبه باحتكاك حجري صوان بخروج طاقة هائلة أخرجت غضب الطبيعة دفعة واحدة.

أوراق على قيد الحياة

ما تزال الأوراق التي كتبها لزكين لحبيبته في جنديرس صامدة حية تحت الأنقاض، لقد أتى لزكين من جنوب كوردستان «العراق» بعد إقامته فيها منذ أن فر من عفرين بسبب العملية العسكرية التركية، وقد كانت مدينة أورفا محطته الأخيرة فلم يستطع المكوث في هولير (أربيل) بعد وفاة والدته فاضطر للذهاب إلى تركيا لأجل العمل وكي يغادر بعدها باتجاه ألمانيا بمساعدة أخته المقيمة هناك، إلا أن كل ذلك ذهب مع الزلزال، والأوراق التي عثر عليها بيكس وهو أحد الناجين بقيت وحدها شاهدة على حبه لرونيا وقصة الأمل الموؤود، دوَّن لزكين بالقلم الأسود قدر حبه الحالك، تلك الأوراق باتت عزاء بيكس الفتى الذي نجا من الموت مصادفة، وقتها كان في الخارج، يهم في الذهاب لعمله بانتظار الباص، والمقيم في ذات البناية التي خرت طوابقها للأسفل والتي شخصت الأعين لرؤية سقوطها المرعب، في تلك الخيمة الممزقة المطلة على عدة مبانٍ مهدمة،يقرأ تلك الأوراق نافضاً الغبار عنها، راح بصوت مسموع يقرأ وبعينين دامعتين:

حبيبتي مقطوعة الأخبار، لا أعلم بعد أن كنت حية وبأمان أم منطفئة كشمعة صغيرة، تمزق كل شيء من وقت إن ابتعدت عنك وابتعدت عني، أي قدر وضيع جعل مني طائراً مكسور الجناح يبحث عن جناحي أمل يعانق بهما مجدداً أديم السماء، الحرب اقتلعتنا من جذورنا كما فعل اللصوص بزيتون سهولنا، قلبي الذي لم يعرف في الكون قلباً سواك، ولم يحتضن في الدنيا أحداً إلاك،قلبي الذي تحول لحقل ألغام، كل

دقيقة ينفجر لغم ليبتر أشلاء روحي لأجزاء، كل يوم أناجيك، بانتظار الفناء الذي وحده قادر على إراحتي من هذه النار التي تشوي دموعي العالقة في عيني دون أن تخرج، لتعانق الأرض وتنسدل على جفني كما دموعك ، لا يدفع ثمن الحرب إلا كل عاشق لأرضه لأنشاه لأنهما وجوده الذي يباهي بهما الكائنات ويتحدى من خلالهما الزمن الذي يحيل صبانا إلى ترهل،الحياة هنا في هذه المساحة الخالية من الدفء أشبه بعواء ذئب جريح ينشر صدى عوائه في كهف عميق، أفتقد بسمتك التي تنبعث فيها طمأنينة البخار الساخن المنبعث من خبز طازج، أفتقد أصابع يديك الغافية على طرف المقعد في تلك الحديقة الخالية من الناس إلا منا، كل ليلة أفر إلى الأوراق البيضاء لأملأها بأسود حنيني إلى تلك النهارات والأماسي التي افترشنا فيهما العراء إلى تلك الحياة تحن أعماقي،كل ما حولي رماد سجائر، أحس أني عقب سيجارة تسبح في محيط رماد، داخل منفضة عملاقة، وفي كل وقت يرمي مسن بعقب سيجارته داخل تلك المنفضة، وبما أننا بؤساء ومجرد أعقاب سجائر في منفضة فإننا معشر أعقاب السجائر لا نشتكي بل نبكي ونحجب دموعنا نموهها بالرماد، كي لا تصبح دموعنا سبقاً لصفحي عاطل عن العمل ينتظر خبرًا من السماء كي يشعل من خلاله منصات التواصل الاجتماعي وزوايا الصحف اليومية،آه يا حبيبتي يا مجمرة قلبي الوغد، وأمي ماتت، ماذا سأنتظر بعد وأنت ربما ميتة أن لم تموتي قبلها برصاص العدو،وأنت سائرة من موت لموت تذكري أنك الحياة نفسها وأنا الذي ألتحف بحبك في حياة راكدة تسمى مجازاً بالحياة نحن الراحلون لا أنت، وأنا ذلك الميت من تلقاء ولادتي، بت أشبه بآلة بزق معلقة على جدار بلا سقف، جدار وحيد لا يزال قائماً دون الجدران

الثلاث التي سقطت كثالوث الحق والخير والجمال في هذه العالم المشاد على أنقاض عالم من جثث وبصاق،في دمائي تسبحين كسمكة أخذت ألوانها من كريات دمي الحمراء والبيضاء، أنا تلك الأرض التي زلزلتها بنظراتك، أخرجت مني كل ما بالجبال من أثقال، جعلت هذا القلب مرعى للهموم والأسقام، هذه الحياة البيضاء من كل شيء يبعث على البهجة برارٍ تعج بالضباب، فارغة تلك الحياة بدونك وان اكتظت بكل ما للشوارع والمدن الكبيرة من صخب، ضوضاء وازدحام، لقد عثرت على نفسي من خلالك وأضعتها بعد موتك أو اختفاءك أو اغتيالك أو اعتقالك أو لعلهم قد اغتصبوك كما اغتصبوا أحلامنا وكما تاجر زبانية حقوق الإنسان والحيوان بكرامتنا وحياتنا و كما باعنا من علفونا باسم التحرر القومي في زريبة الوعود والآمال الكبيرة والمختزنة روائح المجارير الصحية ومياه الحفر الفنية المكشوفة للبعوض، من بعدك أنا معتقل في سجن الكتابة، أشكو للأوراق، أقدم مذكرات احتجاج لها، ويبقى غليلي مريضاً عصياً على الشفاء في زمن الحنق المتضخم،نزقة هذه النهارات بدون عبور طيفك ليقول لي صباح الخير يا حبيبي، غاربة هذه الشمس من لحظة شروقها ان لم تأذني لشروقها، الآن وبعد ابتعادك سيان عندي ضحكتي أو صرختي، تساوت عندي الأشياء، تساوى الخير والشر، الحق والباطل، الخيانة والوفاء، الجبن والشجاعة، الفلسفة والثرثرة، طالما أن حياتنا تسير بلا منطق ولا معايير، طالما لا تفسير للوحدة للألم القسري، وإن الجميع يمر محنياً رأسه كي لا يصيب عنقه ساطور القدر أو سيفه البتار، فإننا نمضي كمن لا رؤوس لنا وسط زحام ممتلئ بآلاف الجثث النافقة و الأموات الأحياء إلى حين، أقرأ الحياة بعين عاشق لاك الألم قلبه، وتمضي بي الأيام ثقيلة كأنها قوافل

تكتنز ذهباً وفضة، يسطو عليها اللصوص من كل صوب وحدب، تصيح بي المآذن، كأن ذاكرتي جرس كنيسة قديمة قدم الحزن في عيني يسوع، أتخذك الآن مساحة بوح، ومدى رحب أدوزن في مساحاته القصية مقامات الأسى على أوتار النبض، مزهو بحزني السرمدي، أحفل بالكثير الكثير من تصاوير الخيبة واليأس، وأسردها كأني محض قلم مجنون لثمل لا تكف أناته عن ضرب الإيقاع، أضع آلة الطنبور خلف ظهري وأسوح في بلاد الفقر مسقط رأس التسول وقلعة الاستبداد الحصينة وعاصمة القهر، مملكة العهر والقيء والشذوذ، بعد انتهاءي من العمل أمضي برفقة المتعبين أمثالي إلى الشقة التي استأجرتها للنوم كأي متعب كسول، الغرفة مليئة برائحة الخمر ودخان الأراكيل، وتلك الإسفنجة المهترئة، سريري وبالقرب منها كتب وجرائد وزجاجات بيرة فارغة وثياب وقمصان غير مكوية، وعلبة واق ذكري لأجل جنس عابر مع عابرة شبقة بعض من وبر شعرها على وسادتي، وبقع من سائلي وماءها الذي خرجا من مهبلها ليرسم آثارا سريالية الملامح على الإسفنجة المهترئة، حياتي من بعدك يا رونيا هراء وسخام،حياة في بحر من غائط وبول ودماء وأشلاء خرجت منها الأمعاء لبضع عبيد مجندين مهزومين رمى الرومان جثثهم في الكهاريز، بعد جولات شاقة ودموية من المصارعة.

01.02.2023

أكتب لك يا ابنة الموت وقلبي يهتز شوقاً لك، لعينيك، لنهديك الصغيرين، لتلك الأيام التي كنا نختلس فيها القبل في المطبخ أو الحمام وكذلك خلف أجنحة السكن الجامعي وكنا نتوارى خلف الأشجار بعيداً عن الأعين، هل تتذكرين يا حبيبتي، تتذكرين الحريق الذي اشتعل بنا عند القبلة

الأولى، وقتها كانت أولى أربعينية الشتاء سنة 2007، الطقس حينذاك ظل بارداً للغاية، لكن القبلة بددت الصقيع الذي في الخارج، صقيع ترقبي وانتظاري لك على الأقل، لا دراسة، لا محاضرات، باتت كلية الآداب مرتعاً لجنوننا وكان شغل أعضاء الهيئة الإدارية تتبع خطواتنا وغرامياتنا، ذات مرة رؤونا نعانق بعضنا بشدة، كان ذلك بعد أن خرجنا من امتحان فصلي، هرعنا للحديقة القريبة من مقصف الآداب، كانوا قد بنوها حديثاً، لكننا رحنا نجلس في تلك الكومة من الأحجار والتراب الذي جف والفاصل بين كلية الآداب والعلوم الإنسانية ومعهد إدارة الأعمال، جلسنا هناك، التاريخ 14.01.2007، تأملت عينيك المغناطيسيتين وشفاهك الدافئة التي كانت تلمع كالسيوف التي ود عنترة بن شداد تقبيلها كونها لمعت كبارق ثغر ابنة عمه عبلة المبتسمة له، عندها قبلت في شفتيك سيوف الالتياع ورماح العشق التي لا تبقي ولا تذر، وخرج علينا ثلة من أعضاء الهيئة يحاصروننا حصاراً أشبه بحصار اليونانيين لطروادة، كأنما نحن قلعة شقت عصا الطاعة عن بقية القلاع والممالك الأخرى وأعلنت عن تأسيس دولة مستقلة، صاح ذو الشارب الكث:

- بطاقاتكم الجامعية.

وآخر رعد وزبد و اللعاب يخرج بخاً من فمه الغليظ فراح بصوت جهوري يقول:

- هل تعتقدون أنكم في أمريكا.

وآخر ألقى النظر على الكتب التي جلبتها لي بغية قراءتها ما بعد الامتحان النهائي، وهو كتاب قواعد اللغة الكردية وآخر كتاب من منشورات دار الزمان المرخصة بدمشق عن تاريخ الكورد وكوردستان، إلا أنهم وبعد

أن قلتِ لهم بشجاعة، فاقت ثباتي وشعوري بالجبن وقتذاك
- نحن نحب بعضنا.
راح ذو الشارب الكث يقول لي:
- اغربا عن وجهي أنت وتلك وخارج الحرم الجامعي،هيا.
كلنا موتى يا حبيبتي، لم يحيا في كوننا سوى السفاحون ورجال المافيا، والذين يسوقون آلاف الحمير إلى المقصلة باسم الدين والقومية والوطن.
الميت يا رونيا لمن لا محل له من الإعراب، يولد دونكيشوتاً حزبوياً أو أممياً بلا دولة ووطن ويموت بغلاً في حظائر الآخرين بعد أن قضى حياته كخصي في بلاطاتهم، يصارع الطواحين ويبقي جثته في النهاية طعاماً لمختلف الديدان تحت الأرض، ولو كانت للديدان ألسنة لأقامت حفلة استقبال من شتائم للموتى المغفلين الحالمين الكسالى ممن يخافون التفكير بصوت عالٍ والمدمنين على تلك المقولة الحيطان لها آذان وهتاف قائدنا للأبد، وبلا الزعيم لا حياة، في بلاد توزع فيه صكوك الوطنية لكل منتفع ومرتزق ومتملق ولاعق أحذية وتقدم صكوك الخيانة لكل من ينتقد ويحاول تغيير شيء في حياة نمطية لا روح فيها ولا لون، بلاد كهذه البلاد يا حبيبتي لا تستحق أحلامنا ولا دموعنا ولا حتى الوحل العالق في أحذيتنا، لقد غصت في التفاهة حداً صارت فيه التفاهة تئن من وقع غوصي في بحارها، صرت غواصاً في سبيل أحزاني، وصار القاع برواده ومرتاديه خير مؤنسين لي في محنتي، بعد موت أمي وموتك لم يعد في الكون شيء يستحق البكاء لأجله، لا تقولي لي الوطن، تلك الأوطان يا حبيبتي بنيت على أنقاض أوطان لأناس تم طردهم منها، هذه الأرض يورثها الغزاة الحاليون ممن سبقهم والبقاء البقاء

للأكثر دموية وكذباً، اسألي التاريخ أي تاريخ لقيط ابن ستين كلب، سيجيبك بصراحة وقحة، هذه الأرض لم تطوّب باسم أحد، وحدهم المتغطرسون يأخذونها من الأقل غطرسة والأكثر ضعفاً، ماذا بقي من قوميتنا يا ترى سوى الفتات، سوى تلك الأمجاد الخلبية، الأحزاب المتزايدة والانشقاقات الولّادة من رحم تلك العقول المريضة التي نتحلق حولها كما يتحلق المعتقلون الجوعى حول صحن حساء بارد، بال عليه أحد السجانين ووضع لهم بداخله ذيل جرذ عفن.

أيام الشتاء تجرف ذاكرتي، تعيدني غصباً لتلك السنوات القاسية وتجسد أمامي قسوة أبي المخمور المقامر والذي أودى بحياتنا للهاوية عندما باع أثاث البيت قطعة قطعة عله يربح في النهاية ولم يدر أنه يوغل في الخسارة أكثر كرجل خائف محاط بالرمال المتحركة من كل جهة، جاءت الحرب لتفتك بي، فمن طالب عاشق لقاطع تذاكر في سينما باتت مرتعاً للمثليين والسكارى، إلى بائع خضار، لعتال في سوق الخضار، ومن ثم لخياط، وهكذا أمست حياتي عملاً في النهار وشرباً وموسيقى وعاهرات في الليل ورغم ذلك يحل علي طيفك يرتدي رداء قاضي التحقيق، ليحاسبني على ما أنا عليه من فوضى ولا انتماء، أرى ملامحك تقِّرعني وتنصب لي كمائناً من أسئلة ونعوت شتى والتي باتت من أسماءي الحسنى .

أيها القميء، العاهر، الخفاش، الحشرة، كيف وقعت بغرام سلوقي مثلك، هكذا نعوت تلقينها علي قبل النوم وأنا شبه مخمور حتى يغافلني النوم فأنام كعجل وديع.

تأتي صديقتي أينور وهي طالبة معهد تجاري فاشلة هربت من الجامعة وأهلها وراحت تفترش الشوارع، كامل جسدها موشوم عدا أعضاءها

الحساسة والذي غدا كجدار عليه رسومات مقتبسة عن شخصيات كرتونية، وقد وضعت أقراطاً كثيرة في أذنيها، وقرط أشبه بخرز أبيض عالق في صرتها وآخر بين فوهتي إنفها، وكذلك واحد معلق بشفتها السفلى وقرط صغير جداً بمنتصف لسانها، بيدها زجاجة خمر تجمع ثمنها من خلال تأمينها لحاجات ونزوات التائهين أمثالي، توقظني أينور حينما تملىء رئتها بدخان سيجارتها الرديئة فتنفخ كتنين على وجهي غير الحليق منذ أكثر من شهر، فتجعلني أسعل بشدة مهما كان نومي ثقيلاً وبتركية رديئة وصوت مرتفع أشبه بصوت حرس الحدود التركي توقظني من النوم:

- استيقظ أيها القذر، ألم تشتاق لي.

ثم تتحسس قضيبي المنكمش كقنفذ صغير فتوقظه وينتصب كأبله، فأقول لها:

- تحت من كنت البارحة، لما لم تأتني.

- تحت مائة وما شأنك بي أيها الترهة

أذهب لغسل وجهي هامساً في نفسي:

- تباً لليوم الذي صادفتك فيه.

الخزان شبه فارغ، الماء يخرج بصعوبة وعلى قطرات، كأنه بول يخرج من مثانة شبه خالية، حذرتهم أمس بأني سألقي المفتاح بوجه ذلك المؤجر الفظ وأبحث عن شقة مشتركة أخرى

- لماذا لا تطاوعيني لنستأجر معاً بدلا من تنقلك من بيت لبيت كعاهرة رخيصة.

صرخت بوجهي غير المغسول وتبع صدى صوتها بصقة عابرة:

- لست رخيصة ولن أقيم معك أيها المأفون.

في سجن ازمير الجبري، قعدت ألعن حظي الأجرب، ليتني جربت مغامرة البلم مجدداً، ألقي القبض علينا أربعتنا عندما حاولنا في المرة الأولى الإبحار إلى اليونان، وبفضل أينور لم أظل في السجن كثيراً بعد فشل محاولتي للعبور، فقد كان لها معارف لهم يد طولى في سلك الأمن، لكنهم خذلوها وأنا رحت كالماعز أتبعها، دفعت ما لدي 4000 دولار مقابل الوصول لجزيرة كوس اليونانية وما أن صعدنا البلم من جزيرة بودروم حتى رأينا خفر السواحل التركي يهم في القبض علينا، أحدثوا ثقباً في البلم ثم ما لبثنا أن طفنا بالكامل على سطح البحر كفراخ الإوز ولولا تلك السترة وعدم بعدنا عن الشاطئ كثيراً لكنا طعاماً طازجاً لأسماك البحر المتوسط التي اعتادت مذاق جثثنا الطافية على الشواطئ

- رجلي بهالحالة!

صاح ذلك اللبناني بغتة كأنه قد جن أثناء خروجنا من المخفر، تبت من حينها عن المحاولة ثانية من الخروج أو التفكير بالهجرة إلى أوروبا، أما المبلغ الذي دفعته للمكتب أعادوا إلي ثلاثة آلاف وخمسمائة والباقي لم يعطوني إياه بحجة أنها مصاريف وثمن رهن المبلغ، خيرتني الشرطة بأن أعود لأورفا أو يلقوننا خلف الحدود التركية المقابلة لمدينة إدلب، فاخترت العودة لأورفا والبحث عن مشغل خياطة، رحت أعمل كيفما اتفق والإرهاق يحيط بي إحاطة السوار بالمعصم،حياة قسرية وسجن كبير أحال ذاكرتي لسجون صغيرة مكتظة بالمعتقلين عرفياً على قيد البت بمصيرهم إلى إشعار آخر.

02.02.2023

اعتدت على الكتابة لك، ولا أدر لماذا باتت عادة يومية فمع بدء شباط

يزداد البرد وبالتزامن معه تشتد حاجتي لدفئك البعيد عني بعد أستراليا عنا، بؤس حبي لك لصيق بي كقهر يستنزف حياتي، ويشعرني بتقدم العمر والمزيد من الكآبة والضياع في مدن تركيا ووسط اكتظاظ أسواقها أتنفس الرها أستنشق فيها أرواح الذين سكنوها في الغابر، أجدك أولى الغابرات، يحيطك الغبار كأنك كتاب قديم أو لوح مسماري، أورفا أو الرها مدينة الأنبياء، ولهذا فجرحي النبوي في أرجاءها يفوح، ينبأ بالكارثة، وأنا أتجول في رحاب تلك القمة الجبلية ، يهبط بي الطريق إلى « كوبيكالى تبه»، أتحول قبالة طيفك هناك لراهب سومري، وأبكي حيث صلاتي لأجلك دموع، نحو التاريخ، عميقاً إلى الماضي تبحر رؤاي، أستل من جرحي نبضاً متحجراً وأعاند النكبات، لتصبحي في تلك البركة المقدسة سمكة ملونة زاهية تخبأ لي بمتن ألوانها حياة جميلة لم تكن،ا كوني في روحي برداً وسلاماً كالنار حول جسد إبراهيم، فالعاشق الحر يملك قلب نبي، وحين أشاهد الفسيفساء وأزور الكهف، تخرجين من داخل مصباح الروح ويصبح وجهك قبالتي أكبر حجماً من قلعة أورفا. وجهك الأمل الصاخب، والكلمة العصية غير المطواعة ولا تظهر على السطور، أعيش لغير نفسي وللآخرين عدا هذه اللحظة التي أكتب لك هذه الكلمات فأنا أبدو نفسي، بيقيني أن روحك التي حلت بي تقرأ هذه الكلمات وتبتسم، آه من دموعي كم تشوي أحداقي هذه اللحظة، أين كنا وأين صرنا، أحس أكثر من أي وقت مضى بلذة أن أودع الحياة وألقي هذا العبء عند مغادرتي سطح الأرض ودخولي برحمها مجدداً، عندها سأستشعر أنني في رحم أمي وأن مشيمتي أعيد وصلها مع رحم أمي، سأكون بالقرب منك وقتها، كل الأرض واحدة، أينما أدفن فأنا وأنت تحت الأرض، الحقيقة الوحيدة بحياتي هو هذا الحب، وموتك ليس

نهاية الحب ما دمت حاملاً رايته، والألم دليل وجوده وقوته وعظمته، حدة النبض دليل تحكمه بي، انه الزلزال الوحيد الذي شيدني، على عكس الزلازل التي تقصم ظهر البحر واليابسة، أنت يقيني الوحيد وعداه يملأ الشك كل إنش من ذهني، لا شيء بإمكانه إخفاء ندبة الحب أو إزالة الوجع، وخز الجرح بالخمر ويبقى وجهك في الخابية ينظر إلي، يوجه الضوء لعيني، يهيل علي هالتك فينسخ من حريقي نسخاً لا تعد ولا تحصى كفيلة أن تصيب كل وجه باسم بعدوى العبوس وانطفاء الحياة، لا أشتهي سواك، وإن انغمست في ممارسة الفناء مع أينور وتفننت في مضاجعتها أملاً في شهوة صادقة، لقد فقدتك ويبكيني إحساس أني لن أراك بعد الآن، فأحاول تخدير هذا الإحساس اللعين بمزيد من الخمر والجنس والموسيقى والعمل الإضافي، بمعزل عن كل رواية لكاتب مغمور أم مشهور أعترف لك بأن قصتي فرس لا تحتاج لخيّال، قصتي كتبت نفسها بنفسها، ولم تستعر مخيلة روائي معظم ما سيبوح به هذر وحشو، لن أقبل أن أكون موضوعاً لأحد، أو تكون فجيعتي مطية يركبها أحد، روايتي دوّنت ذاتها بذاتها، جعلت من حياتي خروفاً تم سلخه وتعليقه لأجل الأضحية للتو، ما يزال لحم حزني ساخناً يخرج منه بخار ساخن، عدا وجودك في الرواية فكل من حولها من عمال، باعة، كناسين، ورفقاء سوء وعاهرات وورق وخمر وهذه الشقة الوسخة والهواء الرطب مجرد فوضى لست من تسبب بها، إنما هو اليباب الذي أحالني مزقاً وأعطاب، ذلك الواقع اليابس كجثة هزيلة يعيد تكريري لشيء عذب كأني مياه البحر الميت يتم تكريرها لتصبح مياهاً عذبة صالحة للشرب، بصعوبة يحيط ذهني بملامحك إنها تتلاشى، أستجر بسمتك، ويذهب فكري للحظات احتضان لا تنتسى

بيننا، أعيد تكرارها مراراً في الليلة الواحدة، تخيلت حلولك في أينور، تلك العابرة البائسة فزال حضورك فيها بغتة، شتان ما بين ملامحك الريفية الهادئة وملامحها التي تشبه الورود الصناعية،شتان بين طعام طازج وآخر مبلول بالمواد الحافظة، شتان بين طائر عاش حراً وآخر داجن أليف اعتاد الركون في مكان محاط بالأسوار والأقفاص، لقد اختفت الحياة الطبيعية وكان آخرها اختفاؤك، أسوأ شعور هو أني لا أعرف ان كنت على قيد الحياة أو الموت، ما أمر شعور الإنسان المعلق في الفضاء، لعمري انتظارك أكثر وجعاً من ترقب الموت في عالم كل مافيه عجز، شلل يرافق حياتنا، يوغل في عظامنا وفقراتنا، يدخل في تفكيرنا، يكنس ضحكاتنا، يخرج الأنين من ابتساماتنا

أكتب لك أو بالأحرى لنفسي أو للحياة من بعدي تأثراً ببيت شعري للمعري مر علي:

والخط يبقى زماناً بعد كاتبه

وصاحب الخط تحت الأرض مدفون

يظل الطمع بالحياة متلازمة الإنسان الضعيف والبائس، انه يصر على وجود شيء يدل عليه، رغم أن كل شيء فان، وبمجرد أن يغيب امرؤ عن أناسه أو رفاقه حتى ينتسى ويبدأ تلاشي ذكره وسيرته فالأحياء يزاحمون الموتى كونهم يتحركون ويملؤون الدنيا بزحامهم وطلبهم للحياة،للملذات والمتع، هل خارج قلبي لك أثر، لربما لك الأثر في والدتك، إخوتك، صديقاتك اللاتي بمرتبة الأخوة أو أكثر، إني استمد منك الفرح والبراءة وأجد العابرات ميتات، فأتمرغ بين أثدائهن الناعمة المترهلة كنهدي أينور الكبيرتين، لم تقولي كيف تعرفت على عاهرتك، ربما لو كنت حية

لكنت سألتني فأنا أعرف غيرتك وجنونك بي، تعرفت على أينور عبر الفيسبوك، والدها كردي انفصل عن والدتها التركية وهاجر لألمانيا، أما والدتها فقد حجروا عليها في مصح نفساني لفرط تعاطيها للمخدرات والكحول، قضت أينور طفولتها في مربى الأيتام وخرجت من هناك، لم تكمل دراستها وراحت تعمل في بار كنادلة وتعمل أشياء أخرى، ذات تعارف حدثتها بما لدي من تركية بسيطة،كمكالمة فيديو ورحت أقول لها يجب أن لا تنكري كرديتك وكلام يتعلق بحب الوطن «كوردستان»، أقفلت بوجهي الكاميرا وقالت:

- صديقي الغبي فضلاً لا ترهقني بالسياسة ولا تتحدث بهكذا أمور إن شئت التعري أتعرى لك أفعل ما تريد إلا الحديث عن الكردية وكردستان واللغة تفهمني.

الخوف الذي فرضه النظام السياسي للدولة التركية، فتح الباب على مصراعيه أمام كل شيء، أباح العهر، الإدمان، المخدرات، العنف وتجارة الأعضاء وأكثر من بناء المساجد بالتزامن مع بناء المواخير والمراقص، ففي الأول ينتشي المرء بالتعبد والانعزال والتطرف الديني وفي الثاني ينتشي المرء بالمخدرات والكحول وممارسة الشذوذ، كلاهما نشوة تبعد المرء عن التعقل والاحتكام للمنطق والحياة الطبيعية، ويستخدمان لإلهاء الإنسان وتنويمه وتعليبه وعزلته إلى جانب العمل طوال النهار والليل بأجر زهيد وقلق دائم من الاستغلال أو فقدان العمل، منظومة تقتل وتستعبد وتخصي وتروج لنظام الذل والسخف،هذه تركيا وجارتها إيران وجارتها أفغانستان وجارتها باكستان معبر الاتجار بالبشر وبيع المخدرات كخطوط الطيران والسكك الحديدية شبكة معقدة متعددة الأذرع تتحكم بالإنسان محتكرة قوته، ضاغطة على أعصابه مسيطرة

على أفكاره وطريقة فهمه، حروب تليها حروب، والوباء ينتشر، لا كمامة بإمكانها منع انتشار الفيروس، الإخصاء مستشر، التجهيل رائج، الخوف ترياق لا حياة من دونه، والبشر دماء مندفعة متدفقة من أجساد بشرية وحيوانية تم فصل الرأس عنها كما يتم نزع الفتيل عن القنبلة اليدوية،البشر الذين تكتظ الشوارع والمحلات والمدن الكبرى بهم، تتمنى الأرض لو أن لديها أفواه تماسيح وأفاعي الأناكوندا لتبتلع الثلث الذي يمشي على سطحها ، كلما ازداد البشر أصبحت الحاجة للحروب ماسة وصار قلق المتحكمين بالاقتصاد على المصالح أعظم، مانحن إلا براغش تكاد ترى بالعين المجردة أمام أعينهم، يقتلوننا ليدفعوا عن أنفسهم الملل ويأمرون المصانع بإنتاج المزيد من الأسلحة ويطلقون يد العصابات ويصنعون التنظيمات ويوظفون الدين كما وظفه أسلافهم لتحويل البشر إلى عبيد ومجرمين في آن، لا نملك يا حبيبتي خياراً سوى أن نعلف بالعلف الذي يعلفوننا به ومن ثم نحمد الله تعالى على نعمة العلف ونعمة المبيت في الزريبة بينما يصعدون على أكتافنا الهزيلة ويرفعون الأبنية فوقنا، أبنية من بسكويت غير مسلحة إلا بما يشبه الأسمنت ليحشروا فيها البسطاء ومعدومي الحال، ولتتداعى بهم في اليوم التالي وتسقط الأسقف فوق رؤوسهم، أي شعب هذا، يصفق للحرب ويهتف لإله الحرب ويبجل صانع الحرب، أمة لا ترتوي من شرب الدماء، لطالما كان أسلافهم يشربون من دماء أحصنتهم، نسل الذئاب الرمادية يتوالد ويتكاثر بجنون، كالوحوش الذين خرجوا من وراء خاتم طليق في فيلم ملك الخواتم،في حياتنا تنتصر العدالة في قصص الأطفال، وينتصر الظلم أبداً، وفي تأملنا للنمر الذي يطارد الغزالة حتى يمسكها ويلتهمها أمام عين الله عبرة، لم يك الضعفاء من الكائنات

إلا غذاء للمفترسات وآكلي اللحوم، فما الحكمة من كون آيل للدمار وكائنات تمضي باتجاه الفناء بإصرار والأنكى أنها تبذل الأثمان الباهظة على حفلات رأس السنة وأعياد الميلاد أي نهاية العمر ونهاية السنة.

03.02.2023

أخرج من مشغل الخياطة ناقماً مستاء والحنق يقف كشرطي بمنتصف حنجرتي، تشاجرت مجدداً مع رب المشغل لتأخره عن دفع الراتب أسبوعين، في الخارج مجموعة من الناس تهتف بشعارات ضد السوريين، أحد البلطجية يتوعد أصحاب المحال بأن سيكسر محلاتهم ويفقأ أعين كل سوري يصادفه

أعود إلى الشقة، المصعد معطل، أصعد الطابق الخامس عبر الدرج، أجد أينور منتظرة لي قرب باب الشقة برفقة حقيبة سفرها

-خيراً أينور لماذا أراك هنا حزينة.

- أنا بخير، تم طردي من العمل وكذلك من الشقة لتأخري عن الدفع سأضطر للمكوث عندك هذه الفترة .

- حصل خيراً، البيت بيتك أهلاً وسهلا.

تسمرنا لوهلة في وجوه بعضنا المتعبة، وشردنا طويلاً، هي تدخن عند الشرفة رغم البرد، أنا أنشغل في الطبخ لم أعرف كيف مر نهار الشرود بسرعة، تمددت على ظهرها وعيناها باتجاه السقف الذي أخذ كلسه يتساقط للأسفل كنداف الثلج، تتأمل العناكب الصغيرة التي أخذت مواقعها ونسجت نسيجها في الزوايا، وصوت موسيقى الراب ينبعث من الشقة المجاورة في أوقات متقطعة يوازيه صوت شيخ يتلو القرآن ينبعث من تلفاز جاري ذو اللحية الحمراء، وأحياناً كثيرة يمتزج الراب

بالقرآن لتتوسطه رغبتي في العزف على الطنبور محاولاً تناسي الصوتين والاستمتاع قليلاً بالموسيقى لتخفيف الضغط الذي أعانيه قطعت أينور صمتي بعد تناولنا الغداء فهب حوار بيننا وهمس صاخب وطويل تخلله صراخ وانفعال وأشياء

أشبه بالمناجاة والهذيان الفردي وكأننا على خشبة مسرح أو في جلسة نفسية:

- ما تزال تتذكر رونيا.

- نعم وأحبها بشدة.

- معقول رغم موتها.

- إنها مختفية لا أعلم تماماً أن كانت ميتة أم حية، اختار الله هذه الطريقة لمسح الأرض بقلبي.

- هون عليك، تعال وضاجعني بقوة، إنها كالقيء، حاول إخراجها وضاجعني بكل ما أتيت من مهارة وإثارة.

- هي ليست قيئاً، أدرك ذلك، إنما أضاجعك لأخرج منها كقيء لاصق بجدار المعدة لأني لا أستحقها.

- أنت تبالغ.

- أنا متألم.

اقتربت، لمست شعري، حاولت تقبيلي، لكني استدرت، أغمضت عيني بكلتا يدي وبكيت دقيقة واحدة وبتواصل ضمتني من خلفي وتابعتُ:

- إنها قيد أعانيه ولا أطيق حياة من دونه، حتى أنني عندما أكون بأحضانك أحس أني أطفو معك على بحيرة من بصاقها المتواصل علي لحظة أحتضنك.

- أنت جبان، كيف لا تستطيع إخراج نفسك مما أنت عليه.

- حاولت أن أكون مثلك.

- مثلي!،كيف؟

- عشتِ بيتم، وقبلها مع والدين مسعورين في حالة شجار دائمة تركك والدك عندما كنت طفلة في السادسة أو بالأحرى هرباً من ذلك الجحيم الذي أسسته والدتك، راحت تدمن الكحول وتتعاطى المخدرات بل حاولت إعطاءك بضع جرعات، وبمعجزة أنقذك الطبيب عندما أسعفوك ووالدتك للمشفى، وجرى فرزكن على حدة هي للمصح وأنت للمربى

- أوه تتذكر كل حكايتي أفضل مني.

اقتربت، عانقني، كادت تمزق ثيابي من شدة الشهوة، تعرت وصارت تشهق تزفر تتأوه وتقول هاذية:

- أحبك أيها البائس، أرى فيك صورة والدي المسكين.

- وأنا أراك نسخة رديئة عن أمك إلا أنك طيبة كوالدك.

- صحيح وأشبهه أيضاً.

- أنت صورة أبيك الذي عانى وأحس بالاختناق في العيش كأفعى محنطة داخل قارورة مغلقة، ففكرت بمناطحة غطاء القارورة مراراً كنقار الخشب حتى استطاع الخروج كأنه رغوة شمبانيا ثائرة، إلا أنك أكملت رحلة الضياع التي بدأتها والدتك، شرب وإدمان وتوهان لا حدود له، هل يمكن أن تقولي ما هدفك من الحياة، ما طموحك، جريك نحو اللذة دون وعي، تطاردين الخواء، ترهنين عمرك كله لقاء لاشيء.

- يكفي، لا تنظر لنفسك وضياعك وتجيد إحصاء عيوب الغير.

- ما نحن عليه مشيئة الله الذي قذف بنا لهذه الجغرافيا اللعينة، جعلني مخمورة يتيمة ضائعة ثملة غاضبة وحانقة، على أب جبان تنكر

لي كوني ابنة المرأة التي تزوجها، وأنجب منها ابنة كل ذنبها أنها سليلة والدين متعبين تائهين عديمي المسؤولية.

- ألا تلحظ معي أننا بارعون في التشخيص لمشكلتنا وعديمو الفعل لدفع هذه المأساة، مدركون أن حياتنا هباء وغير قادرين على تغيير ذلك القدر، نسف هذا الواقع وبناء حياة جديدة، ذلك سيفرض عليك نسيان تلك الوهم رونيا، ويفرض علي التفكير بك أكثر كصديق حميم .

- تفكرين بي، صعب أن تتغير حياتنا فقط لمجرد رغبتنا بذلك أينور، كرديتك أفضل من تركيتك ونطقك بها يجعلك أكثر أنوثة.

«تضحك»

- أنا كردية أكثر منك لنكف عن هذا الحوار السخيف، لم أستحم منذ أسبوع، ما رأيك أن نستحم معاً.

- البانيو كقلبي لا يتسع لأكثر من شخص.

- أفضل حتى نلتصق ببعضنا كعلكتين، الماء الساخن فوقنا،سيزيل تلك الأوساخ العالقة على أجسادنا وربما أرواحنا.

- لا شيء سوى الموت بإمكانه غسل الخطايا الآدمية، الراحلون من هذه الدنيا يحملون خطاياهم معهم ويرحلون بكامل ذخيرتهم وهيكلهم الجسدي.

- تباً لك تفسد كل لحظة رومانسية بالحديث عن الموت،كآبتك تخطت الكآبة ذاتها.

- رونيا أخذت معي كل شيء حي.

- إنما أعزف على مدار أنفاسي مرثية موتي على وقع أوتار البزق هذه الشوارع المكتظة بصخب المدن، عويل الفناء الذي يستبيح كل طبيعة، ويجتاح كل حياة لم تصل إليها ملوثات البشر وتمتد إليها أيديهم الطويلة القذرة.

هذه المرة على عكس ما مضى أرادت أينور الاقتراب مني، راحت تشعرني بالاهتمام والحب، قبل ذلك لم أكن أراها سوى امرأة تائهة وتحت تأثير الشرب في غالب أوقاتها، راحت ترمقني بينما بدوت منشغلاً في قراءة كتاب أو ترتيب الغرفة باتت تطالبني بشيء لم يكن يعنيها قبلاً، ليس أي احتضان، ليس أي تقبيل، ليست أية مضاجعة، في كل وقت تحاول إقناعي بالعدول عن تذكر الماضي، ماضيّ وماضيها معاً، كأنها بذلك تريد التمهيد لموضوع فاجأتني به للحظة كانت ممددة قربي ببنطالها المشقوق وسروالها الزهري، راحت تحتضنني من الخلف وتقول:

- هل نمت أراك غارقاً في صمتك.

- لا إنما أحاول النوم.

- أصبحت أشتاق إليك، لما لا نبدأ معاً بداية جديدة، أعدك بعد اليوم أنه لن يكون بحياتي أحد لا شراب لا إدمان لا علاقات،سأحاول أن أكون لك وحدك.

- تحاولين.

- أقصد أنا أحبك وأريد أن أرتاح معك وأستقر.

- لست مستعداً لذلك في الوقت الحالي، لن تتغيري لمجرد أن خطرت ببالك تلك الفكرة قد تغيرين رأيك بعد أن يذهب ثملك.

- لست ثملة، أعني كأس واحدة لا تثملني صدقني إني في أكثر أوقاتي صدقاً ورغبة كبيرة في أن أقاسمك كل شيء.

- كل شيء دفعة واحدة، ما الذي تحاولين الوصول إليه، ماذا سيفيدك التعلق بي، نحن الآن بلا عمل، ينبغي أن تفكري بوجوب أن نجد عملاً الآن كلانا عاطلين عن العمل، الفراغ ليس مفيداً لكلينا.

04.02.2023

لا أدر لماذا يراودني وجودك في شباط، أستيقظ في آخر الليل، وأبكي بلا دموع، نحيب يقف كطابور طويل يسد حنجرتي، يزاحم أنفاسي، يجعلني أكتب لك، أشكو تعب الوقت البطيء، أحس غرفتي، الشقة بل الخارج عبارة عن متاهات سجون سراديب أقبية دهاليز ضياع، ما أصعب أن أجدني وحيداً كقبر معزول عن بقية المقابر، قبر بلا شاهدة، بلا اسم، قبر مجهول قد يكون حفرة خواء، نبشه ضبع بري، وهذا أنا حيالك، الرياح في الخارج أسمع صفيرها، أفتح النافذة، تلهو الريح بالستارة القصيرة، يسقط الكأس الزجاجي الشفاف،تصبح قطع الزجاج سميداً خشناً، أشعر بنحيب طويل عميق يجاري الصفير والبرد الذي يقتحم الشقة الصغيرة، كمجموعة من رجال استخبارات مقنعين، أينور وشخيرها يملأ الغرفة، تغط في نوم عميق يشبه نوم فتية الكهف، هذه الأوراق باتت مسودة رواية لكني أواصل الكتابة لا لشيء وإنما لأخفف هذا الحزن الذي يعتملني في منفاي أجدني منكباً إما على الكتابة لك أو الموسيقى بالرغم من إزعاج الجارين لي، ذلك الشيخ الذي يأتي إليه كل ليلة مجموعة من فتيان ملتحين يقيمون طقوساً أشبه بالتي تقام في الموالد احتفالاً بمولد النبي وما شابه، إلى جانب جاري المراهق الذي يزيد صوت الموسيقى ويرقص الراب على وقعها، أما وظيفة أينور التائهة هي بضع كلمات وحوارات نقيمها معاً إلى جانب تلك اللحظات الحميمة والمجادلات السقيمة، فلست أنوي اللحاق بركب الكتَّاب، معظمهم يكتب الرواية ترفاً كي يقال عنه روائي لا أكثر، أو يكتبها لأسباب تتصل بعقدة النقص أو تدويناً للماضي، إني أكتب لك، يقيني إنك لن تقرأي شيئاً، لست موجودة إلا بي ولن تموتي إلا بموتي، إنى أتحدث عن الموت

كثيراً هذه الأيام، أكثر من شيء يذكرني به، الحرب التي ما تزال، وعفرين التي سلبها الغزاة باسم الثورة، لكن الفناء مريح جداً لو تعلمين، أتمنى مجيئه، أسمع صوته المتقمص للبرد والثلج وصخب الأبنية وسحنات المارة المتعبين، أبصره بموت الكردية وانتصاب التركية كخازوق يدخل من مؤخراتنا ويخرج من أفواهنا أراه في نظرية القوة ورواد تلك النظرية ممن سادوا الأرض بالعنف والوحشية والسلب والنهب والكذب، وأبصر الفناء في قانون الطبيعة والغاب في معنى أن تكون الحيوانات الضعيفة غذاء للاحمة المفترسة، أبصر الموت يارونيا، انه كشيء خفي لا يرى بالعين، يلوح لي، أقول له أن كنت رجلاً تعال، إما أن أقتلك كفكرة ببسمتي، أو تقتلني كمداً وحزناً ويأساً، يغصُّ ذهني بأفكار شتى ونوازع تقر بجلاء غموض ما يعتري النفس المتمردة من محاولات مستميتة لإخراج ذلك الركام من الأبنية المتداعية من داخل أوجعته الصدمات وأحاطته المصاعب والملمات، وحدها من تقود المرء وترسم لدربه الطالع الملائم، أغمض باسمك بحروفه التي تشي بالضوء، إلا أن سلطة العتمة أمضى وأعتى ووجهك المؤقت ان لاح لي لبرهة فإنه لا يعيق قدوم جحافل الوحشة المستولية عليَّ، على ذلك الزمن الذئب الذي عشته وأعيشه وسأعيشه، فالماضي والحاضر والمستقبل في بطن الحزن الذي فاق حجم الحيتان وأفراس النهر،تبرزين كطيف وراء الستارة، يذكرني ذلك بأفلام الرعب التي يضفي المخرج عليها مشاهد رومانسية توحي بأن وراء كل جريمة قلباً محروماً، تخففين من غلواء البرد، تشعلين في السماء مدافئ الحب، تلبسين الثلوج كفساتين الزفاف، تحيلينها على جسدك فستاناً كثيفاً كثير الزخارف والتطاريز، تخرجينني من شحوبي، وجهي الذي أصبح دخان مدفأة، تلوَّن بلون المناجم، بات طائرة ورقية

تسحب ذيلها الورقي الملون لأعلى امتداد قد يصل إليه طول الخيط، لوهلة تغيرت علي السماء، ارتدت بياض جسدك الذي يلمع كالضوء، يجاري بنوره القمر والنجوم المضيئة في مكان بعيد عن المدينة، في غمرة حزني آخذ استراحة، أرمي الأثقال التي كسرت ظهر قلبي، ألقي بكل الأحمال، أستلقي على الإسفنجة الأخرى، أتجاهل شخير أينور، وتقلباتها أثناء النوم، أرصد ما يعتريني، أكتب على تلك الأوراق الصفراء، كأني أوقن أن شعباً لا مكان له في هذا الكوكب سينبثق من إحساسي ويصبح من قرائي، أواصل وصف ما يعتريني، الأوراق الصفراء الخفيفة تبتهج بقصة حبنا، لقد رسمت ملامحك الآن،عينان بنيتان تفوح من بؤبؤتيهما روائح الهال والبن والزعتر البري، شفتان متناسقتان غجريتان لا العليا أكبر من السفلى ولا السفلى أكبر من العليا نكاية باللاتي يقمن بنفخ شفاههن أكثر من اللازم لتأخذ حجم فم البعير، كلا الشفتين مرسومتين بدقة رسام خفي، كأنهما جبلين محاذيين لبعضهما تراهما العين من بعيد وتتمنى أن تهيم الروح فوق قممهما الفضية، ووجه حنطي خال من التجاعيد يخبأ في مساماته روائح حقول القمح والشعير وخد متورد كبراعم الجوري زهري اللون، يخيل للناظر أن صاحبته خجلة طوال الوقت، ورك مكتنز كأنه نُحت من عشق وصبر ودقة الشاعر امرؤ القيس عند وصفه لها بمعلقته المعروفة، نهدين نافرين بحجم قبضة الكف لا أكثر وقامة متوسطة ليست طويلة أو قصيرة تفوح منها روائح أشجار الزيتون، ابتسامة هادئة يشوبها الغموض تميل للكآبة أكثر من المسرة، حين تضحكين يصهل في قلبي ألف خيل، حين ترمقينني من بعيد أحس المسافة الأبعد من بصري أقرب إلي من أنفي، معك تتغير الأبعاد والمسافات، ولك في كل تقاسيم الطبيعة أطيافاً تشي إنك هنا

لم تبتعدي كثيراً، يا سليلة ما وراء الطبيعة، أيتها الحقيقة الوهمية التي انتصف بها السحر الأبيض عن الأسود.

يصلبني حبك، يحيلني لممارسة الجنون أو الشذوذ هرباً من الشعور بوطأة حبك، فأجتاح أينور ونومها العميق وشخيرها الشيطاني الذي أفسد صفاء تخيلي لك، فأرمي عنها الغطاء وأفك سترتها الشفافة، مخرجاً كلتي نهديها الناعمين الأبيضين النائمين اللذين يبدوان لي وسادتين قطنيتين، إذ بهما ترهل وقد نزلا قليلاً للأسفل، فألثمهما على حد سواء، دون أن أشعر أني تماديت في لثم الأيمن دون الأيسر أو العكس، تظل أينور مغمضة العينين فيتغير شخيرها بالتدرج ليصبح رعشات تعلو وتنخفض.

- ما بك يا حبيبي، هل انتصبت فجأة، دعني أنام، آه حبيبي تبا آه ه ه اشتقت إلي.

قلت في نفسي:

- الأهم أني قطعت صوت شخيرك الأشبه بقطار الفحم السوري الذي يجوب المدن والقرى النائية.

ضاجعتها تلك الليلة حتى خارت قواي ونمت ورأسي بين فخذيها، استيقظت ونصف جسدي على الأرض ونصفي على طرف تلك الإسفنجة التي تقاسمناها معاً،الإسفنجة التي تحولت لخندق حربي بعدد العابرات اللاتي تمددن عليه، عليها انتحاراتي المتواصلة ومشاهد انكساري أمام طيفك، قبلة منك كانت ستملأ أعماقي نشوة لا تنتهي فيما لو كنت معي الآن، كانت ستقضي على تاريخ من الحزن والغصات، لكن ذلك لم يحدث، فلا حياة دون نقص موجع يضمن نزيفنا على الدوام، لم يعد أحد يعرف أخبارك، كثرت الأقاويل منهم من قال انك استشهدت عند

الغزو التركي لمدينة عفرين، ومنهم قال انك أسرت وكنت إحدى اللاتي تم اغتصابهن بالتناوب من قبل قادة الميليشيات التابعة للاستخبارات التركية ومنهم من قال انك لم تشاركي في الحرب أصلاً وانك تمكنت من الفرار لمناطق الشهباء، وآخرين تقوّلوا عنك الكثير منهم من قال انك تزوجت ولديك أطفال،أيا كانت النتيجة وكان المآل فلم أعد أفقه شيئاً سوى فقه الغياب وهذا الجنون الذي تغوّل بي إلى جانب الذكريات التي تعود بمعظمها لما قبل الحرب،أواصل امتطاءي لأينور في الصباح والمساء وفي هذا تفسير عن لجوئي للغريزة ومحاولة تضميد جراحي الروحية بهذا الفعل الميكانيكي الخالي من العاطفة، سوى كونه تعبير عن نداء الحيوان الذي بداخلي، فالجنس في عرفنا بات من عمل العاطلين عن العمل، الشقة بكاملها باتت مرتعاً لروائح الخمر والتبغ، والعلب الواقية تناثرت هنا وهناك عدا تلك المناديل التي نستعملها معاً لمسح ما علق على أعضاءنا الحساسة، أينور لا ترتوي، لا ترويها كتيبة محاربين مجالدين لو اجتمعوا عليها في الصباح والمساء لأعجزتهم ولم تعجز هي عن طلب المزيد.

- انك آلهة الجنس في هذا العصر.

- وأنت فحلي الأوحد.

نضحك ونشرب حتى ننام على بعضنا ونظل مخمورين طوال النهار، ذات صحوة استيقظت:

- سأذهب للخارج لشراء بعض الأحاجي.

- مدير البار اتصل بي عشر مرات أمس، سأذهب، لعله يريد عودتي لا بأس أفضل فالمصروف بدأ ينفذ ان لم يكن قد نفد حقاً.

05.02.2023

22:00

استيقظنا صباح هذا اليوم باكراً على صدى صوت سيارة الإسعاف والشرطة، مقتل ذلك الشاب المراهق المولع بموسيقى الراب وأداء رقصاتها، فريق التحري وحوله جموع من سكان البناية والأخرى المجاورة يحومون حول سيارة الإسعاف محاولين النظر للجثة عليها آثار ضربات سكين والجرح العميق على الحنجرة مروراً بالرقبة تشير إلى محاولة الجاني في ذبح المجني عليه من ثم طعنات بالسكين جاءت بتوالي على كامل جسد الضحية ذي الثامنة عشر ربيعاً وأصابع الاتهام توجهت إلى الشيخ وجماعته التي تتردد إليه لأداء الطقوس الدينية، فراحت الشرطة تقبض على الشيخ كونه المتهم الأول وفق رواية تناقلها شهود عيان وهم من سكان المبنى ممن شاهدوا الشيخ ذو الخمسين عاماً يهم بصفع الشاب ناعتاً إياه بالكافر المرتد، وهو في الآن ذاته كان ينظر لأينور نظرات الشهوة والاحتقار في آن.

هذه الحادثة منعتني من النوم بيسر ناهيك عن الأرق الذي أعيشه، وزادت من غضب أينور وحنقها فراحت تلوك سيرته بين حين وآخر، فراحت تسرد حديثاً خالياً من تأثيرات الخمر أو الحشيش تتحدث بوقار لم أعهده :

- كلاهما يرقصان، الشاب العاشق للراب يؤدي طقوس الموسيقى تعبيراً عن حب الحياة ورفضاً لسلبياتها ومنغصاتها محولاً الألم اليومي لفن وآخر يرقص ويهز رأسه وذراعيه ويصرخ ملقياً تعاويذه ليحس نفسه أنه حامي الله على الأرض يفرض على الناس ما يجب أن يفعلوه وما يجب أن ينهوا عنه وشتان ما بين طالب للحياة وناقم عليها، شتان ما بين طفل

يحاول الوصول للنجوم عبر ممارسته للرقص ومحاولة إيصال رسائله للناس عن طريق إلقاءه لها وما بين آخرين يؤدون رقصات غريبة تذهب بالعقل والمنطق وتفتح أبواب الشر والاضطراب والجنون.

هذه الرقعة التي تم وأدها منذ قدم الحروب والنزاعات تراكمت فيها العلل والأوبئة حداً امتدت أذرع الخراب فيه كل مناحي الحياة فلن تلتقي في أرض الأناضول سوى ميادين للذئاب تفتك بالأقل قوة ومالاً وتخرج أحشاؤهم وتفقأ أعينهم الزائغة الباهتة خارج محاجرها، لن تلتقي هنا إلا بالعبيد الذين استساغوا عبوديتهم وهم يسبِّحون ويحمدون بالحرب ويقولون الله أكبر قبل أن يقتلوا ويغتصبوا ويعتدوا باسمه ويمتطوا الجماهير التي تلهث خلف جوعها وعوزها لتلك المخدرات الكلامية والوعود البراقة في مواسم الانتخابات، حيث اعتاد الأتراك تيمناً ببناني تركيا الحديثة أتاتورك بخطب ود الكورد لتحقيق طموحهم في الوصول للسلطة وكان لهم ما أرادوا فالكورد هم نفسهم في الماضي والحاضر أسود على بعضهم و قطعان أغنام تحت إمرة مسترقيهم يسوسونهم تارة للمقاصل وأعواد المشانق وتارة أخرى ليكونوا خير طريقة لجلب الأصوات للناخبين وبيادق رخيصة لحروب يكونون هم وقودها وقادتها الأماميين، دوماً كنت أدير ظهري للسياسة وأفتح فخذي للريح، بعد أن أزيل كل تردد أو خوف، لم يزدني ذلك إلا كآبة، أشعر أني ربابة مهلهلة الأوتار بيد بدوي قميء رث الثياب يقضي حياته بعيداً عن قومه في برية جرداء وتحت خيمة قديمة مرقعة ومهترئة، لم تمنعني اللذة ولا الخمرة ولا أي بنج او مخدر عن البكاء العميق ليتمي وشعوري بحنان أم أفتقدها أو حبيب أوجه صلاتي للجهة التي يجلس فيها، لقد عشت فاقدة ظلي، أشعر أن صوتي بلا صدى ودمي بلا لون، وقلبي بلا نبض

وضحكتي بلا صوت
إن هذا العمر الذي أرثيه أبداً يحيلني إلى التقاعد واعتزال كل أنوثة حياة البار ومجالسة السكارى ووشم الجسد بالتاتو وحقن الجسد بإبر الهيروين
كل ذلك لم يردع الحزن ولم يلجم دمعي من أن يجري ليذكرني عند كل انهمار بمن أكون تنهمر أجزائي مطراً، تنهار أشلائي كبناء قوضت أسسه الهزات الارتدادية، جسدي المنهك حائط بيت ريفي، وسَّخه أطفال القرية وتبولت على جوانبه الكلاب والسكارى الذين بلا مأوى، هذه الحادثة التي أودت بحياة ذلك المراهق أعادتني لآلامي التي وخزتني كنبال مسمومة، كنت أصادفه مراراً برفقة أصدقائه، يجوبون الشوارع فرحين ينشرون مرحهم، يقوم بتأليف الأغاني التي تكشف عن أحلام المراهقين والعشاق، وكانت نظرات تلامذة الشيخ تتفحص سحناتهم بحقد وتذمر، أما أصدقاء ذلك الشاب لم يكن لتعيقهم نظرة أو يرهبهم زعيق،طقوس لتنويم العقل، لاستجلاب العنف، وجعل الدنيا فوهة ناي، لجعل ذلك العقل المتدين يعتقد جازماً أن الدنيا برمتها تسير في ضياع وأن مهمته تقويم الضائعين والضرب على أيديهم بل وقطعها وأن الموسيقى صوت الشيطان
ارتطم الشيخ جارك المجرم بجسدي عمداً، راحت نظراته التي تسيل منها لعاب الجرذان تلتهمني، جحظت عيناه بغتة وتوسعت فوهة فمه الغليظة ببطء وبقي متسمراً على الدرج يرمق كامل جسدي بنظرة متحر مبتدأ قلت له:
- أفسح لي مجالاً من فضلك أريد المرور.
أي حضيض يلازمه وفي أي حفرة مملوءة بالبراز جبل هذا الغائط

المتيبس ذي اللحية الطويلة كمكنسة السقف، ولله في خلقه جرائم لا يغفرها الضحايا ولا ينساها الضعفاء والبؤساء فليس ثمة من حكمة وراء وجود القبح والدمامة سوى أنها تستدلنا ببساطة لجوهر الحياة وعبثيتها

الكون كهريز كبير ونحن فيها قطع غائط متيبس تطفو على سطحها إلى القاع الأسفل عذراً لزكين أيها الفتى المرهف والفوضوي والوسيم والأرعن، عذراً إن أخرجت هذه الحقيقة مثل ضرطة تدوي رائحتها وتظل شهراً أسيرة الغرف الضيقة العفنة، بانغماسنا الشديد داخل معضلاتنا، نبصر الحياة على حقيقتها، إنها كالطقس وتمر علينا لابد أيام قاتمة متتالية ومتشابهة نشعر أنها تستقطع من أعمارنا، هذا الشتاء البارد بارز كسحناتنا المتصقعة، وامرأة مثلي لم تنل حناناً كافياً وعطفاً من أبيها، بلا جناح، وأضلعها متكسرة، إلا أنني وسط زحام الأفكار والهواجس أمشي على رؤوس أصابعي وبخفة ورشاقة من شارع لآخر من حي لآخر، فالناس لدي شاخصات مرور، لانتباه أكبر خشية من عبوري قبالة مطب، حين تجبرك الأيام على أن تكون كل شيء لنفسك، لن تنتظر أحداً يضمد جرحك أو يواسيك، ستشعر أنك فقط الذي تحتاجه أبدا

أمي إلى جانب تعاطيها وإدمانها على الكحول كانت متسلطة نكدية، لا أدر كيف احتملها والدي المسكين المتعلق بوطنه جداً إلا أن تردي العلاقة معها إلى جانب المشاكل السياسية العاصفة بتركيا جعله يتخذ قراراً بالمغادرة، لي صورة وحيدة معه عندما كان عمري سنتين ونصف، ابتسامته داخل الصورة كوت قلبي، حاولت التواصل معه والسؤال عنه، وما جعلني أكف التحري عنه تزوجه بامرأة أخرى وله منها ثلاثة

أولاد ابنين وطفلة صغيرة، لا أدر، دبت في داخلي مشاعر النفور، ربما الغيرة هي السبب، لكني بت أشعر بألم عميق حفر بداخلي مجرىً طويلاً، أحسست أنه ضليع مع أمي في تركي هكذا يتيمة متشردة بلا مأوى، فمن يريد معرفة تركيا كوطن سيعرف حقيقتها من خلال عائلتي تركية متسلطة وكردي بلا مسؤولية وشخصية فضَّل الهرب على البقاء، أن أسرتي تعطي كل من يريد معرفة هذه البلد صورة واقعية ومؤثرة
واقع يفسخ أعماقي، يطرد البسمة خارج أسوار ثغري، يجمح بي للظلام، صار كل جرح ينزف خارجي بالأصل جرحي وما الجريمة التي وقعت لجارك الشاب إلا خنجراً انغرز في قلبي، رائحة دمه الغزير تزكم أنفي وتحيل سريري للون أحمر قان، فرقعة الأناضول وكردستان اكتست بالدم وأينعت من الدم شقائق النعمان لتصير الحقول والينابيع والأنهار والبحار جزء من انتكاساتنا في الحياة حيث زرقة الماء دم والسماء نزيف أزرق يسد بداخله الدم كي يظل تحت الجلد الملتهب دماً جامداً.
سكتت أينور لبرهة ثم أطلقت من روحها دموعاً تشبه الصواريخ الدقيقة في سرعة انهمارها متزامنة مع حشرجات بكاءها، لم أستطع حيالها فعل شيء تكاسلت حتى لدرجة إخراج منديل من الكيس وإعطاءها لها لتمسح دموعها، تركتها تغسل قلبها وما علق عليه من غبار وضباب وضياع، حتى أضحت
الساعة الثانية عشرة تماماً

06.02.2023 24:01-

يبدو منظر أينور أكثر دفئاً وروحانية وآثار الدموع المنغمسة بالكحل على وجنتيها كآثار أقدام جوالة مجهولين، شعرت برغبة لضمها، شعرت

أنها أنت، إنك أخيراً اتحدت معها وصرتما حديداً وأسمنتاً، ظفراً ولحماً، وقتها شعرت بالسكينة اخترقت قلقي كسكين حادة، ضممتها، كأني بذلك أعيد أجزائي المبعثرة المنفرطة كمسبحة تناثرت خرزاتها الصغيرة السوداء على أرضية سيراميك، ذات رائحتك، تركت القلم والأوراق جانباً، لقد رأيت طيفك منصباً في مصب ملامحها، لن أكتب المزيد بعد الآن، سأخلد في ذلك الحلم السرمدي ها قد التقيتك متمنياً من الله، ومن كل الآلهات التي عبدتها البشرية حتى الآن ألا أصحو ثانية من هذا الحلم .

موت طارئ

قرأ بيكس الأوراق الصفراء الرطبة في تلك الليلة كاملة حتى الفجر الذي تلا زلزال يوم الأمس، راح يحدق في الركام ويتفقد الأنقاض، عسى يصادف جثة لزكين وأينور أو يسمع عنهما شيئاً، بات وحيداً، أصبح اسماً على مسمى، في تلك الخيمة لوحده، غالبته الدموع الساخنة في تلك الليلة، الزلزال حوّل ذلك الحي لبؤرة مسكونة، زلزال بلغت قوته 7.8درجات وعدد القتلى بالمئات والمصابين بالآلاف، يسير السكان المتضررين بالأرتال تحت الأمطار الغزيرة، والضحايا وفق إحصاءات بلغت حوالي 4000 في مدينة كردية منسية، الزلزال قوض 3500 مبنى، حاول مع فرق الإنقاذ سحب الناجين، بيكس ذو العشرين عاماً، طالب كردي من الشمال السوري فقد صديقته التي كان يتحدث معها حتى فترة متأخرة من الليل، بينما كان يرتاد في الخارج مشرباً لشرب البيرة، وكان من عادته المشي مع أصدقاءه في الليل ولحسن حظه فإنه قد غادر الشقة قبل الزلزال بثلاث ساعات وخرج منها بعد أن جاءه اتصال من صديقه يدعوه لمشاهدة فيلم في منزله الذي كان خارج خارطة وقوع الزلزال وقتذاك، وقد خرج من الشقة حوالي الثالثة بعد منتصف الليل أي قبل الزلزال بساعة، الأهم انه قد نجا بالصدفة،انقطع اتصاله بصديقته التي أحبها وأراد التقرب منها أكثر، لا يعلم بيكس سبب انقطاع الخط، أيكون الزلزال هو السبب أم أن شحن بطارية جوالها قد نفد، شخص بصره حين رأى مشهد تهاوي مجموعة من الأبنية، كأنه في فيلم نهاية العالم 2012،حينئذ وصل لحقيقة أن كل شيء ممكن في هذه

الحياة وليس بعيداً أن تهبط الكائنات الفضائية عبر صحونها إلى الأرض لتطارد لو آخر بشري أو كائن حي إلى مثواه الأخير، آلمته حكاية لزكين الشاب الكردي العفريني العاشق لحبيبته رونيا التي وإن كانت حية قبل الزلزال فإنه من المحتمل أن تكون من عداد الضحايا في جنديرس، تلك البلدة المنكوبة والمنهوبة في آن، وحدها تلك الأوراق شهدت أحد المآسي الإنسانية ووثقتها بعناية الفجيعة وأمانة القدر

منهم داخل سياراتهم وآخرين نصبوا خيماً في الساحات والبعض يخشى العودة للأبنية التي بقيت واقفة مكانها وأصابتها التشققات حالها كحال الجنود الخارجين تواً من حرب ضروس، والخوف بلطجي عملاق الحجم يمد رجليه صوب فم الجالسين صوبه يحثهم على الخشية مغبة أن يقوم بوضع حذاءه داخل أفواههم إن أتوا بحركة أو حاولوا النبس، بحرف، خسر معظم أقاربه و أصدقاءه ممن صارت أخبار موتهم وإصابتهم تأتيه بتوالٍ، وطوى الزلزال صفحة الأمان والاستقرار لديه، أوجد لديه الإحساس بضرورة أن يتحرك للمساعدة، لم يعرف من أين يبدأ، الأفكار والآلام تثقلان رأسه وتضعفان همته، لسانه عاجز عن الحديث، وقف مرة أمام المذيع ولم يعرف الكلام، التلعثم أكل لسانه، صار يهلوس، كمن شرب زجاجات معمل صناعة العرق كلها، دوار وصداع يلعبان الكرة برأسه الكروي ووجهه البيضوي، عيناه الصغيرتان تكادان تغيبان من شدة البكاء على من فقدهم، هو عاطفي للغاية، يعاني من التهاب مزمن في القولون، بخاصة عند مكوثه الطويل في الشارع والبرد القارس التحفه معطفاً والصقيع اتخذه أنيساً، لم يعد يرغب إلا بالرحيل، لكن أين، يعني أن يفر من نفسه، همومه صارت أكواماً من حصى قرب نهر الفرات، أحس بجسده المتعب بوجع الظهر والمعدة، أحس أنه بقايا

قطع بلوك متكسرة أو شاهدة قبر مكسورة الأطراف، أراد العودة لمدينته منذ زمن إلا أن الظروف ازدادت قسوة والمعاناة تفاقمت، يمشي بين الحطام، يلقي بأذنيه هنا وهناك، يتساقط مطر، يبحث عن سقف وطيء يجلس تحته، يجد بقع دم، ومعطف أطفال مشقوق عليه آثار تراب، بلله مطر غزير، يجد منشرة غسيل مكسورة وقطع من بانيو على الطرف الآخر من مصعد وقف لوحده بين جدار متداع حوله، التشقق ظهر بمنتصف الشارع المزفت، فرق الإنقاذ المحلية منشغلة بالبحث عمن هم أحياء وموتى على حد سواء، طفلة ميتة تم انتشالها، امرأة مسنة هي الأخرى يخرجونها تحت طاولة حديدية من المحتمل أنها وضعت نفسها تحته لكن ذلك لم ينقذها من موت محقق حيث خرت هي والطاولة معاً،لا أحد بإمكانه الاقتراب من الأبنية التي توشك على السقوط، ولم يعد لدى المنكوبين الناجين دموعاً تكفي للبكاء على من لقوا حتفهم، انهم في حالة نحيب، لم يعودوا يفكرون سوى أن يجدوا أكبر قدر ممكن من الناجين ممن سهى الزلزال عنهم، قرر الذهاب إلى ديار بكر(آمد) بعد سماعه نبأ موت أخته وإصابة زوجها البالغة وكذلك موت أطفالها الثلاثة.

بدت ملامحه صفراء كليمونة، كأنه جثة في مشرحة، هرول مستقلاً أقرب حافلة إلى هناك، لقد بقوا لأيام تحت الأنقاض ولم يتمكن أحد من إنقاذ تلك العائلة، حيث نالت مدينة ديار بكر» آمد « بالكردية نصيباً بالغاً من الدمار والإهمال الحكومي المتعمد لها كون غالبية سكانها من الكورد وقد انتقد بعض من الصحفيين هذا الإهمال لواقع المدينة وتعرض بعضهم للاعتقال بتهمة التضليل ونشر الكراهية،ساعتان وعشرين دقيقة تفصلان أورفا عن آمد، قضاها برفقة زجاجة بيرة،

جلس في زاوية المقعد الخلفي من تلك الحافلة الأشبه بقطار الأنفاق إلا أنه ذو طابقين، جلس عند نافذة الحافلة يتأمل الطريق بعينين دامعتين، دموعه تتساقط على شفتيه، ذاق ملوحتها، وتناول منديلاً يمسح بها السائل الذي خرّ من أنفه ودمع عينيه، يتخيل ضحكة الأطفال وابتسامة أخته الكبيرة التي ربته أيضاً و كونه آخر العنقود أصغر أخوته وأخواته، شعر حينها بأن الأحياء هم الذين يموتون باختفاء الذين هم سر أمانهم وطمأنينتهم، بالقرب منه جلست فتاة جامعية، بالمصادفة أحس أنه قد تحدث معها قبلاً منذ أن كان طالباً مستجداً في جامعة حران.

- زيلان أهذا أنت؟

- أهلاً بيكس، خيراً عزيزي، أراك مهموماً.

أختي وأولادها «وبثغر مرتجف حزناً» ماتوا في الزلزال وصهري في المستشفى، إن إصابته بالغة،زيلان عرفت بيكس، عندما كانت في السنة الرابعة قسم الجيولوجيا، عرفته طالباً نبيهاً ومحبوباً من قبل محيطه، يهتم بالمطالعة وكذلك يتمتع بميزة الدماثة وانجذاب الطلاب إليه، أما زيلان فهي فتاة في مطلع الرابعة والعشرين طويلة القامة مكتنزة الصدر ممتلئة الوركين عريضة الكتفين طولها مثالي ١٧١ متراً وأطول من بيكس بسنتيمتر واحد، شقراء الشعر خضراء العينين لديها شامة بنية أسفل خدها الأيمن وشامات صغيرة ناعمة جداً على كامل الشريط الحدودي الذي يفصل نهديها عن صدرها، دائمة الابتسام، شفتاها على هيئة حرف إم بالإنكليزية، الشفة العليا أقرب لجناحي طائر والسفلى ممتلئة، أما أنفها فصغير كأنف الحمام، وشعر مسترسل طويل تقوم بتخصيله وتجديله في الغالب، شعرت ببيكس وحزنه، راحت تضع يدها على كتفه:

- اهدأ، أدرك حجم ألمك ومصابك، عزاءي لقلبك.
- كأن الزلزال كان ينقصنا وسط مشقة الحياة وصعوبة المعيشة، أختي سما الوحيدة التي تبقت لي والآن ماتت، وبموتها تنسدل ستارة الأمل دون رجعة،الزلزال أنهى دراما العاجزين والمتخمين بؤساً، لفظهم في جوف الأرض، الصفائح التكتونية اشتاقت للحم البشري، والبشر باتوا داخل الأبنية كعقارب مختبئة في أوكارها وخرجت لتلقى حتفها من قبل صيادي العقارب ومتتبعيها،أوقف البؤس العقول بل عطلها أينما اتجهت تلتقين بالفناء وتوابعه، أجد الموت في كل مكان يحدق بنا، يراقبنا، يتقيؤنا على هيئة سيارة يخرج من مؤخرتها دخان المحرك لتلقيه على طول الطريق السريع، أبصره على هيئة أعمدة الكهرباء وكابلاتها السوداء المتشابكة وعلى هيئة القراميد والمداخن أو هيئة المرأة القبيحة التي لا تتمكيج أبداً وتخرج من البيت دون أن تمشط شعرها أو تغسل وجهها،أبصر الفناء في سحنات المتعبين وذوي التجاعيد،وأبحث عن شيء يبعث على الحياة والدفء لكن عبثاً
- كل شيء سيعبر، كمرور الحافلة بنا يستحيل أن نموت بموت أحد.
- أين ذاهبة.
- إلى آمد.
- ماذا ستفعلين هناك.
- سأفعل ما بوسعي، واجبي طبعا.
- الناس بلا بيوت في العراء.
- لا تدع اليأس يسيطر عليك.
-كيف
- فكر بنفسك وثق بها

- شكراً للصدفة التي جمعتني بك اليوم.

فجأة أتته رسالة من أخيه الذي يعمل عتالاً في سروج يقول فيه:

- حمد لله على سلامة ابنة أختك الصغرى لم تمت عثروا عليها مصابة.

أحس بيكس بأن ابنة أخته نيركز رجعت من الموت للحياة، لوهلة ظنها في عداد الموتى، يبقى غالياً جداً معنى أن يظل شيء من أخته على قيد الحياة، تنفس الصعداء، شعر بدموع الفرح والألم تغمرانه وتنهمر دموعه بتتابع، راحت زيلان تبادله الابتسام والدموع معاً

- نيركز حية لم تمت، شيء من أختي لا يزال حيا.

شعر بقليل من الهدوء، نظر لعيني زيلان، استمد منهما الأمل وراح يتأمل الطريق، يحاول استجماع أفكاره، استحضر الماضي، ملامح شقيقته، منذ أن عرفها طفلاً، مروراً بمرافقتها له للمدرسة، ومساعدته في لبس الحقيبة المدرسية، واللعب معه بالثلج ومساعدته في حمل ربطات الخبز الساخن من الفرن الآلي، كل صورة دمعة ساخنة، لا يستطيع الصراخ وهو في الحافلة، لكنه يواصل النحيب والأنين، يحاول قمع دموعه وإحساسه بقسوة الفجيعة، دمعته باتت كجموع المتظاهرين الوافدين لساحة الاعتصام بالآلاف، يعجز عن لجمها،تذكر اللحن الحزين للمسلسل الأمريكي الذي عرض في نيوزيلندا «سبارتكوس»، شعر بشعور العبد الأسير، بظل يقول له فلتنسى أختك أفضل، يتقطع قلبه وقت يهاتفه هذا الظل، زيلان تحدثه ولا يرد عليها، أحس بانفصاله عن المكان والزمان عدا عن إيغاله في ملامح أخته وولديها، أحس أن الوقت يعرج على قدميه، يمر ببطء السلحفاة، يشويه على نار هادئة، سحنات الركاب باهتة، الزلزال الذي حل بالبلاد رهيب، رائحة الموت انتشرت في كل مكان،رغم انه استقل حافلة فاخرة لشركة Metro Turizm والتي

أسسها كاليب أوزترك في التسعينيات، ورغم تمتع هذه الحافلة بالعديد من الأمور المريحة من تكييف وخدمة إنترنيت إلا أنه أحسها عربة تجرها بغال متعبة توشك على السقوط والموت

- كم الطريق إلى آمد شاقة والوقت الحقير محقق يستجوب متهماً مرهقاً لم ينم منذ أيام.

قالها في نفسه مستجيباً لحوار الصمت الذي دعته زيلان إليه، فما تبوح به الملامح لا تستطيع الألسنة الإفصاح عنه

تذكر رحلة النزوح الشاقة إلى كردستان الجنوب صوب أحد المخيمات المعدة لنازحي رأس العين بالكردية سرى كانيه، والتي شهدت نزوحاً من قبل الأهالي إبان العملية العسكرية التركية في 9 أكتوبر 2019، نزح بيكس الذي كان حينها في السادسة عشر من عمره مع عائلته، توفيت والدته قهراً لتركها البيت للصوص المرتزقة ممن استولوا على البيوت والممتلكات ونهبوا ما فيها كما فعلوا ببقية البيوت والمحلات التي وقعت بأيديهم كسائر المناطق الأخرى التي سيطروا عليها بدعم تركي وتحت يافطة الثورة السورية لم يكن ما حدث لهم يكفي حتى أكمل الزلزال الذي حل تلك الفجيعة فمن تبقى حياً بات إما ميتاً أو بلا مأوى

إزاء الكارثتين، الأولى التي يصنعها البشر بالأضعف منهم والأخرى التي تصنعها الطبيعة ضد كائناتها من بشر وحيوان وجماد ونبات، شعر أنه بات كهلاً بهيئة شاب شاحب الوجه، رغم إتقانه للبسمة وتماديه المفرط في حب الحياة،شغف بالقراءة ومعاينة الحياة من خلال تواصله مع الآخرين إذ يجد فيهم عزاء ويجد في نفسه الملازم لكل من يشابهه ويشترك معه في تحمل أعباء النزوح والزلزال الأخير.

- اعذريني زيلان فمصابي كما تعلمين كبير، لكني سعيد بوجودك، يعزيني قربك يشعرني بالطمأنينة، الحريق الذي بصدري هائل، لا أريد أن تتسع رقعته نحو قلبك، لهذا أفضِّل الصمت والنحيب، ملامحك تبعث على الراحة، لا أعرف ماذا كان سيحدث لي لولا لقائي بك اليوم.
- لم أفعل شيئاً ويؤلمني عجزي عن فعل شيء، لحسن الحظ فإني أدرس هنا في أورفا وقد قدمت من ماردين ولا يوجد هنالك زلزال لكن واجبي يحتم علي المساعدة ما أمكن.
- مصابنا في ظل التعتيم الإعلامي والإهمال الحكومي عظيم، فمعظم الأماكن التي حدث فيها الزلزال هي في كردستان، وليس للكردي إلا الكردي، لقد سمعت ما حدث في جنديرس وعفرين .

هناك يبث مسلسل الموت اليومي، فلم يكفي ما حل بأهلها من تنكيل وإذلال دائم عدا عن كون الكردي هناك يدفع ثمن كونه كردياً جاء الزلزال ليدمر ما تبقى وليثكل الأرواح ويزيد البلاء.

الحافلة تمضي وتقترب من ضفاف نهر دجلة، هناك ينهض التاريخ مجدداً على قدميه،حيث الآثار في مدينة آمد شاهدة على أحداث جسام عبر التاريخ، حيث كانت ولا زالت العاصمة التي يتغنى بها الكورد وقد ضمت إلى بقية المدن الكردية حسب معاهدة سيفر إبان سقوط السلطنة العثمانية، سيفر التي كانت البشرى للكورد كونه أول صك دولي يقر بمشروعية وجودهم وحقهم في تقرير مصيرهم، آمد التي كانت مسرحاً للصراع المحوري القديم والمتجدد بين الكورد والأتراك، حيث تم إخضاعها بمعاهدة لوزان حسب اتفاق تركي بريطاني وفرنسي، وقد سميت ديار بكر كون قبيلة من العرب حطت رحالها فيه إبان الغزو الإسلامي، وذلك في زمن معاوية بن أبي سفيان، سماها الرومان آميدا

ومر عليها البيزنطيون والآشوريون، الإخمينيون ومن ثم السلوقيون، لكن الكورد أحفاد الهوريين استوطنوها كما فعل أسلافهم ولم تبقى من الغزوات سوى الآثار، كالخدوش والتشوهات التي وإن غادرت فإن آثارها تبقى، فمملكة ميتان عاصرت الحقبة البرونزية وامتدت جذورها للشرق الأدنى القديم وباتت مرتعاً للشعبين الكردي والأرمني كسليلين عن الشعوب الآرية القديمة، وفي القرن الثاني والعشرين عاش الكوتيون وبقيوا في آمد زمناً، وتلاهم فيما بعد الميديون سكان زاغروس وكذلك الكاردوخيون جنوب بحيرة وان وغرب ديار بكر، زيلان مغرمة بالتاريخ لكنها لم تدرسه وإنما تنفسته و أكثر ما يشد بيكس إليها صفاء ذهنها وذكاؤها المتقد، فحين يلتقيها يشعر بالغبطة والقوة، ولعل مأساة الزلزال زادتهم ارتباطاً، راحوا بين فرق الانقاذ يقومون بما يلزم من توفير للخيم والأغذية وتواصل مع المنظمات الإغاثية، تلك الفترة تحديداً أحسا كلاهما بقيمة ما يفعلان لأجل الناس.

الكوارث المتلاحقة جعلت النفس الإنسانية تعاني التشرد في خضم الألم الذي يتم اجتراره في المكان، زواياه المهدمة، تشققات الأرض وشقاق العائلات، كل ذلك الانقسام والتشظي داخل في النفس البشرية ذاتها ومتحكم بآرائها وأفكارها، وألسنة الحائرين من لسان هذا التهالك والاندثار الحاصل، فالصدمة العاطفية وليدة سوء التغذية وشح الموارد والجفاف واليباب، ذلك يؤثر على الفنون والعلوم الإنسانية، كما جعل التخبط في الجهل من الجماعات المنكوبة روبوتات معطلة، وألسنة ثملة لا تدرك شيئاً، زيلان بعين شاهدة على ما يحدث حولها تقرأ الوقائع والمآسي في دفاتر دموع الضحايا ممن نجوا من الموت لينعوا من ماتوا، فالعقل لم يستوعب ويعي هول ما جرى، الآلام معلبات فاسدة

يفتحها الباكون والحالمون ليلتهموا محتوياتها بشره، رائحة الموت تزكم الأنوف كما الأرواح الهائمة على وجهها، متعهدي الأبنية تكتظ شفاههم بابتسامات صفراء ووجوه وردية ترتعش، المقاولون حسب أنباء محلية تم توقيفهم، كونهم من تسببوا بوقوع تلك الأبنية الهشة في الأصل، مبنى من ٩ طوابق تساقط هكذا فجأة يوم الثلاثاء وأشخاص التهمهم الرعب هربوا من المكان بغتة وبسرعة الفزع، وفريق الإنقاذ الصيني يستمر في انتشال الجثث وتوديعها، ينحنون أمام الجثث ويحترمون إرادة الموت في نقل الأحياء إلى عالمه المجهول، الأنسجة الحية ما قبل موت الضحية في حوار سريع وطويل، زيلان تدخل بيكس عنوة في دوامة تساؤلاتها عن الموت، وبما أن بيكس يميل لوحدته فقد فضل الصمت والاستغراق في النوم على عشب عينيها الخضراوين،بكرديتها وحسها الأنثوي راحت تتحدث، كأنها على خشبة مسرح، بدا المقهى بالنسبة إليه خالياً رغم اكتظاظه، لا يسمع سوى ما تلقيه زيلان،فقد أثَّرت بها رؤيتها للجثث التي تم انتشالها، وراقها الحديث عن الموت وعلاقتها القديمة به منذ ولادتها في السجن عندما كانت والدتها سجينة في ديار بكر فكانت حاملة بها وقد ظلت معها في السجن وخرجت منها لوحدها، تكفلت جدتها والدة أبيها المتوفي بتربيتها، الموت خطف أمها وابتلع الجزء الأهم من طفولتها حيث خرجت من السجن عن السادسة من عمرها، ما يجعلها تتذكر السجن هو شعورها بالجوع وببكاء والدتها الذي لا يغيب عن ذاكرتها، حين تأتي إلى ديار بكر فإنها تشعر أنها على موعد مع أمها، على مقربة منها لا تزال تنتظر، تلك الذاكرة المتربصة بها كسور آمد صامدة بوجه النسيان، كطريق متعرج تسير الذكريات الواهنة بداخلها كأنما هي سيارة قديمة تعارك الوعورة، بيكس ما بين تنقله للمشفى

لزيارة صهره وابنة أخته والمقهى برفقة زيلان يستقبل مأساة جديدة تنقل أنباءها وتخرج من أعماقها تلك الأثقال كما فعلت الأرض وتقيأت أشلاء وأبنية بكل ما فيها من حديد واسمنت وزجاج وأثاث وماء

بيد أن الذاكرة المعطوبة هنا لا تتقيأ كل وجعها إنما تبقي من حمولتها ليبدأ الذهن بإخراج الغضب على طريقة الزلزال في البؤر النشطة كالنفس المثقلة بالحرائق والاضطرابات، حيث راحت زيلان تنفث من روحها دخان الأعماق المتعبة والتي راحت ترتفع كما الدخان الذي يذهب للأعلى من مداخن الأبنية والتي تنبعث من غاز التدفئة المركزية،انه أسبوع شاق في ديار بكر(آمد)، حيث تتعدد شواهد القبور والتي لا يحصي عددها أحد، وتتجمهر الآلام على هيئة الركام، ولمشاهد انتشال الأطفال من تحت الأنقاض حكاية تنفث سم الفجيعة السام داخل الأوردة الحالمة، الصقيع في كل مكان، هذا الطقس الخالي من الإحساس يجلد الأجساد والأرواح معاً، انه اليوم الرابع من الزلزال.

تسمر بيكس وزيلان أمام شاشة التلفاز في مقهى Sulukluhan

أخبار تقول بأن حصيلة الضحايا في كل من تركيا وسوريا تجاوزت ٨٤ ألفا منهم ١٧ ألف قتيل وعلى وقع المشاهد وتواتر الأخبار توقف الهزات الارتدادية الأنفاس وتقطع عليهما تأملهما وانشداههما.

هزات ارتدادية

زيلان ترتاد المقهى باستمرار تجده أفضل من التجوال في الشارع، استقلت خيمة في الساحة، بينما بيكس بين زيارته للمشفى وتردده للمقهى وكذلك لقاءه بأصدقائه هناك، كلاهما في تنقل وتجوال، كأنما الأفكار والهواجس تحركهم وتوجههم، إلا أن اتفقا كلاهما على العيش معاً في حي سور الواقع في قلب مدينة آمد والذي تعرض أهلها إلى تهجير واسع نتيجة الحرب ما بين حزب العمال الكوردستاني وتركيا في أيلول ٢٠١٥ وإثر حظر التجوال بات بعض أهلها بلا مؤن ومياه إلا أن آثار البؤس لا تزال مقيمة فيها استأجرت زيلان غرفة صغيرة تم ترميمها بعد النزاع إذ سقطت قنبلة أودت بحياة طفلة فيها، مما اضطرت العائلة إلى ترك البيت واللجوء لملجأ يقع أسفل فندق قديم، زيلان اطلعت على مأساة تلك العائلة التي تركت للعراء، راحت من الجوع تقتات النفايات، مات على إثرها معيل العائلة بعد تعرض صمام قلبه لانسداد في الشرايين، حي سور البارد جداً في الشتاء، تجد فيه زيلان طمأنينتها، عتيق يعود لسبعة آلاف عام وقد دخل في قائمة اليونيسكو العالمية كحي أثري ومقصد سياحي

فبعد النزاع الضاري بين الحزب والدولة، قامت الأخيرة بتحويل ذلك الخراب الناتج عن الحرب إلى شقق وفيلات فاخرة، الرعب استولى على الأهالي وقتها، لمَّا يزل الوضع على حاله من حينها مروراً بأيام حظر التجوال في المدينة، وهو حظر التجوال الخامس إبان مقتل الحقوقي المعروف طاهر إلجي، وبمغادرة الآلاف للحي وجدت الدولة في ذلك

فرصة لتدمير ما تبقى من الحي كاملاً، الهدف محو كل خلفية أثرية لهذا الحي وطمس معالمه، فبدأت الجرافات والآليات في تدمير تلك الحقب المنصرمة التي تعود لآلاف السنين، وتم أيضاً انتشال الجثث ورميها كالقمامة في مياه دجلة كي تغيب أعداد الضحايا الذين لقيوا حتفهم فوفق جريدة أحوال التركية دمر ٣٥٦٩ مبنى في الحي، كما حدث في حي علي باشا الأثري الذي دمر بالكامل وبنيت مجموعة من الفيلات على أنقاض ما هدم، فعلى الدماء شيدت تلك الحياة الزائفة.

هذه الأنباء باتت حديث الأماسي التي جمعت زيلان وبيكس بالعم أوسمان آمدي الذي كثيراً ما كانا يترددان إليه فهو موسوعة وطنية نادرة من القصص والحكايا والمآسي يقيم في الحجرة المجاورة للشقة التي يقيمان فيها، رجل له شارب كث ومفتول على هيئة ذيل عقربين، يرتدي جاكيتاً كحلياً وسروالاً رمادياً فضفاضاً،و قماشاً يلف به خصره ويسمى بالكردية الشوتك، و غطاء للرأس والذي يتم صنعه من صوف الخراف والماعز، وقد عرف في الحي بصوته الجبلي وقريحته الغنائية، إذ يلتف حوله في أي مقهى يرتاده جمع من العجائز يأتون من كل صوب وحدب من كل الأماكن لسماع صوته وكذلك أشعار أحمدي خاني وملاي جزيري، وقد بات مثار دهشة وإعجاب من قبل الحضور، يحفظ القصائد الطوال ويلحق تلك القصائد بوصلات من صوته الأجش والعذب، كل شيء عن آمد وأحياءها أرشيف محفوظ في ذاكرة أوسمان آمدي المولود في الرابع من أيار سنة ١٩٣٧ وهو نفس العام الذي قامت فيه قوات مصطفى كمال أتاتورك بارتكاب مجزرة ديرسم التي راح ضحاياها أكثر من ٧٥ ألف قتيل بسبب مطالبة الأهالي حينذاك بتعلم لغتهم الأم وممارسة الثقافة وحفظ التراث الكردي، لهذا يعتبر أوسمان

آمدي ذاكرة كردية صرفة تحوي الكثير وما أمر وأعمق ذلك الكثير.

لا يزال يتحلى بالقوة والعزم على الرغم من كونه تجاوز الخامسة والثمانين من عمره، وقد عانى في شبابه من الاعتقال والتعذيب في السجون مراراً وضمن فترات زمنية متقطعة، ولم يفكر مغادرة كردستان رغم الضغوطات الجمة التي اعترضت سير حياته، لم ينمو لأصابعه أظافر بعد عملية القلع التي لقيها في السجن، وفي تلك آثار باقية تشير لحياته الصعبة والسنوات الخمس التي قضاها معتقلاً في سجن قوجه إيلي الواقع في شمال غربي تركيا والقريب من العاصمة أنقرة في ذلك السجن المكتظ بالوباء عانى ورأى الموت الذي راح يلوح له بالقرب منه دون أن يخطفه، وقد شهد معاناة المساجين وموتهم البطيء كأنهم شمعات تذوي وتذوب ببطء شديد، حيث يغادر من في السجن على توابيت في الغالب، فتلك إرادة السلطة أن تكون الحرية المطلقة للسجين بتحرر روحه من جسده، وما بين حين وحين يقتحم السجن القوميون المتطرفون لضرب المعتقلين الكورد بالهراوة فقد على إثره البعض ذاكرتهم وآخرون لقيوا حتفهم إثر تعرضهم لنزيف في الدماغ، يتذكر كل شيء؛ يتساوى في ذهنه الماضي والحاضر وكذلك الغد، وجد في جاريه الشابين زيلان وبيكس عزاءه، ينظر إليهما كأنه يعيد بانوراما عمره الذي فات، أيام كان فتى متحمساً لجوجاً يمضي في الدروب بكل براءة الأطفال وشجاعة الكردي في التحفز لتسلق الأعالي، قضى حياته في القرى والجبال، وقد شبع من سمنها وعسلها، ونفث من سجائر الغازي الثقيلة ما طاب له، وقضى عمره كما والده وجده في الهروب من الجندية، وتزوج بمن يحب غصباً عن أهلها، وفر معها في ليلة سوداء مزدانة بالنجوم، يحفل أوسمان آمدي بذاكرة لا تقهر، إلى جانب أنه

موسوعة عتيقة من الأغاني والقصائد الصوفية

قلبه الدافئ موقد حطب مشتعل يكسر برد الشتاء القارس، وقربه إبريق قهوة مرة، في باله كأس شاي ثقيل يشربها في كوخ تحيطه ثلوج الشتاء المتساقطة على قمم جودي الشامخة حيث لحساء العدس الدافئ نكهة الخلاص من العبودية.

التقى بزيلان صدفة عندما خرج من حجرته للخارج، حيته زيلان

- العم أوسمان عمت صباحاً.

- صباح الخير ابنتي الجميلة.

- عساك بخير.

- الأيام تمضي، لن أصبح أفضل مما أنا عليه.

- أتعيش لوحدك عماه أين هم أولادك.

تنهد بحزن قائلاً:

- لي ابن وحيد استشهد في الجبال سنة ١٩٩٠ من ثم تبعته أمه بعد سماعها نبأ استشهاده بسنة وماتت هي الأخرى بالسرطان من وقتها وأنا أعيش لوحدي، تعالي معي أريك صورته وكذلك صورة أمه التي عشقتها ولم أتعب،هذه صورتها أيام كانت فتاة، إنها بالأبيض والأسود، الصورة بتاريخ ١٩٦٠، زوجتي من سرحد عشيرة سيبكا وهي من العشائر الكوردية الكبيرة التي كانت تقطن منطقة سرحد وبحيرة وان،تدين بالإيزيدية كذلك عائلتها فعلى الرغم من دخول العشيرة للإسلام عنوة، إلا أن زوجتي لسنوات ظلت تحدثني عن القمع الذي لقيه أهلها منذ سنة ١٩١٤ من قبل الجيش التركي والجهلة المتطرفين من الإسلاميين الذين استقدمهم الجيش كمرتزقة وتابعين لها.

- أين تتوزع هذه العشيرة ؟

- العشيرة تسكن في محيط ألشكري، واضطرت فيما بعد للنزوح باتجاه قارس ومن ثم أرمينيا و بعد ذلك اتجه قسم منها وأهل زوجتي معهم إلى مدينة عينتاب التي تتبع سرحد، والدة زوجتي نجت بأعجوبة من المجزرة واسمها كوى من عائلة الشاهي تحدثت لي قبل أن تموت حيث قالت:

- حين كنا نعيش في مدينة وان، تعرضت لنا على الطريق مجموعة من القتلة ممن رافقوا الجيش حينذاك وكنا حينئذ نرعى قطعان مواشينا قرب البحيرة، رأيت كيف عزلوا الرجال عن النساء وقاموا بشنقهم أمام أعيننا، ولم يكتفوا بذلك بل انهم عمدوا إلى سلب ونهب ممتلكاتنا وإضرام النيران في بيوتنا، وخيرونا بين أن نعتنق الإسلام أو يأخذوا النساء سبايا، أذكر ذلك اليوم المشؤوم في ٢٤ نيسان ١٩١٥، بعد أن قتلوا والدي أمام عيني، همّت أمي في الارتماء على جثته، صراخها الهستيري لا يزال حتى اليوم يقض مضجعي، حيث قام الأتراك ومرتزقتهم الأوغاد بتقطيع جسدها بالسيوف، وهي فوق جثة والدي، لن أنسى ذلك اليوم ما حييت، هم لم يشاهدوني لأني كنت صغيرة وخائفة في فراشي، لم أستطع حيال المشهد فعل أي شيء حتى الركض صوبهم، بات جسمي مشلولاً من هول الصدمة، بكت أختي الصغيرة في سريرها، سمعوا بصراخها فهمَّ أحدهم إليها غارزاً سيفه في صدرها ليخترق المهد أيضاً، من ذلك اليوم وأنا أعيش يتيمة محنية الرأس، هرب البعض باتجاه أرمينيا هلعاً وخوفاً، قرية بكاملها أبيدت عن بكرة أبيها.

تنهدت زيلان بأسى بعد أن انتهى العم أوسمان من الحديث:

ما أشبه الأمس باليوم صديقي بيكس من سري كانيه (رأس العين بالعربية) الواقعة في غربي كوردستان لقد هُجِّر سكانها أيضاً وأفرغت

المدينة وقد استقدم الأتراك والفصائل التابعة لها المستوطنين ليملؤا الفراغ.

- نعم إنها واشوكاني المدينة التي كانت يوماً عاصمة الإمبراطورية الميدية.

- هي الآن في قبضة اللصوص وقتلة الإنسانية أحفاد الذين قتلوا شعبنا على مدار قرن ونيف.

عندها تساقطت دمعة وحيدة وكبيرة من عيني العم أوسمان

- الأعداء يلقنون أبناءهم كراهيتنا ويقومون بنقلها جيلاً بعد جيل.

لم يعتبروا من الماضي ولم يقرأوا حاضر أبناءهم إلا من خلال عقليتهم الغائصة في الأحقاد، إن خوفاً لا نظير له تجاهنا ككورد يسكنهم، ولم يجيدوا سوى القتل والبطش والنهب ونقل الحقد من جيل لجيل، حتى أن الزلزال الذي حدث في معظمه بكردستان أداروا ظهورهم عنه، انهم سعداء في أن نموت وتغيب أشلاؤنا تحت بيوتنا المهدمة، يأخذون التعويضات والمساعدات بالأطنان وتذهب لخزينتهم وجيوب بعض المسؤولين والحيتان الكبيرة ويبقى الشعب في غفلة وسبات، انهم ماضون في هلاك هذه الدولة التي بنيت على الباطل والظلم أساساً انهم يمضون نحو النهاية ولا يشغلهم سوى أرق وجودنا ككورد، ما بني على باطل فهو باطل، وكوردستان الحق بلا شك قادمة أراها في عيونكم.

ثم سكت،توجه للغرفة مشعلاً سيجارته،ناظراً للأعلى، باتجاه الشرفة، بيته نظيف ومرتب كأن امرأة تشاركه فيه، إلا أنه اعتاد ذلك معتمداً على نفسه بالرغم من وجع مفاصله، حيث لم يطلب من أحد يوماً مساعدة، ينجز شؤونه بنفسه ويعيل نفسه من خلال مشاركته في بعض الأماسي الغنائية التي تقام في بعض المقاهي والمناسبات إلى جانب تأجيره للشقة التي فوقه لعائلة كردية من عفرين

- تفضلي زيلان، أين بيكس بالمناسبة هل يقرب لك.

- لقد خرج لزيارة ابن أخته، ولم يعد بعد، المسكين أخته وولديها وصهره من ضحايا هذا الزلزال، نزحوا من سرى كانيه بعد العملية التركية الأخيرة نحو إقليم كوردستان وصارت بعد ذلك وجهتهم إلى شمال الوطن بعد أهوال جمة لقيوها على الطريق، التقيته في الحافلة مصادفة وكانت وجهتنا آمد أما عن القرابة فلا يمت لي بصلة سوى أنه مثل أخي كوني بلا أخ وأخت وأعتبر كل كردي جزء من عائلتي، لطالما دفع والديّ حياتهما لأجل هذه القضية،عرفته منذ أيام الدراسة، لا أعلم عن وضعه الدراسي شيئاً، سوى أنه لم يكمل الجامعة بسبب ظروفه المادية وحاجة أهله له، أخبرني أنه يعمل في مزرعة، والداه يعيشان في قامشلو، وأنه ابنهما الوحيد وأنا ربتني جدتي وتوفيت أمي في السجن هنا في آمد، والدي اختفى لا أعلم عنه شيئاً، على الأغلب قتل، أو لا يزال في السجن، ولا أعلم في أي سجن أو أين قبره، كنت أعمل وأدرس معاً، لم يكن أهل أبي سوى ميسوري الحال ولم أشأ أن أكون عبئاً عليهم بل كنت ابنتهم وجزء منهم، مات جدي وفي قلبه حسرة معرفة خبر عن ابنه المختفي، علاقتي بأبي هي عن طريق صورة له معلقة في صدر غرفة الضيوف، كنت أقف أمام الصورة دوماً بعينين تلمعان من أثر الدموع،واقع قاس يا عماه لكن لا خيار سوى المضي قدماً فالحياة صراع، والقوي هو الأجدر بعيشها.

التجاعيد المحيطة ملامح العم أوسمان سيجت عينيه الزرقاوتين، أحاطت بهما بعناية رسم الزمن الذي أحدث كلفاً ونمشاً توزع كخريطة كوكب الأرض على وجهه جبينه وحنجرته، ولم يقارب ثغره الباسم والحزين، أصابعه المرتاحة على الكرسي تتحسسان خشبه ذو اللون

النحاسي، يقل في الحديث عدا الشجي منه فإنه يسهب بمهارة الحكواتي في البوح إلا أنه في قرارة أعماقه يخوض سجالاً لا يكاد ينتهي مع حبيبته، الأنوثة التي لا تموت صاحبة القبل الذهبية التي تجعل القمر الغائص في حليب الجسد الأبيض محتمياً بين الخطوط الفاصلة بين الشفة العليا والسفلى، وحده القلب العاشق يصم أذنيه عن نداء الواقع الاسمنتي حين يقول:

- لقد انتهى ذلك الزمن الذي إليه روحك تنتسب.

وقع هذه العبارة شديد كاختراق الرصاصة لمنتصف العمود الفقري، لا يأبه لذلك،

يتابع جر لحظاته الخالدة القابعة في دهاليز الماضي الجميل

- ما رأيك بفنجان قهوة نشربها معاً.

- بكل سرور،أنا سأعد القهوة .

- جميل.

- رائحة ومذاق القهوة من رائحة وطعم الحياة، الحياة مرة لكن رائحتها جميلة إنها تجمع المرارة والجمال معاً.

- لم أكن من محبي القهوة، إلا في أوقات الدراسة المركزة أو عند الاستيقاظ باكرا لا ضير أن يكون ثمة تواصل بيننا كوني من جيل الأحفاد بالنسبة لك، إني أشعر قبالتك كأني أمام قلعة تاريخية، كل جهة فيها حكاية وكل حجر مرصوف فيها على حجر غصات مرصوفة تحدثني عن الماضي الذي استشفه، ماض لم يوضع في الكتب ولم يعتبر تاريخاً، أن حضورك أمامي يا عماه هو حضور الزمن البعيد بكل ما فيه من تفاصيل، أن ملامحك وجغرافياها، تحدد علي المزيد من التأمل في هذا الحاضر وما فيه من علل، وعن سير هذه العلل وتطورها، حتى بيتك

أشبه بمتحف، السجاد المفروش، الأثاث، اللوحة الكبيرة، جبل آغري الكبير وقمته المكسوة بالثلوج،الهالة التي تحيط بهذا الجبل عظيمة، تتوارى الشمس خلفها وتمد أشعتها النحاسية على الحقول المترامية المتلاصقة بها،وتلك البيوت الطينية التي تتراءى من بعيد على جانبيها، حديث طبقات الأرض عن معاناة الكائنات على سطحها الواسع.

تبسم العم قائلاً:

- تلك كانت حياتي قبل أن اتركها خلفي عندما تركت الكتاتيب والدروس الدينية وحاولت مراراً الابتعاد عن الريف والاتجاه إلى المدينة لأجل الدراسة في مدارسها، لكن الحظ لم يحالفني، الأغنياء وأبناء الأغوات بإمكانهم الدراسة، رغم ذلك فلأبي الفضل في إتمامي لتعليمي فقد تمكنت من الذهاب لاستانبول سنة ١٩٦٠،عشت فيها أياماً جميلة وصعبة في آن، في حي أمينونو وهو حي يقع في قلب المدينة القديمة، القسطنطينية هناك عبق التاريخ الفائح فوح الزيزفون على طول الطريق الخالي من المارة، الشوارع مرصوفة بالحصى وأسطح منازل ذلك الحي تطل على جسر أتاتورك، زيلان اجلبي ذلك الألبوم من فضلك لأريك بعضاً من صوري وذكريات دراستي في استانبول.

- بكل سرور.

جلبت زيلان الألبوم وكذلك صينية القهوة، ملئت الفنجانين واستعدت لرحلة الزمن

. برفقة العم أوسمان وصوره

- هذه الصورة عند الميناء المطل على بحر مرمرة بجانب مضيق البوسفور والدردنيل، المكان الذي يفصل القسم الآسيوي عن الأوروبي، وهذه الصورة قريبة من فندق هيلتون القريب من مسجد

دولماباهاس، حيث ثمة طبيعة ساحرة لا تنتسى هناك، حين كنت أمشي لوحدي وقتها لم أكن أحس إلا بالزمن الذي خلى، العصر الوسيط حيث المساجد المتميزة بهندستها وفنيتها والتي ظلت قبلاً كنائس للروم البيزنطيين قبل غزو العثمانيين لها، ولعل أبرز تلك المعالم الشاهدة على عراقة البيزنطيين كنيسة « أيا صوفيا» التي قام أردوغان الرئيس التركي على غرار أسلافه بتحويلها إلى مسجد، ولعل ما شدني أكثر للمكان هو ميدان سباق الخيل، وقد بات رئة المدينة ومتنفسها منذ التاريخ الغابر، وهذه الصورة برفقة زوجتي إيمو، وقبالتنا بائع الزهور الذي يبدو مبتهجاً، آه كله مر بلمح البصر هكذا هي الحياة.

- تنفس أوسمان الصعداء، أغمض عينيه، لثوان، قالت زيلان:

- يبدو انك متعب، إن كنت تحتاجني، أرجوك اتصل بي فرقمي دونته لك في هذه البطاقة سأذهب الآن.

- رافقتك السلامة ابنتي، أشكر الله الذي جمعنا.

آلام وركام

نجاته من الموت قرار غيبي من القدر ببقائه ضمن دائرة موت بطيء، فبعد الكارثة الطبيعية وقبلها عاش كارثة الإنسان وظلمه لبنيه بمسمى الدين والقومية استجابة لضرورات ذوي المصالح ممن يعيشون على الأزمة وإراقة الدم الإنساني، لم يكن من أهل الثقافة ولا ممن يرتادون الأندية أو يشاهدون الأخبار، مع ذلك يكثر في تأمله لفداحة المعضلات التي تنتابه، والحيوات التي عاشها جعلته متمترساً بالحكمة مذ كان مزارعاً يعتني بزيتونه ويجني محاصيلها ثم يرسلها للمعصرة ويجني قيمتها مالاً، مروراً بفترة السجن بعد جر الأمن العسكري التابع للنظام السوري له إلى أحد مقارها بسبب اشتباه اسمه باسم أحد المتطرفين الإسلاميين المطلوب من قبلهم، وبعد مكوثه لعشرة أشهر، ستة أشهر منها عرفياً، تبين لهم أنه بريء وقد اعتقل وعذب ونكل به بالخطأ، انتهاء بسقوط عفرين ببلداتها ونواحيها وقراها بيد ما يعرف بالجيش الوطني للمعارضة السورية وهم عبارة عن شرذمة وخلطة من فصائل متعددة الولاءات من إخوان مسلمين ودواعش سابقين وقتلة مجرمين وأمراء حرب، يقاتلون ويقتلون لمن يدفع لهم أكثر، لهذا تراهم يقتتلون فيما بينهم بين فترة وأخرى لأسباب مختلفة تتعلق بالحصص والغنائم والنساء المختطفات والمبالغ التي انتزعت من الأهالي باسم الإتاوة، أبو بروسك نجا كي يشاهد أنواع الرعب اثر ذلك الزلزال اللعين الذي ضرب بلدته، لم يعد في جسد بلدته مكان للسياط والبصاق وآثار الألم والتعذيب منقطع النظير، فالرضيعة التي نجت بمعجزة من الزلزال،

تعرضت قبلاً لزلزال من نوع آخر، حين استولى أحد أمراء الفصائل على بيت أهلها عنوة وقاموا باغتصاب أمها على مرأى زوجها وأطفالها الصغار، وعلى الرغم من صراخ الأطفال إلا أن قضيب المغتصب لم يسترخ، كأنه اعتاد على ذلك لكثرة ما اغتصب، فلم يأبه لتوسلاتها ولا لصراخ أطفالها ولا لسباب وزمجرات زوجها المقيد بحبل، أبو بروسك باتت عيناه عدسة كاميرا دقيقة تصوران كل شيء وتحفظان عن ظهر قلب غضب السماء والطبيعة على شعبه الأعزل، ذاك المتوسد الحكمة الذليلة التي تقول: «من الحيط للحيط ويا رب السترة»

حيث تحكم فلسفة الفقر على المرء لتضعه بمرمى المتقنعين بفلسفة قهر الناس وإفقارهم وزجهم في صراعات لا منتهية، عقل أبو بروسك نمى في السجن عند مخالطته للإسلامي والشيوعي والبعثي الصدامي وما بينهم من باقي فئات الشعب اللامنتمية سوى لرغيف الخبز وشيء من الكرامة و لذلك الحنين للهواء النقي خارج السجن بل خارج تلك المبولة التي تعرف بالوطن و التي حوَّلها البغاة لدورة مياه كبيرة،تلك البلد المحكومة بالسجن المؤبد، تعلم أبو بروسك بداخل السجن من هؤلاء الساسة وأهل الثقافة والخطب بعضاً من مفاهيمهم المختلفة، لم يتأثر بها كثيراً ، لكن تجربته في السجن علمته أشياء لم تك لتسترعي انتباهه قبلاً،ظل في شبابه يبكي، ليقول عند المشيب ألا ليت الشباب يعود يوماً، أحد من في السجن قال:

- لماذا يود الكهل عودة الشباب وقد قضى صباه تأففاً وشكوى وبكاء.

- لا أدري، ربما ليواصل البكاء.

عندها عج المكان الضيق بالضحك،حاول سجين تم رميه في الغرفة بعد تعذيب، الضحك لكن فكه خيبّه فانسحب ثغره وعاد فمه للإغلاق

من شدة الوجع تساءل في نفسه:
- أيعقل أن أتمنى عودة الشباب حين أصبح عجوزاً، ربما لكن باستثناء « ما عشته في فترة الاعتقال والتعذيب»
راح ينظر لصور بعض من أولاد أخيه ممن فقدهم في الزلزال عبر جواله، صراخ العالقين تحت الأنقاض يتوارد على شكل ذبذبات في أذنيه وهو يحاول النوم، تلك التشققات أشبه بتماسيح تفتح أفواهها لاستقبال الفرائس والتهامها، تثير بداخله رعباً وحنقاً في آن معاً، الدخان والغبار يتبادلان التحايا بين ممرات الأنفاس التي فتك بها السعال الجاف، جثث ملتحمة بالتراب وأجزاء المكان المهدم، جثث لا تحرك ساكناً لكنها تنهض واقفة منتصبة مفتوحة العين في كوابيس أبو بروسك، جثة تصرخ وتتعلق بثريا السقف كقرد صغير، جثة أخرى تضع رأسها بين ركبتيها وتبكي ثم ترفع رأسها بغتة لتخرج مخاطاً أصفر ممتزجاً بالدم وتقذفه بوجه الجثة المقابلة المربوطة بحبل، رأساً على عقب كخفاش أسود وكبير، ثلاث جثث تتقاسم جثة امرأة حبلى وتتناول أمعائها الدقيقة والغليظة بنهم والذباب فوقها كهيلكوبترات حربية تواصل الأزيز، تلك الجثث مجهولة الهوية غائبة الملامح، لا قبور لها، اختار القدر لأصحابها موتاً سرياً، الواتس آب يعج بأنباء موت الضحايا، واليتامى واقفون طوابير بوجه الأحياء عسى أن يحظوا بآباء وأمهات جدد يحلون مكان آباءهم وأمهاتهم الذين سيقوا إلى الموت أفراداً وجماعات أبو بروسك يهم بزيارة سجن عفرين الذي تديره الفصائل المتشددة والمدارة فعلياً من قبل الاستخبارات التركية ليطمئن ابنته رونيا عنه كي لا تقلق عليه وتعلم أنه على قيد الحياة، لكن إدارة السجن رفضت طلب الزيارة المقدم من قبله كما كل مرة، رونيا في سجن تحت الأرض، رائحة العفونة فيه

لا تحتمل، إضافة إلى وجود الحشرات التي تشبه هيئاتها كثيراً سحنات حراس ذلك السجن الشهير، حيث كانت رونيا مقاتلة انضمت إلى جانب وحدات حماية المرأة عندما غزت تركيا برفقة الميليشيات المتشددة عفرين، لم تتمكن رونيا من تفجير نفسها بتلك القنبلة يدوية الصنع و التي كانت تحتاج بضع دقائق لتنفجر، راح المسلحون يبعدون القنبلة لتنفجر بعيداً عنها وعنهم وهكذا تم أسرها على وقع كلمات من قبيل:

- وقعت الخنزيرة بأيدينا!

وقد تبادرت في أذهان المسلحين فكرة أن يجلبوا كيساً ويشعلوا فيه النار لتحترق أطرافه وتتساقط على صدرها ورأسها وآخر قال:- نبدأ بإشعال النار في شعرها أولاً فرائحة الشعر المحترق أشبه برائحة الشواء، وآخرون طلبوا قتلها والتمثيل بجثتها على غرار ما فعلوه بالمقاتلة بارين كوباني، فهمّ أحد المسلحين محاولاً تجريد رونيا من ملابسها بالكامل وأراد تشويه جسدها، لكن آخر منعه من ذلك مكتفياً بوضع قدمه على صدرها وآخر ثالث نهره ليتوقف عن ذلك وآخر قال:

- لنتركها حتى يأتي المساء، ونضاجعها بالتناوب بدء من الرتبة الأعلى.

تم تسليمها بعد ذلك إلى فرقة الحمزات لتودع في نهاية المطاف للسجن، نالت التعذيب مدة ٨ أشهر، بواسطة الكهرباء إلى جانب التعذيب النفسي وقد صمدت بأعجوبة ثم تركوها لفترة فقاموا بنقلها بعد ذلك من المنفردة إلى سجن آخر يحوي ٢٧ امرأة و ٧ أطفال.

ثمة الكثير من النساء والعجائز لم يكن من ممتهنات السياسة ولا العمل العسكري، لكن لكونهن كورديات دخلن السجن،والبعض ممن عاشوا كنازحين إلى المنطقة قبل العملية التركية، تغيرت طباعهم مع من قاموا بإيوائهم وأحسنوا ضيافتهم ومعاملتهم فبمجرد أن تطوعوا في صفوف

الفصائل حتى بدؤوا بالدوس على سفرة مضيفيهم، واستولى البعض على بيوتهم بعد أن وشوا بهم بتهمة شائعة أنهم عملوا في صفوف الإدارة الذاتية، وقد اعتقد البعض من سكان المنطقة أنهم فقط يستهدفون مناصري الإدارة الذاتية دوناً عن أنصار المجلس الوطني الكوردي فراحوا يجاهرون بذلك لهم بما معناه أنهم كارهين للإدارة ومن عشاق البارزانية فراح أحد قادة الفصائل يجيبهم ساخراً بينما راح يجر رقبة الذي حدثه باتجاه فوهة كلاشينكوفه:

- لا أقذر من جماعة الإدارة الذاتية إلا هؤلاء جماعة المجلس كلكم من ذات الروث انفصاليون إرهابيون وملاحدة، اللعنة عليكم وعلى من تقتدون بهم والرحمة عليك يا صدام حسين كما قال أسعد الزعبي.

هناك في السجن تبادلت زهيدة ورونيا أطراف الحديث، حيث كانت في سجن مدينة كلس بعد أن أخذوها إلى هناك، راحت وبقلب مكسور تروي لرونيا وبقية النسوة اللاتي تحلقن حول بعضهن ليشكلن دائرة صغيرة:

- كنا ثلاث نساء أخرجونا من بين ٣٧ وثلاثين معتقلاً ممن كانوا معنا وهناك قذفوا بي لزنزانة في قبو تحت الأرض فيه ما يقارب ١٥٠ امرأة، لقد كن كرديات كلهن ومصيرهن لا يزال مجهولاً وغامضاً، فمن لعائلتها مال وقدروا على الدفع فإنها استطاعت المغادرة، لقد طلبوا من عائلة معتقلة كانت معي وهي في العقد الخامس من عمرها ١٠ آلاف دولار لقاء إطلاق سراحها،فقد بنى كل فصيل عسكري لنفسه سجناً، يضع فيه المدنيين ويخرجونهم لقاء مبالغ طائلة، في كل من ماراته وسجن الراعي وكذلك سجن مارع، ناهيك عن السجون الموجودة داخل الأراضي التركية، قاموا بنشر مقاطع فيديو عن نساء معتقلات من قبل فصيل تابع لفرقة الحمزات.

- كيف جرى كشف تلك المقاطع؟
- قامت ميليشيا تركمانية بالاشتباك مع الفصيل التابع لفرقة الحمزات
- وماذا جرى للمعتقلات عندما جرى الاشتباك؟
- تم اختطافهن ولا أخبار عنهن.

ثم تابعت زهيدة:

- النسوة المحتجزات تم تسليمهن للشرطة العسكرية والأخيرة عادت وسلمت المحتجزات لفرقة الحمزات

شيرين النزيلة الجديدة في السجن والتي كانت محتجزة من قبل فصيل السلطان مراد دخلت في الحوار قائلة:

- لمدة إسبوع كامل بقيت في الحبس الانفرادي، كنا ثلاثين امرأة في تلك الزنزانة الصغيرة العفنة، وبعض تلك النسوة اصطحبوا أطفالهم معهم، تلقينا الإهانة مراراً، فقد حولونا لحيوانات فلم يبقى حيوان إلا ونعتونا باسمه، تعرضنا للصفع، رشقوا علينا عبر مواسير المياه الماء البارد، تبللنا وتعرض الأطفال لبرد شديد بعضهم أغمي عليه وآخرون أطفال تقطعت أنفاسهم لشدة الصراخ، وامرأة عجوز سلمت الروح بعد أن توسلت مراراً بالتوقف عن رشقنا بالماء لكن دون فائدة، صرخاتنا وتوسلاتنا جعلتهم يواصلون التعذيب أكثر، وقد ماتت ثلاثة نسوة أخريات عبر صعق أجسامهن النحيلة المبللة بالكهرباء، نسوة كثيرات لم يكن يفهمن شيئاً عن السياسة اتهمهن المحققون بأنهن ضالعات في التعامل مع الإدارة الذاتية،الاغتصاب أو الإكراه بالزواج من عناصر الميلشيات أدى بقيام خمسة من النساء اللاتي كنت أعرفهن جيداً بالانتحار، كون البعض منهن وبسبب العار الذي لقينه فضلّن الموت على أن يخبرن أهلهن بحقيقة ما جرى لهن.

قاطعتها رونيا:

- إن هدفهم الواضح والجلي هو أن لا يبقى كوردي في عفرين إنهم يستهدفون وجودنا.

لبرهة، عم صمت تخللته قطرات تساقطت من سقف رطب، قطرات تباطئت في السقوط، لكن وقع سقوطها البارد أحدث قشعريرة حادة في الجسم، إنما أرادت التأكيد على مأساة اللاتي يقبعن في السجن.

تنقُّل رونيا من عدة سجون لأخرى داخل عفرين جعلتها تتيقن أن مدينتها باتت سجناً لا حياة فيه، قبل ذلك كانت المدينة ونواحيها مثار جذب واصطياف، حيث تنقلت إلى خارج عفرين مروراً بسجن الراعي الواقع في مدينة أورفا، وسجن الفرقان حيث يشرف عليه« فصيل تركماني يعرف بالسلطان مراد والذي ضم حوالي ٢٠٠٠ معتقلاً، بينما قام فصيل جيش الإسلام بتحويل مبنى مديرية المواصلات لسجن فظيع يحوي المقاتلين الأسرى الذين ولهول التعذيب فقدوا أطرافهم وأصبحوا مشوهين ومعاقين،حيث نقل المحكومون عليهم بالإعدام لسجن سرمد الذي يشرف عليه فصيل أحرار الشام.

أينما تذهب، تجد معاقل وسجون يتم فيها ممارسة القمع وتحويل من في السجون إلى فرائس سهلة يتم التهامها بروية ووحشية، فلكي يتمرس العنصر على فنون إقهار المعتقل فإنه بسهولة يجد بغيته في المساجين وقد تحولوا لحقل تجارب ولوحات للتدرب على رمي الرصاص وإصابة الأهداف.

رونيا تجلس في زاوية السجن بعيداً عن ذلك الهرج المؤلم بين النسوة الجالسات مع اللاتي تم سجنهن حديثاً لاستنشاق رائحة الخارج التي تفوح منهن، حيث يكررن الأسئلة ذاتها المتعلقة بحال الناس، كيف

يعيشون وماذا يأكلون ويشربون، عن بعض المعتقلات اللاتي تمكن ذويهن من شراء حريتهن وبعض الأخريات، لم يبقى في جسدهن مكان سليم إلا وعليه آثار أعقاب السجائر التي تم إطفاؤها عليهن، وعن ذلك الصدر، كم سال عليه لعاب من دنسه ولوثه وعن أخرى تعرضت لالتهاب في المسالك البولية لكثرة أعداد من قاموا باغتصابها عنوة، انزوت رونيا بعيداً عن تلك الأحاديث وذلك الهرج المأساوي لتغمض عينيها وتحاول استحضار الماضي بدقة لامتناهية.

ماضيها الجميل والعتيق العريق عراقة عفرين وزيتونها، لا تتذكر في الغالب سوى طفولتها وأجزاء المكان، البيوت الطينية، نباح الكلاب المقرون بصياح الديكة، والصباح الباكر، رائحة خبز الصاج، ويد أمها المنغمسة في الدقيق المخصص لصنع الخبز، وكذلك القدر المغلي الذي وضعت بداخله الثياب بغية غسلها حين لم تكن ثمة غسالات كثيرة وقتذاك، لتقاوم عفونة السجن المكتظ لابد وأن تجلب هواء القرية النقي إليه، حين تحلم وتتخيل،لم تنسى شفاه لزكين رغم محاولات المغتصبين الفاشلة لحصد لو قبلة واحدة على شفتيها بقيت تلك الشفاه بتولة رغم الاعتداءات المتكررة، أبلت الأسنان بلاء حسناً وهي تعض على اليد الباغية التي راحت تمسك نهديها ، لم تكف عن المقاومة قبل تعرضها للكمة أفقدتها الوعي، نعم تلك فرصة المغتصب الوحيدة لينال ما يريد عدا ذلك فإنها حاربت بيديها وأظافرها وأسنانها وبصاقها لتمنع الأيدي القذرة من العبث بهذا الجسد الذي يحضن روحاً لم تبخل على الحياة حباً وأملاً وطموحاً، عميقاً تحاول الهرب من جحيم هذا الواقع راحت تناجي ذلك الحبيب في صمت ولأيام منقطعة عن اللاتي خلدن بدورهن لشؤونهن.

في ضيافة الماضي

لا شيء بوسعه إعطاءي جرعة حياة سوى تذكرك، مع كثير من الدموع وجبال من أنين تحوفه الهزات الارتدادية علها تجرف تلك الحجارة الصماء الثقيلة وقد سدت في كهوفها كل المنافذ والثغرات التي ينبثق من خلالها الهواء والنور للداخل، وطن أنا وأنت شعبه الذي تبعثر كذرات الغبار أو كرماد جثة تركت للعراء وفي القفار لتنهشها العقبان وتحيل بقاياها مع السنين إلى رماد تبعثر واستحال إلى لاشيء في الرمال . وطن أنا وأنت شعبه الضال، لا يزال يحلم بالدولة الحرة والمستقلة أو بتحديد لمكانه في خارطة العالم المترامية، أسف ثقيل أنا وأنت ذلك الويل جاحظ العينين يفتح عينيه المنتفخة الميتة لاستقبال زحوف الديدان.

ساعات السجن الطويلة كل لحظة فيها دهر كامل، وليس لي خيار سوى استجرار الماضي بكل ما تتيح لي الذاكرة من صور وروائح وشخوص وضجيج، لابد من كسر جبروت القيد بإعادة الحياة التي عشتها على الرغم من النواقص والغصص والآلام، كأنثى حالمة تضج طفولة وعشقاً للطبيعة، ثمة وقت كثير ولا أعرف ماذا سأفعل فيه، لا أريد أن أجن قريباً، أو أفقد أعصابي وأقف أمام باب السجن لأصرخ وأشتم وأتحدى الحرس، ليأخذوني بعد ذلك إلى المنفردة بعد أن يوسعوني ضرباً وألماً وإهانات، ثم يرجعوني للسجن الجماعي متكسرة الأضلاع منكسرة النفس، أريد تذكر تلك اللحظات المعدودة بيننا ستصبح بلا شك دهراً، إذا حصرت ذهني في تذكر أدق التفاصيل عن لحظة صغيرة

جداً لا يكاد يتذكرها من هو خارج السجن ولا حتى في أحلامه،ما أكثر ما بصدري من حنين إليك، كنا أبداً نقول سنقِّبل بعضنا حتى الوجع، حتى تتورم شفاهنا وتتشنج وترتطم أسناننا ببعضها رغم مشاركة لساننا في الارتطام ببعضهما، لكننا لم نفعل ما كنا نريده، تمنَّعنا وكنا أكثر من راغبين، واستنفذنا طاقات التخييل لدينا، لا أدر كيف أطفأنا جذوة الرغبة تلك، لم يك ثمة من مكان نلجأ إليه، أو حديقة نكون فيها الوحيدين نتناول سندويشة قبلة وعصير احتضان ما بين موعد محاضرة وأخرى.

الآن وأنا سجينة هذا القبر، أحن لأحزان مراهقتي ولذلك الفقر والتشرد والبكاء لأن ذلك لا يقاس بما أعانيه الآن من جحيم، جسدي الهزيل كدجاجة الحي منتوفة الريش، وأعماقي المهجورة كجحر عقارب تم إبادتها من قبل صيادين ماهرين في استدراج العقارب لذلك الهلاك، وتلك القامة التي تغنيت بها في كتاباتك، باتت على هيئة صبار وسط صحراء قاحلة، لكني سأتحدى كل ما أعانيه الآن كرمى لاستحضار كل ثانية تنفست فيها الحب معك.

الغبار الداخل من أنفي نحو الحنجرة يجعلني أسيرة السعال المستمر، ذلك يقطع علي استغراقي في تأملك، أنت الكوة الوحيدة التي ينبثق منها النور، والمدفأة الوحيدة الموقدة التوق للحياة معك، ما بداخلي أرق وسهد وقلق، ما بخافقي صوتك حين تناديني من بين الزحام، وأسمعه رغم كثرة الأصوات الخارجة من جمهرات الطلاب أسفل الدرج الذي يتجه للأعلى نحو الطابق الأول المتضمن المدرجات والقاعات، وحده صوتك يحيد عن قطيع الأصوات التي تملأ بهو كلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة حلب.

صوتك الذي أعرفه ويعرفني وتطرب له خطواتي المتجهة شوقاً وهياماً إليك أيها الذاهب والغادي إلي، النهر الذي ينبع مني ويصب بي.
في هذا السجن السري الذي أقبع فيه، يقبع بداخلي سجن حبك الأبدي وبداخل ذلك الحب الأبدي قلبي الذي يسجن هو ذا الآخر نبضاته، حتى غدت كل نبضة سجناً انفرادياً يسجن سجنة مختلفة من سجناتك، أنت سجين نبضي الانفرادي وكل نبضة تحمل وجودك وأنت سجاني الأنيق، يحارب بي ويغزو العتمة غير آبه بتهديدات الحراس، هذا السجن الذي أنشأته جماعة تعرف بفيلق الشام، يوازي في السوء سجناً أقامته في ميدان إكبس وزواره معتقلون تم زجهم فيه اثر احتجاجهم على نهب العناصر لمحاصيلهم ووضع يدهم على ممتلكاتهم وأراضيهم
لم أنضم يوماً ما لحزب سياسي كيلا أقع في كمين خدمة الأشخاص تحت مسمى الوطن ولم أؤمن بإيديولوجية ولم أعبد قائداً وأهتف بحياته كالعبيد، إنما انضممت لوحدات حماية المرأة دفاعاً عن مدينتي بعد أن شعرت بدق ناقوس الخطر، هكذا يفعل الحيوان أيضاً إن شعر بتهديد له أو لقطيعه الذي ينتمي إليه، فغريزة البقاء وحفظ النوع الحيواني أو الإنساني هو ما يدفعنا إلى سلوك خيار الدفاع ضد وجود الخطر، ألا تتذكر، هذه كانت إحدى نقاشاتنا أيام كنا طالبين في قسم الفلسفة

وقد آمنت من حينها أن ثمة أشياء لا تتعلق بخانة انتماءنا لجهة سياسية وإنما تتعلق بالمقدسات التي نؤمن بها، ويفنِّد كلامي اقتحامهم للمنازل دون اعتبار لحرمة ساكنيها فيضعون أحذيتهم فوق أعناق أصحاب البيوت كبارهم وصغارهم، صارت تهمة الانتماء لحزب العمال الكوردستاني خير وسيلة ومطية لسحق كل من ينبس ببنت شفة،

الناس مغلوبة على أملها يا حبيبي، كأني أوقظك لتقوم وتنهي هذه المأساة، أين أنت، أما زلت حياً أم فاراً أم ميتاً، كأنك ذلك الملح الذي ذاب، أو كأنك عفرين التي كانت ذات يوم، أصبح لسان حالي كتلك المرأة السبية التي استغاثت قائلة: وامعتصماه لكن ما من صدى وما من مستجيب، لعمري أن عفرين أبهى وأجمل من تلك التي رثاها أبو البقاء الرندي، انها ذلك الألم العميق والسكين الذي ينز بالجرح ويحفر داخله ويجعلنا نموت ونطلب الموت ولا يأتي كي يهدأ الألم، حين أسمع أخبار قدوم الأغراب مع عائلاتهم لطردنا منها يموت بداخلي الأمل، عفرين جريحة، تتذلل لأبناءها الفارين والمقيمين فيها والبعيدين عنها في المنافي، تتوسل أن نزيل عن وجهها النقاب ونحرقه، إنها تهذي فتقول ليس هذا اللون لوني، ليس هذا الرداء الأسود لي، وليس أصحاب اللحى والألسنة العوجاء والوجوه السوداء من شعبي، عفرين تتمنى لو أن صاعقة تأتيها أو زلزالاً يجعل غضبها يخرج من أعماق طبقات الأرض لتخسف بالمستوطنين الأوغاد وتمسخهم إلى قردة وخنازير وهياكل عظمية تسير باتجاه الجحيم،عفرين تتمنى لو أن الشهداء الذين في القبور ينهضون، إن في كل شهيد يسوع جريح أدمته مسامير الصلبان يئن بداخلهم كافة أيام الأسبوع وليس في يوم السبت فحسب، شوارع عفرين مطلية بالدم أزقتها، أشجارها المعمرة كلها محتقنة تزأر غضباً وألماً.

لأنسى ما حدث في ٢٠١١،وتلك الشعارات الكاذبة التي قاموا برفعها قبلاً، ظن الضحايا أنهم سيتمتعون بالحرية المنشودة بهذه التظاهرات التي اتخذت من المساجد منطلقاً لها، لم يك يعلمون أنهم متطوعون صغار يتخذون من أجسادهم سجاداً أحمراً وطريقاً معبَّدة ومزفتة ليمش عليه لاحقاً قاتل يسمى أبو عمشة وسفاح يدعى سيف أبو بكر

ومرتزق يدعى فهيم عيسى ويتحول الذين عذبوا في سجون النظام لأكباش فداء للماشين على جماجمهم والساعين للسلطة والجنس ونهب الممتلكات وقتل المدنيين واغتصاب النساء والقاصرات، لأنسى ذلك الكابوس ولأركز على رصيدي من الفرح برفقتك، رغم أن الحياة لا تخلو من أي حدث قد يشعرنا بغصة، تماماً حين نستمر بتناول المجففات دون المرطبات، وحين نهم بأكل اللحوم دون الخضروات، تلك الحياة الآن خارج الطفولة، نحن الآن أرواح تتألم وأجساد تشقى مقابل بشر يتحركون حولنا ويمرون أمام عيوننا، فيضعون آثارهم، ندبات على قلوبنا كما نفعل نحن.

الزمن الثقيل، لا يمر بسهولة انه يشبه طابور التسجيل للامتحان ودفع الرسوم على شباك شعبة شؤون الطلاب أو دائرة الامتحان في حلب، مكتظ بالألم والفراغ القاتل، ينزف شيء مني، يجعلني أشعر بالتقزز من نفسي، شعري ثيابي وشحوبي، لا شيء يعادل شعوري، في هذه الحفرة أكاد اختنق، أكاد أتحول إلى كل كائن لا يشبه الإنسان، مسوخ غريبة تطاردني، تتلبسني، ترتدي هذياني، تحيك من هلاوسي ثياباً للعفاريت وقفازات للجن.

أحتسي بالخيال معك النبيذ الأحمر، أداعب جفنيك، أحرض قضيبك على الانتصاب، أخرجه من مكانه لا لأني الآن أشتهيه وإنما لأصيره سكيناً أدخله في مؤخرات عناصر كافة الفصائل، أستخدمه خنجراً، أغرسه في حلوق أمراء الحرب، أجعله قلماً أملأ به حائط السجن أبيات شعر وحكماً ساخرة، أكتب على الجدران أغنية الجنون العجيبة، أرفع قدمي الاثنتين للأعلى، لينسل من فخذي القطران الأسود، آملاً في أن ينساب ويمتد للجهات الأربع، لتنتشر رائحة الموت والحريق عبره وتحرق

المعتقلات والسجون في العالم قاطبة، أسرق من شفتيك مئات القبل، أروي من خلالها عطشي، أطفأ قهري، أشهق كالشلال قبل التساقط العنيف، أزفر كالطيور المتعبة عند التحليق، أستعد للثمل الطويل ساكباً على جرحي أملاح جبال هيمالايا.

أغرق بحبك هذه الليلة، ولا أحس سوى بوقع أنفاسك المتسارعة غير المبارحة صدري،في هذه المساحة الخرقاء والمحدودة يرقد في داخلي ضجر مجنون وهستيري، ألجمه بتخيلات تخفف عني هذه الأحمال، فهي تجعل ظهر الروح مقوسة محدودبة من ثقل الأعباء الراقدة فوقه،لا شيء سوى الغوص في شفتيك هذه اللحظة يساعدني على الظهور كأنثى على أرض رطبة باردة لا تساوم في حضرة الدفء الذي أتخيله أؤلف حواراً افتراضياً فيما بيننا:

- تعالي لا تكوني حمقاء، لا تؤجلي حباً لأجل شؤون حياتية بلهاء ولا تبخسي عظمة اللحظة الحميمة فقد لا تتكرر مرة أخرى، في حالة الحب حتى الله يحسد خلقه حين يعشقون.

أتذكر مقولتك الشهيرة هذه والتي ارتطمت بحائط جرحي كعجينة لاصقة!

كل كلمة بداخلي منك حرز يقيني من شبح الاستسلام،كل لحظة عبرت استقرت هنا في القلب، اكتسحت الذاكرة وفضت بكارة النسيان،ابتسامتك كالبرق تشق كبد الضباب، أعلنت النفير العام بداخلي، صارت تقلب كتاب الحب وتتمعن بصفحاته صفحة صفحة، دموعي المتساقطة صارت شعباً واحداً تتوسطه سكة قطار، قلبي الكردي مقسمٌ لأربع أجزاء، كل جزء منفي في جزيرة خاوية العروش، والمجهول منذ بدء التاريخ لكم حاول ابتلاعنا وزجنا في معاقل الغيب،حُرمنا من

الكثير، وانطفأنا في الزحام، يدانا افترقت بسرعة خاطفة، الآن أبحث عن مآلات ذلك الحب كيف ابتدأ، كنتَ عبر الدراجة النارية تجول في القرية، تسأل عني، لترشدك صديقتي إلي، وأحياناً كنت تلمحني من بعيد فتتبعني كمتقصي أثر ماهر، وأحياناً أراك في حفلة زفاف تنظر باهتمام إلي بينما أشارك في الدبكة، تتأملني من رأسي لأخمص قدمي، ثم تدخل الدبكة لتمسك يدي وتضع بداخل أصابعي شريط كاسيت لعيد الحب 2005،عندها تبدأ نظرات الفضوليين بالتساقط علينا فتخرج من الدبكة بعد أن نغدو علكة بفم الذي ذو قيمة و لا قيمة، أيام وردية قياساً بالأيام الشوكية التي توخز كل موضع فينا، لا يدرك قيمتها سوى من فقدتها وافتقدها على طول الوقت المستقطع من أعمارنا القصيرة، وما حياتنا إلا كحياة الزهور قصيرة مهما امتدت،أغوص في نومي في شفتيك لأنسى أني امرأة جبلت من الألم وعاشت لتتألم،أغوص فيهما فيهما اللذة التي لا تنتهي والنار التي تحرق ولا تنطفي.

وقد تمتد نيرانها لتنير هذا السجن بل تحرقه بما فيه، فالضعاف الهزّل أمثالنا وقود لمعارك الميادين والتاريخ لذلك يشهد حتى الثمالة، أجتر الماضي بما فيه لأرفعه مسدساً بوجه الحاضر، عل الألم يقر برفعة الذكرى وقوة الذاكرة في بلوغها نكران الوجع حداً يخرج كريات الأعين من محاجرها لتتدحرج كالخرزات الملونة على أرض العجائب،أعانق فيك ظلي الذي يطأ نور الشمعة، وكذلك التراب المريح عند تساقط المطر عليه بعد جفاف، ألتمس فيك الرائحة الأشبه بالولادة بعد سنين قنوط، أسترد بك بسمتي التي أضحت محلاً ويباساً، وشمتني دمعاً على وجنة المصابيح وألماً على جبهة السياط وصرخة على أريكة العار.

وصمتني بالعشق في زمن الاغتصاب وجئتني ناياً ينعي أضرحة الحب من

غابر اللوعات حتى الأنين الأخير،بكل هذا التوق والحنين إليك أجابه ثقل الوقت في هذا السجن، ملء زفيري أشهق، أستحضر شجرة الكرز التي تفتَّقت أغصانها في آذار وأناجي شجرتي مشمش أزهرتا في فناء بيتنا الريفي الواقف كالحياة أمام صفين من أشجار الزيتون،أناجيك كما يناجي ناسك مصلوب على أعمدة الألم، وأقول أين أنت يا حبيبي، أيها الإله البشري الذي يشبه ضعفه ضعفي لست أرجو في هذه الهنيهة ممتهن المعجزات والخوارق، إنما أناديك أنت

لا أؤمن إلا بالحب، خلاصاً من كل ما يشوش ذهن المرء ويجعله يقتل لأجل ما يعتقد أو يقطع علاقته بالآخر الذي لا يؤمن بما يؤمن، عشت متصالحة مع نفسي متسلحة بجمال عفرين وطبيعتها والتي تطبعت بها ككوردستانية ورثت من الطبيعة الهدوء والسحر والتأمل للبعيد، فمنها تعلمت الوقار والصمت ومن الجبال الكبرياء والوفاء .

لا يبتر أحد صلته بالآخر بسبب اختلاف في عقيدة دينية أو حزبية إلا غبي وما أكثرهم الذين يتنازعون أيديولوجياً ويقتتلون باسمها وفق ما بيَّته أصحاب المال وسوقوه ليبقوا هم بدوام تنازعنا.

أتذكر كل شيء، بسمتك عند كل استرسال مني في الحديث، نعتي بالفيلسوفة ونعتي لك بالفتى الفوضوي الحالم، شرهك في تناول سندويشتي بطاطا ملفوفة بالخبز الرهيف وممزوجة بالمايونيز والكاتشاب، وغرامك بسندويشة الفلافل من فلافيلو الكائن في المدينة الجامعية والقريبة من مطعم المدينة المسوَّر بالبلور من جوانبه الأربعة، كنا نتناولها عند الظهر وخاصة فترة تساقط المطر، حيث يقل الطلاب الذين في الخارج قبل المغيب، عندها كنت تغطيني بمعطفك وتنسل كأفعى صوب رقبتي وعقد صدري لتستنشقه بعمق وزفرة ذي أنين.

كأن حياتي مقسمة على شكل صفيحة البيض كل بيضة على حدة ضمن صفيحة البيض الكرتونية، أفكر بعلاقتنا لم تكن صداقة ولا حباً، كانت تتوسط البينين، ولا تميل بيسر لإحدى الكفتين، ولم نكن ليني العريكة لنبدو للآخرين واضحين لنؤكد لهم صحة شكوكهم من زيفها،الجميل في العلاقة مسيرها ضمن خط بياني مبهم، فلا أكثر من رتابة سوى تلك الحيوات وكذلك النفوس الجلية والواضحة،أتذكر رسومات البرق في السماء الملبدة بالسحب السوداء الأشبه بالبناطيل الرمادية الفضفاضة على الأسلاك التي يتم تعليق الغسيل عليها فوق سطح المنزل الريفي، يبدأ جدي بإطلاق الإيعازات لأخوتي أن يدخلوا الأغنام للحظيرة والدجاج وصيصانها إلى القن، على تلك الأرض الوعرة والتي يبان عليها الحجر المنتصب، وكذلك الحفر التي سرعان ما تمتلئ إذا تساقط المطر المحمل بالبرد عليها

- أغلقوا باب التبن جيداً،حيث بداخل تلك الغرفة الضيقة ثلاث أطنان من التبن كان والدي يهم ببيعها ان زادت فوق حاجته.

المطر يريحني جداً، تخيله ليس عصياً أبداً، لكنه يحث روحي على الألم الشديد فالسيئ في السجن أن فيه سقفاً يغلق عني باب السماء، ليس ثمة ما هو أجمل من العراء والأرض المكشوفة الواسعة التي تتراقص عليه مجموعة من الأحصنة مع مهرها، رائحة الأرض تقتحم علي حزني، تملأ أنفاسي عشباً أخضراً مزيناً بقطرات الندى حيث أحن لحقلنا الصغير الآن ولزهرات عباد الشمس التي كنت أقيس طولي من خلال قامتها وكذلك أسلوب مشينا السريع بين حقول القطن،قلبي بات كخزان منزلنا الكبير يحوي ماء الصور والأحاسيس ويتعارك مع عفونة المكان عتمته ورطوبته الخانقة، أستطيع من خلال ذلك الإبحار مقاومة جيش

من الموت البطيء، هكذا يخيل إلي أني سأخرج من السجن إما للخارج حيث السجن الكبير أو للقبر حيث بلاد الموت التي يجهلها الأحياء والتي صدع بها رؤوسنا أبناء الميتافيزيقيا، اقترب أكثر وانسج طيفك بالقرب من ظلي الذي يدخن الأحلام في الليل على هيئة عجوز من الجن لا تكف عن تحريك ظهرها والتدخين بشراهة وهي تحني ظهرها للخلف ثم تعاود الانحناء للأمام على نحو اعتيادي ومتكرر أشبه بكرسي هزاز ينحني للخلف والأمام، أتأمل ذلك الدخان المنبعث من فمها الكريه، إنه واقعي أنا، لا نهار ينسل من ليل ولا ليل ينفصل عن النهار، حيث السجن ليل دائم تتخلله سحنة مصباح ذو فتيلة وما أن ينفذ زيته حتى يخيم الظلام وما من سجانين يأتون ليستبدلوا السراج بآخر، منذ سنوات لم أرَ وجهي، أظنني نسيته ولا مرآة لأنظر إليها، مرحي افتقدته، لون عيني ضاعتا خارج هذه الأسوار، تلتمسان نظرات الإشفاق حيناً وأخرى فتحات الصنابير التي كانت أناملي تحتها ترتعش على وقع قطرات الماء البارد، تلك القطرات العالقة بين الأصابع، رششتها على بقية الأطفال ممن كنت أتعارك معهم على أي شيء تافه،أحلم الآن كما لو أني هايدي التي تبكي أمها، أو أني ماركو الذي يبحث عن أمه في فيلم للرسوم المتحركة اسمه وداعا ماركو، فلتسح بي يا خيال نحو الرحاب الواسعة لا منجد سواك الآن أو رفيق، أنا المعلَّقة في المتاهة العميقة، مغلفة كالهدية الصغيرة داخل علبة أكبر وتلك العلبة معتقلة داخل علبة سجينة هي الأخرى ببطن علبة أوسع، وهكذا أنا بقلب بصلة عملاقة ومحاطة بعدة قشور، حيث لا صدى لصوتي ولا لصراخي، سوى أني محترفة في تأجيل موتي معطية للمفاجأة بتحديد موعد اختفاءي من على الأرض لبطنها أو تحت مياهها، أعي الآن صوتك وهو يبوح لي عن

فشلك في مضاجعة عاهرةً رجعت من الماخور تجر ثوب العودة خائباً.
- لما ذهبت!
- كان تحدياً بيني و أحدهم، كنت وقتها مراهقاً، أعمل تحت يد خياط الحارة المعروف باسم أبو حيان، ابنه ارتاد الماخور سراً، بعد أن نجح في سرقة بعض المال من خزنة أبيه،اصطحبني معه، في البداية خجلت، استفزني، قال إنك لست رجلاً، انجررت لمكيدته وذهبت،حين دخلت لغرفة كانت هنالك عاهرة بدينة وقصيرة القامة تماماً كعلبة الكولا ذات الحجم العائلي مسترخية على سرير أبيض مزدوج.
- ثم ماذا بعد اختصر تباً لك كم أنت ثرثار.
- دعيني أكمل.
- تفضل مراهق أفندي.
- لم أعد مراهقاً القصة مضت عليها ثمان سنوات
المهم إني تسمرت في مكاني مذهولاً، ناظراً لنهديها المتعبين النازلين للأسفل كيقطينتين،راحت تلوح لي بإصبعها أن اقترب لا تخف، ويدها الأخرى تحت بطنها لم أذهب رجعت، كأني طرقت باباً بالخطأ.
- لماذا !؟
لقد سبقني إليها ابن حيان، وقبل ابن حيان ضاجعها المئات، لقد أثار شكلها اشمئزازي وقرفي، أكنت سأقبل شفاهاً قبّلت عدة شفاه أخرى بل ولعقت عدداً لا يكاد يحصى من القضبان متعددة الأشكال والأحجام؟!
أكنت سأداعب صدراً جالت عليه جحافل لعاب تلك الأفواه ناهيك عن مهبل بات كالمرحاض الذي تبرز وتبول فيه كل عابر سرير.
هذه التخيلات جعلتني أكره نفسي وضعفي فعدت أدراجي، راح أصدقائي

يضحكون علي ويعيرونني عن عجزي «وفق اعتقادهم» عن مضاجعتها مغترين بفحولتهم المزيفة والتي حوّلتهم على نحو أو آخر إلى ضباع همها نبش القبور الجديدة وأكل الفطائس.

هذا الموقف ذكرني بتلك الميليشيات المدعومة تركياً والتي بات همها على غرار أخواتها من الجماعات التكفيرية اختطاف النساء وسبيهن وإرغام الأهالي على تزويج بناتهم لهم عنوة إرضاء لتلك النزوات الحقيرة اشتقت لك بعدد الأساور والخطايا بوجودك أحيا وبدونك أنا مجرد آلة أوقن وجودي بك، أنت صلة الجسد بالتراب ووطني البعيد وهويتي المفقودة، أحب الهواء الذي يدخل ويخرج من رئتك، صوتك جرس يوقظ قلبي من سباته،حلمت بشفتيك وكامل عريك والفراشات فوقنا طائرات كشف تستطلع خطايا جسدينا،جسدك صنو الروح، نحن الفانون الممارسون لذة الفناء قبل حلوله الأخير، ضمني فضمك لي معناه السكنى في عيني الحياة دمعاً نقياً يستمد بريقه من ندى الجوري وعطر الزيزفون،حواري معك لن ينتهي مادام في داخلي نفَس وحيد يسترق النظر للحياة قبل أن يودعها،ما حياتنا سوى المشهد الأخير من مسلسل الفقد، ولقطة مخيفة ينتصر فيها الحزن على الفرح على وقع صرخات الدم وفحيح البكاء،السجن يسلبني حريتي، هو عنوان عريض لمسرحيتي، حولي سلسلة لا منتهية من عواء الذئاب لا يخف بل يتصاعد وفق مقياس الرعب الذي كتم الأنفاس، ولم يعد للذاكرة من ذخيرة تكفي لمقاومة تلك الأيدي التي قبضت بقوة على كلتا اليدين،وأخرى ساقان تدربتا باحتراف على تثبيت قدمي وركبتي وشل حركتهما لينبثق الدم ويخرج إزاء عنف الإيلاج وسطوته، بت شبه مغمية بيد أن روحي تيقظت تماماً من أن شيئاً خارج المنطق الإنساني والحيواني يحدث الآن

ليلغ كياني حينها وليبدأ عصر العبودية فارضاً نفسه وبقوة الحذاء العسكري،واقعا نفسياً ديموغرافياً عنوانه الذل الذي استطال على هيئة أفاع تناسلت من بيوض ثعابين زرقاء مثلثة الرؤوس،لقد أحالوا حبيبتك رغماً عن أنفها إلى بَغْية فبات جسدها مستنقعاً تطفو عليه فضلاتهم، فعلى مسرح السياسة كلنا سبايا وهم المسترقون بحكم قانون الغاب الذي يعطي الحق للأقوياء أن يمارسوا الإجرام ويزاولوا عملهم كقضاة وكذلك قانونيين يكتبون الدستور ويسهرون على تطبيقه وليس على الضعاف وفق قانون الطبيعة الأولي سوى أن يهيئوا أنفسهم على الدوام كطعام ممتاز لمعدتهم الشرهة، كل ما جرى ويجري يؤكد لي صحة قناعاتي القديمة والتي ترسخت مجدداً بذهني لاسيما وأني ضحية تلك الحقائق، تلك العدالة في أفلام الأطفال هيهات أن يكون لها أثر في واقعنا، تلك البلاد أخذت بالقوة ويستلزم وجود القوة ذاتها على الأقل لاستردادها، أجبرني هذا القتام على رؤية الحياة بحقيقتها السوداء والقبيحة، فالجمال والرفاه يحيدان عن مجاورته، فليس على من لم يعش الذي يجري سوى التعلم والبحث ودخول هذا السرداب المفزع والمتشعب.

ليس ما دوّنه الكتّاب والفلاسفة والذين يدسون رؤوسهم الجوفاء في الوسائد القطنية المريحة سوى فتات ضئيل أو تلميح عابر عن حجم القبح الذي يعتري زوايا الحياة المعتمة فالكثير من خباياها لم يظهر بعد، هنا في هذه الهنيهات شديدة الألم أفكر بشأني، عن قسوة الألم ومقدار الإهانة، وبلوغه حداً أطلب فيه التلاشي الفوري

حيث الانتقام يعجز عن تخفيف الوجع، هنا بين قطيع الذئاب الضارية لا خيار سوى أن نتجرد من آدميتنا ومن قيمنا، ونترك الباب مفتوحاً

على مصراعيه لخروج ذلك الغول الذي ينمو بروية في أعماقنا، ما يجري لا منطق له، العنف والسحل وتلك اللكمات التي تجعل المسافة بيننا والجنون قاب قوسين أو أدنى، جميع من في السجن خامدوا الذهن عاجزين عن المقاومة لقد فقدوا الرغبة في الشكوى وكذلك البكاء، سيأخذونني مثل كل مرة إلى زنزانة منفردة كما يفعلون مع باقي النسوة والفتيات القاصرات، في كل سجن ثمة بضع عناصر، يأخذون بضعة فتيات ثم يقومون بتعريتهنً عنوة و كاملاً، فقد استحبوا ممارسة الجنس بشكل جماعي، حفلة جنس جماعية على وقع موسيقى الصرخات وتلك الرعشات الصادرة عنهم وهي خليط من نباح وعواء أما ذلك المفتاح الداخل في القفل فهو كالجرس، يشير إلى بدء حالة الموت الذي يرافقه الغثيان في كل مرة، على وقع كؤوس الخمر.

لقد اغتصب عنصر ملتح في الخمسين من عمره فتاة صغيرة تكاد تتجاوز الخامسة عشر أمام أمها الأربعينية، وحين راحت أمها محاولة أن تفك ابنتها من قيده، أمر العناصر الأخرى بتقييد يديها ورجليها بهيئة دائرية على السرير وبطريقة تكون فيها يداها ورجلاها متباعدتين فقام باغتصاب أمها بعد أن اغتصب الفتاة والمدة الزمنية فيما بين الاغتصابين خمس دقائق قضاها العنصر الملتحي بشتم وضرب الاثنتين كونهن لم يهدأن واستمررن بالمقاومة وإفساد متعته.

لقد اعتاد العناصر ذلك الاغتصاب الجماعي وتناوبوا على فعلها عدة مرات في اليوم وقد أحضروا أدوية منع حمل وأوقية ذكرية كيلا تتكرر حوادث تتعلق بحمل إحداهن منهم،عندما تيقن أبو العباس أنه عاجز جنسياً ورغم شهوته التي لم يستطع لجمها، خرج من السجن تاركاً الفتاة تتلوى ألماً، فقد قام ذلك العنصر بشي ثدييها بواسطة معدن ساخن

للغاية جلبه وقام بحرق ثديها به، بعد أن ضحكت لتعيره بعجزه فراحت تشتمه فهمَّ كالمجنون بحرق صدرها وقص شعرها وكذلك سكب سطل من الماء الملوث المليء بالقذارة على رأسها ليغمى عليها من شدة الألم.

أعرف كم من الصعوبة بمكان إقناع الكردي المؤدلج أن عدو جد جدوده لا يفرق بين انتماءه لأي قطب سياسي سواء أكان مرتبطاً بالبارزاني أم بأوجلان أم طرف ثالث ناشىء كجسم وليد أم كجسم قديم غير مؤثر، انه يتوجس فقط لوجود عنصر يتحدث بغير التركية، فهو ملعون الوالدين وينبغي استئصاله أو نفيه أو إخصاؤه، العقل الكردي بطبيعته استساغ العبودية جينياً ولا تعود تبعيته لاصطفاف الحديث لأحد قطبي الزعامة الكرديين وإنما تبعيته تعود للماضي، أيام كان الأغوات الكورد أذيالاً للباشوات الترك، والولاة من الكورد توابع غير موثوقين بهم من قبل السلاطين، ولأن العقل الكردي رهين الإنصات لهاتف الآمر فقد اعتاد ذهنه على التلقي والإذعان وإحسانه نطق سيدي ومولاي وشيخي انتهاء بنطقه الجميل لقائدي وملهمي، لقد تشرب الكردي الحالي من ذات النبعة لاختلاط المجرى الديني بالحزبي الذي يلزمانه بالتبعية والطاعة العمياء تاركاً التدبر والحكمة لزمرة عليا تتحكم به وبمصيره على الدوام.

في هذا السجن القبر أناجيك يا عزيزي المتبقي، وللسجن طرقه في استجواب أفكارنا المثقلة بالآلام الجسدية والنفسية، هنا تكمن حقيقة الحياة بشقيها المفزع المرعب والقبيح، هنا يمكن أن نبصر كيف يتحول السجان لأسوأ من وحش وتتحول العناصر المرتزقة لأكثر من كونها كتل متحركة ناطقة باسم القذارة والسفالة والجبن، هنا في هذا السجن يحاولون إخراج كل إنسان مسالم منا واستبداله بحيوان هائج يضرب

رأسه في الجدران والزجاج وألواح المسامير الحادة بجنون وبتتابع حتى الإغماء والخدر، الحياة بأسرها عبارة عن سجون كبيرة متنوعة الأحجام والأشكال، عدا حينما يتعلق الأمر بك، تغدو أسوأ السجون والمعتقلات جنائن ورود بنظري، أتجاهل الألم أيما تجاهل، وأنهر الأحزان، أتبرأ من كل شكوى لآخر العمر، أتوقع أني نلت الكثير حينما وقعت بحبك، وأخذت فوق حصتي من هذه الحياة الفارغة دون وجودك بجانبي، لك الدموع الجارية على خدي ولك تلك التي تمنعت عن الجريان، بل تلك التي بقيت معلقة أسيرة عيني اللتين تترقبانك في هذه العتمة وحولي إما سجينة تغتصب عنوة، أو صراخ أطفال يعذبون أمام عيني أبيهم أو والدتهم المعتقلة لقاء طلب اعترافات ليست موجودة، كل ما حولي قهر، إلا نورك وهو يطل بكامل وميضه الحاد محاولاً إخراجي من حفرة المجاري تلك،لم أعد أشعر برائحتها الكريهة، فالجرذان لا تعافني، تحاول الوصول إلي وتذوق لحمي المتقرح وأنا أصدر بين كل حين وحين عويلاً ونواحاً من حنجرتي التي تكاد تبح، تكاد حبالها الصوتية تنقطع، ملعون ذلك الموت الذي لا يحاول إراحتي وإنما إطالة أمد معاناتي، أغلق عيني، أبصر والدي يعلمني القيادة، يحيط بي بعينيه متجاهلة عصبيته مهملة توتري وارتباكي من الطريق، أغمض عيني بشدة كي لا تفتحا على واقعي شديد السواد، في غمرة تلك الإغماضة، أشعر أني خارج هذا الزمان والمكان، أقود السيارة بثقة وانتباه، كأن قوة خفية تقود عني وتنتبه للمنعطفات القاسية والحفر المملوءة بمياه المطر على الطريق وقطع من الزفت الناجم عن تصدعات الأرض غير المعبدة جيداً، أقود على رصيف منخفض يتجه إلى تلة عالية وأزيد السرعة كي لا ترجع السيارة إلى الخلف مادة بصري إلى البعيد لأبصر الدرب وما

سيأتي من جهات وانحدارات، محافظة على توازني وهدوءي، متمرنة على التنفس العميق، الأوتستراد السريع كهذه الحياة تمر فيها أعمارنا كتلك السيارات والوسائط بسرعة ١٣٠ كيلو متراً في الساعة أو يزيد، لاشيء بإمكانه أن يضمن أن اجتيازاً لامتحان معناه نهاية الامتحانات، تلك الحواجز باقية متشعبة في الدواخل والمكامن النفسية ولها نظائر في الجغرافيا ووقائع تمتلئ بها صفحات التاريخ، أشعر بأبي يحاول إخراجي من جب تتربع على زواياه الأفاعي الصغيرة، تلك المخرجة ألسنتها لالتقاط الحشرات، لا شيء بإمكانه جعلي أنسى الألم طويلاً، لم يعد الحب قادراً على إسعاف أرواحنا المتهالكة كتلك المعدة الفارغة المناجية للطعام، تستبسل خيالاتي في محاولاتها في جعلي أبدو صامدة، متناسية بيأس أن المحكمة حكمت علي بالسجن الأبدي، هو حكم رحيم بالمقارنة مع القتل والتمثيل بالجثة تحوزه من تدافع عن أرضها، أحس الموت هنا يميل مع الأقوى وينحاز لقراراته، لقد تم أخذي إلى المنفردة كقرار نهائي من مدير السجن كوني لا أنصاع ولا أتردد في البصاق بوجه كل من يحاول إرغامي على قبول الاعتداء علي، يريدون أن أقابل الاغتصاب المتكرر بوجه باسم، غير آبهين لصورة ذلك الجسد المليء بآثار الحرق والجلد بالأسلاك، ذلك المهبل الذي حاولوا إدخال أدوات حادة بقوة إليه تسببت في تشويهه، راق لعنصرين أن يضاجعانني معاً، بعد ربطي بحبل مشدود على سلك معدني مثبت بإحكام في السقف، وذلك بإحاطتهما لي من الخلف والأمام، فراح الذي في الخلف يلج مؤخرتي والآخر مهبلي والوجع يتصاعد عند كل إيلاج متزامن، لدرجة أني لم أعد أستطيع الصراخ، شعرت بدوخة جعل السقف يدور من حولي، لم أعد أرى جيداً رغم عيني المفتوحتين كأني أصبت بعمى مؤقت

حينها، بقيا العنصران يغتصبانني لأسبوع كلما سنحت لهما الفرصة ضمن فترة مناوبتهما في السجن، هنا في هذه المملكة اللامرئية انبعث الوحش البدائي المرتدي ثوب المعارضة الإخوانية لتمارس جوعها في ممارسة البطش كي تكون أهلاً لقيادة القطيع البشري المغلوب على أمره لمقاصل الخنوع والخوف.

يحنطني حزني ويأبى الموت أخذي لواحته، لقد فقدت كل أمل برؤية والدي مجدداً، لا أدر فيما أن كان على قيد الحياة بسبب الزلزال الأخير، أم أنه يحاول الوصول إلي مراراً دون أن يسمحوا له بلقائي لو لبرهة قصيرة، ما أصعب الترنح والانتقال بين الاحتمالات، لا أعلم عنك أيها الحبيب ولا عنك أيها الأب النجيب، ولا من قشة أتمسك بها ولا خيط واهن، يعافني ذلك الوغد المسمى بالموت، أي كون هذا نحن معلقون فيه يتفرج علينا إله بمأساتنا بصير وعلى إنقاذنا لقدير إلا أنه في فلك ألوهيته وحيد أسير.

لطالما حاول البشر المبدعون التكهن في صفات الإله الموحد فراحوا يجتهدون بمعرفته و هيئته، فراح النحاتون يحاولون الاهتداء إليه فأطلقوا على منحوتاتهم بالأوثان، وراح آخرون مهتدين بمكان وجوده في السماء وليس تحت الأرض حيث قالوا أن الشيطان تحت والله في الأعلى، جعلوا من الشيطان قريناً لذلك الإله في كمونه بداخل الإنسان واختلفوا وحاربوا وقتلوا بعضهم بعضاً، اهتدوا لله ونسيوا الرحمة والإحسان وقادهم احتكارهم لفهمه والإيمان به إلى القتل، حيث لم يردع شيء ذلك العنف لا دين لا رؤية أو فلسفة باعدت بين المرء واستعداده للقتل والطمع، مجموعة من الحرس تهمس فيما بينها ودوي ضحكة مفاجأة علت من كبيرهم الذي سمع من زملائه:

- أتحرق لانتزاع كبد تلك الخنزيرة أن لم تدفأ فراشي هذه الليلة.

قهقه آخر:

- إنها تسمعك.

توجه إلي وهو يجر ابتسامته الشيطانية قائلاً:

- ألا تخجلين لاغتصابنا المتكرر لك.

- شرفي تلك الأرض التي انتزعتموها من أهلها ودنستم حرثها وزيتونها وحجارتها التي تشّرف أوزان شرفكم وشرف العاهرات اللاتي نفضنكم يا من تنكحون أمهاتكم عند آل طوران ككلاب وأذيال ترتزق عظماً ونفايات.

صفعني بيده الكبيرة قائلاً:

-اخرسي أيتها الدنس يا روث البقر.

أجبتهم بفم مدماة:

- أنتم أقذر من الروث والغائط يا حثالة البشر.

ثم بصقت عليه مخرجة ذلك اللعاب المغمس بالدم وقذفته حتى برز فوق عينيه الحمراء والتي يبان فيهما حول خفيف،هناك في عالم القيود والعنف الهستيري، تعتبر الشتائم والنعوت القذرة جزء من حضارة التعذيب بل لغة رسمية بين السجان والسجين، إذ لطالما تعتبر الشتائم آلية نفسية هجومية أو دفاعية تتبعها كل أطراف الصراع، فعلى أي طرف ألا يستسلم ويدافع عن جوهر ما دفع دفعاً لاعتناقه وإيلام المقهور لانتزاعه وممارسة الكراهية تجاهه بمعزل عن موقعه من معادلة التنازع التاريخي والصراع الذي يمثل جوهر السعي نحو السلطة بقهر الذين يكمنون لها كعوائق تحول بين بلوغها ودوام رسوخها وعلى الطرف الآخر سجين يقاوم بما أوتي من شهيق وزفير وصراخ

طلباً لمعجزة تتصل بالبقاء أو الخروج من الجحيم وأمام هذه الأحمال الثقيلة والمتراكمة من الاستعباد والعبودية يقف ماضيي معك كهرم ذهبي وسط الرمال الشاسعة، تحاكي الشمس وأشعتها البنفسجية وتخلي المدى الفسيح من معتوهي العالم ممن تم سوقهم إلى الموت تحت ظل شعارات واهنة وعقائد دموية كاذبة من نسج هؤلاء العناكب ممن يفترشون الجلود الآدمية ويسبحون في بحر دماءهم ويشربونها كي يكسبوا السطوة والجبروت ويضمنوا بقاءهم ببقاء الأغبياء،أحاول ممارسة التنفس العميق داخل هذا المكان العفن فتأتيني نوبة سعال متكررة تجعل من تنفسي يضيق كأن حبل مشنقة يحيط حنجرتي وبهم بكسر رقبتي، لا يقرب الموت من طالبه بإلحاح وإنما يتفرج عليه بنزق، ساخراً من وجوده وكذلك طلبه للحياة خارج المعاناة، تحدثني، يأخذ طيفك وضعية الاستعداد لحملي ووضعي على سرير أبيض مصنوع من الغيوم البيضاء، أحلق بينها كطائرة نفاثة وعيني للأسفل تتأمل البيوت والشوارع والاوتسترادات وكذلك الجبال، يبدو العالم من فوق عبارة عن خريطة لا أكثر، بل لوحة جميلة ومنتظمة، ألجأ إليك لعينيك أشكو إليهما وجعي الآخذ شكل الصداع الشديد، قريباً سأموت، أراك بجلاء هذه المرة، تشرب معي فنجان قهوة ساخنة وتلعب بجوالك تتبادل عبر البلوتوث الرسائل والصور مع الذين فتحوا البلوتوث داخل مقصف الآداب بجامعة حلب، أتأمل عينيك المشغولتين وكذلك الدفء الذي يسري في المكان، بعد تلك القهوة نهم للذهاب إلى مكتبة الفرقان لشراء المحاضرات، تعطيهم ألف ليرة، ثم يفحصونها، يجدون أنها مزورة، ثم يتكرم عليك صاحب المكتبة بأن الحظ حالفك وأن ما من شرطة لكنت قد واجهت مساءلة شديدة وأسئلة لا تنتهي مثل:

من أين حصلت على هذه الألف ليرة المزورة، لم تك تملك سوى هذه الألف، رحت لمكتبة كلية الآداب ذاتها، كان ثمة جمع غفير من الطلاب يهمون بشراء محاضراتهم، وسط الزحمة والاكتظاظ تمكنت من أخذ المحاضرات والتقط صاحب المكتبة تلك الألف ولم يك لديه أي وقت ليعاينها إطلاقاً،ثم هممنا معاً للخروج من الكلية عبر المخرج، هطل المطر فجأة بينما كنا ننتظر باص الدائري الشمالي الأخضر المستورد من الصين، كبديل عن ذلك السرفيس الضيق الذي أخرج عن الخدمة وقتذاك، لا تسعفني ولا تواسيني سوى تلك اللحظات، ولا تشفع لي سوى تفاصيل المكان، وكذلك تلك القبلة السريعة التي طبعتها على طرف شفتيك بعد أن تناولت قلم الشفاه ولونت شفتي بلون زهري، جاءت القبلة على خدك كختم بريدي يعبر عن عشقي الأبدي لك.

اللحظات وقتها على قصرها إلا أنها كانت تبقى بعد ذلك كأثر لا ينمحي بسهولة، في انتظار الباص والافتراق يمكن للعاشق والعاشقة حينها تذكر كل رغبة في قبلة أو لمسة يد أو احتضان مهما كان الطقس وعدد الواقفين لا يهم، فالإنسان يعيش لمرة واحدة ولا ضمانة أنك ستظل سعيداً أو تتحول حياتك بين ليلة وضحاها إلى سجن أو ركام، بلحظة ستترك كل ذلك خلفك لتعيش إنساناً آخر بسحنة مختلفة ومكان جديد وبشر آخرين يضحكون يأكلون ويشربون بجوارك أو معك، كل ما كان من بعدك، تعبير عن موت قلب سريري وانطفاء رغبة في محاولة إيجاد حبيب آخر يكمل ما بدأته أنت وما لم تكمله، الحبيب الجديد يقول لي لألف مرة أحبك بالكاد أرد عليه بهمسة خجولة

- وأنا

- أنت ماذا؟

- لم أنم الليلة كلها، نتحدث بعد أن أستيقظ، تصبح على خير أفشل في استبدالك، لأني على يقين من أني فقدت نفسي معك أو أن جزءاً كبيراً مني بقي معك أنت وكذلك بالمقابل أنا، رغم أننا اختلفنا تصادمنا وافترقنا

أنت اخترت حلمك في الهجرة منذ البداية، وأنا بقيت أسيرة التربة التي نَموْت فيها مع الأشجار والأزهار قرب البيوت الطينية والأبواب الخشبية ومرابع الدجاج والديك والبط على اختلاف ألوانه،ظللت تذهب إلى بيروت كل صيف، ورحت تسرد لي بظرف ملحوظ ما جرى لك وأنت برفقة أحد أبناء عم والدك حين توقف بكم الباص السياحي أو ما يعرف بالبولمان عند الحدود السورية اللبنانية، لم تجدوا تواليتاً تقضون حاجتكم فيه، تلك المثانات ممتلئة بولاً فما الحل؟!، رحتم ببساطة تحاولون التواري عن الأنظار فلم تجدوا سوى حائط أحد المباني المعتمدة لتسجيل القادمين إلى لبنان عبر البوابة السورية، ففتحتم بناطيلكم وتبولتم واقفين على الحائط، فشاهدتكم مجموعة من عناصر شرطة الحدود السورية فقادتكم للمفرزة؛ صاح بوجهكم العقيد:

- أيها الأوباش، لقد فضحتمونا ، لم تجدوا إلا حائط ذاك المبنى تتبولون عليه، تبولت على وجوهكم أجمعين، ماذا أفعل بكم!

- ازرعها في وجوهنا هذه المرة يا سيدي لن نعيدها.

- اغربوا عن وجهي هيا.

أشفقت عليك من قلبي حين عدت من بيروت برفقة عمك الذي سرق نفسه منك فجأة وراح يشتري سندويشة شاورما ليأكلها بعيداً عنك دون

أن يخبرك فيما لو كنت جائعاً أو أن هذه استراحة وبإمكانك الخروج من البولمان، والمشي قليلاً أو قضاء حاجة وتناول شيء، عشت حياة صعبة بين بشر أخبرتني كثيراً عن طرائفهم من كونهم حين يدخلون قلما يسلمون وحين يودعون لا يقولون أنهم ذاهبين، وحين يخطؤون فكبريائهم يمنعهم من الاعتذار، كأنهم قبيلة اسكيمو تعيش على أطراف المحيط المتجمد الذي يفصل كوكب الأرض عن كوكب آخر لطالما ظل التفكير بالآخر بهمومه ومعاناته هاجساً مثالياً يشغلني وكأني موكلة رسميا بحمل أعباء الناس التي يتم إهمالها وإبخاس وجودها في الحياة أو للقدر في هذا حكمة وهي جريي لمناخات الحياة المهملة وأجواءها الاستثنائية التي تساعدني على فهم الخفايا والدخول إلى المتاعب والأهوال بعين مرتابة من كل شيء سوى ما يتعلق بالثمين الآخذ معنى القيمة من العيش والجري وراء الاكتشاف وتحصيل لذائذه رغم المخاطر.

الزمن الصنديد يزداد وزنه ويعلو كرشه فيبدو الوقت سلحفاة أصيبت بشلل تام تراوح في مكانها كعقرب ساعة حائط متوقفة عند الثانية عشر تماماً دون دقيقة قبل أو بعد، وحدها الذكريات تسير كبكرة لشريط كاسيت في مسجلة جدي يابانية الصنع وجل ما أخشاه أن يتوقف ذلك الشريط وتنقطع تلك البكرة أو تتوقف داخل مكان دخول الشريط إثر خطأ تقني أدى بتوقف البكرة في أحد الأمكنة، أعني اقتحام العناصر للسجن واقتيادي إما للتحقيق أو للسجن النسائي أو لسجن انفرادي آخر أو لسجن آخر يقع بناحية منطقة أو مدينة أخرى أو للموت حيث لابد من التخلص من السجناء القدامى لاستقبال الجدد حيث لا أماكن كثيرة وبعد انقطاع رواتب العناصر وذلك التقارب التركي الروسي

والوساطة فيما بينهم والنظام السوري، لم تعد هنالك ميزانية تكفي لإطعام المساجين لو علفاً أو خبزاً تعاف أكله الجرذان.

أجدني أحياناً أجد خنفساءة فألهو بها، أختبر سماكة ظهرها بالضغط عليها بإبهامي، أو أتحكم بجهة هروبها مني، وحين أضيق ذرعاً بالمكان أضرب قضبان باب السجن بتلك السلاسل المكبلة يدي وأطلق وابل شتائم بأعلى صوتي ليرتد صدى الصوت علي دون جدوى، أعود أحاول إغماض جفني علني أغفو بواسطة تذكري لوجهك، لأعود للوراء كثيراً أو قليلاً، أطلب اللجوء إليك، ليقطع حلمي بك صوت فتاة يقوم عنصران بجرها يبدأ الصوت بالتقدم أكثر من مسمعي بسرعة حيث يفتحون باب السجن الذي أقبع فيه ليقوموا بإدخالها ودفعها بقوة بركلة تشبه ركلة أحد اللاعبين المتقدمين لمنطقة التسلل والضارب للكرة بمنتصف العارضة،لا تستطيع الجلوس، من شدة الألم الواقع أسفل حوضها، تحاول التكوم على نفسها، تخاف، تبكي فجأة، تعاود الصمت، تئن بين نفسها ثم تنادي أثناء النوم أمها، وأحياناً أخيها لم يبق على مكوثها ساعات قليلة حتى تم إخراجها في منتصف الليل ولم تعد بعد ذلك، لمت نفسي، لم أسألها من تكون ولماذا هي هنا، فقد مات لدي إحساس السؤال أو المبادرة، أحسست بجمود ذهني تام وبإحساس الكسيح والمصابة بالزهايمر في مراحلها الأولى، بت أنسى كثيراً وأسهو في الغالب، أتكاسل عن القيام والنهوض لقضاء حاجة، أعطش فأنسى شرب الماء، آكل لقمة ثم أتحسس صحن الحساء، أسكب نصفه، أحاول بالملعقة إكمال تناول الحساء خارج الصحن، أتناول الحساء الذي على الأرض وأترك الصحن على حاله، ذكرني ذلك بالحاوية الوحيدة في حارتنا والتي كانت تقع بجوار المسجد أسفل المئذنة، فكان الناس يلقون نفاياتهم

حولها وليس بداخلها.

حين نقلوني للقبو باتت أذني ملاصقة لنبض الأرض فصرت أتحسس هزاتها الارتدادية وأتبادل القلق مع الجدران وذلك السقف المتصدع، شعرت ببهجة أني ربما سيأخذني الموت قريباً وينهدم هذا السجن بمن فيه كخلاص نهائي من موت متكرر، كما أخذ بائعة الكبريت وسط الثلج، لكن تفاؤلي لم يستمر، لا أعواد ثقاب أدفأ بها هزالي أو أحرق بها ثيابي الرثة وجسدي الذي بات يحاكي المياه الراكدة والضفادع المرابطة على تخومها، أبحث عن أي فرصة للتوغل في نفق الموت، فالماضي لم يعد يسعفني كما ذلك التعقيم المستمر للمشفى لا يمكنه قتل البكتريا التي تعرفت جيداً عليه، وتسلحت به، كل شيء بات عندي مصدر ألم، وجهك بات كتلك الحبوب فاقدة الفعالية أمام جسد اعتاد ابتلاع الحبوب كما اعتادت الأغنام على مضغ العشب، ماضيي معك بات علكة رديئة بداخلي، بت كالماعز أعيد الطعام من معدتي لأعلكه مراراً، ذلك الماضي المتخم بالآلام،هو طعامي الأشبه بما تمضغه الماعز وتعلف به.

حوار ثقيل جداً كسحنة مليئة بالسموم، جاءني رئيس السجن المدعو زكي، قبيح الوجه كالغوريلا، والقصير ذو الشعر القصير والأشعث، أنظر لسواد وجهه فيتراءى لي الخبز المحترق على الصاج، فاجأني بطلبه رغم علمه اليقين بظروف اعتقالي ومآلاته الراهنة:

بإمكاني إخراجك مما أنت عليه، لكن عليك أن تسمعي صوت الحكمة- الذي بعقلك إن كان لا يزال لك عقل، إن بقيت في هذه الزنزانة ستموتين وأنت تتعفنين دون أن يسمع أحد صوتك، وبإمكاني بالطبع الإفراج عنك، لكن مقابل تعاونك معنا، لتكوني ضمن جهازنا الاستخباراتي لتنظيف عفرين من الانفصاليين قاطعته:

- أنتم الوسخ الوحيد العالق في أحذية من تريدني أن أخونهم لصالحكم
- لقد حكمت على نفسك بالسجن المؤبد منذ الساعة .

نادى الحرس:

- أعيدوها إلى حظيرتها.

إننا ندفع ثمن التراخي التاريخي والانبطاح الأزلي بإيعاز من الأقوى، كما الذين ولدوا من آباء وأمهات فقراء، فقدر الأبناء هو في الغالب نتيجة وحصيلة تراكمية من كفاح أو تقاعس الأجداد وهو ما يحدد مصيرهم وكذلك من سيأتون من بعدهم، كثيرا ما كنا نقول، لقد رحل والدنا، ولم يترك لنا سوى عدة العمل، وآخر لم يترك لهم سوى دكاناً وآخر رحل ولم يترك سوى بيته وهو بيت أجار، أما أبناء الأغنياء فقد ولدوا وبأفواههم ملاعق من ذهب، الفقير لا يفكر بل يشكو، والذي يشكو دائم الغضب والحزن وبالتالي ذهنه مضافة للغباء والسذاجة والحكم الشعبية التي تدفع التأفف من يسر الحال، ولدنا محقونين بالأغاني الثورية والعاطفية، نغسل عار هزائمنا بالشعارات ونشحذ النصر والأمجاد من دكاكين الخطابات، ولم تك هذه الحرب الأهلية السورية «حيث يحبذ بعض الرومانسيين تسميتها بالثورة و التي نشبت في 2011 « إلا مناسبة لكشف تشوهاتنا وعاهاتنا التي اكتسبناها بالفطرة والولادة والتربية، لم تكن ثورة وإنما خوار ثيران تناطحت حتى الموت لتستبدل عذاب العقول الشاحبة والقلوب الضعيفة بمعاناة أشد وأكثر فصاحة، كنا أربعة وخامسنا موال بالوراثة للسلطة الحاكمة يكرع كل منا علبة بيبسي نناقش هذه التظاهرات وتوقيتها في احدى الأمسيات التي جمعتنا على طاولة واحدة قبل موعد غلق المقصف القريب من كلية العلوم في حلب بساعتين، كان ثمة هدوء، أعداد قليلة من الطلاب ترتاد المقصف

في مثل ذلك الوقت، أنا وأنت قرب بعضنا ومقابلنا خناف وخطيبها روني وفراس من بلدة نبل،جرى بيننا نحن طلاب قسم واحد هرج شبه مهول حول بدايات الكارثة السورية، لم نكن معنيين تماماً بالسياسة إلا أن الحديث بدا صاخباً شيئاً فشيئاً، تحدث فراس:

- ما يجري يا شباب مخطط لتقسيم البلد، نحن نعلم حجم الأخطاء والفساد والقضايا المتصلة بها، لكن الذين يحركون التظاهرات اليوم ويقودون الأغرار لحتوفهم، لا يعنيهم إصلاح شيء بمقدار أن همهم تدمير هذا البلد وتخريبه، إنها مؤامرة أمريكية صهيونية بامتياز لتدمير سورية الواقفة لوحدها أمام الصهيونية والإمبريالية العالمية التي تديرها أمريكا لصالح إسرائيل، انظروا كيف يتحركون كل نهار جمعة ومن المساجد حصراً هاتفين الله أكبر، أي ثورة هذه، إنهم الأخوان المسلمون يريدون الاستيلاء على السلطة لو على حساب دمار الشعب.

قاطعته خناف مستاءة :

- من الطبيعي أن يستفيد الخارج من وطن ضعيف نتيجة نظامه الفاسد وشعبه الفقير، إلا أن هذه الهبة الشعبية الجارفة جاءت تعبيراً عن عهود من الكبت والظلم.

تابع روني: التغيير برأيي يحتاج لوقت وكذلك الديمقراطية، ما حدث في تونس، ليبيا مصر واليمن هو استجابة لظروف داخلية ورغبة خارجية في تغيير خارطة المنطقة.

ثم نطقت أنت لزكين الحبيب لتضيف:

- لست متفائلاً البتة، كل هذه الثورات إن أسميناها مجازاً بالثورة إلا أنها تنبأ بمجهول أو بفراغ يصعب ملئه.

ثم أضفتُ : مهما كانت هذه الهبات وخلفياتها، إلا أني أنحاز بالمطلق

لرغبة الشعوب بالتحرر لكن جل ما أخشاه أن تستبدل عاهاتها بعاهات أخرى.

تنهد فراس وابتسم قائلاً:

- ماذا تقصدين، نظامنا لن يسقط، روسيا، الصين وضعا الفيتو بوجه أي قرار يدين الحكومة وإيران معنا.

روني تدخّل :

-ما أعرفه يا شباب أن الغد مجهول وغامض، جعل الله العواقب سليمة.

سكت الجميع بعد هرج وأخذ ورد وكرعوا آخر رشفه من علبة البيبسي ونهضوا ليتجه كل إلى شأنه وافترقت الشلة منذ ذلك الحين حيث كانت هذه الجلسة بمثابة العشاء الأخير، فقد تأجل بعد ذلك امتحان التكميلي المزمع عقده في شهر آب، أنا وأنت لم نعد نأتي إلى حلب بسبب الحواجز وخطورة الاشتباكات التي كانت تدور بين الجيش الحر والنظام السوري.

روني وخناف تزوجا في القرية، ثم بقيا فيها لفترة وخرجا إلى حلب من ثم ليغادرا سوريا بعدها نحو هولير عاصمة إقليم كردستان، وفراس انضم إلى اللجان الشعبية الموالية للحكومة و قامت بقمع التظاهرات التي انطلقت في عام 2011، تلك الجلسة كأنها كانت بداية ترسيم لحياة أشبه بكابوس لا ينتهي استقر بك إلى المجهول وأودعني داخل هذا السجن العفن.

في رحاب الزمن شبه المتوقف وحدها الذاكرة تنتقل كشريط بانورامي في ذاكرتنا، تصبح للدقائق أنياب النسور تدق بها الرقبة الرهيفة فتغرز مخالبها فيه حتى ترتطم بالعظم باترة الشرايين والأوردة، حيث يتم تجريدي أحياناً من ملابسي كما يفعلون بكل سجين أو سجينة، فالحبس

الانفرادي ضرورته هو إجبار السجينة على الإذعان للاغتصاب وإبداء الرضا وعدم المقاومة، فالتعذيب الجسدي والنفسي يدفع الضحية إلى خيارين إما الاستسلام أو الجنون، تنسى ذاكرتي الزمن الذي قضيته هنا متنقلة من سجن لآخر ومن ألم لآخر ومن لكمة لأخرى بات الآن شعري الطويل المجعد غابة كثيفة تعج بالقمل ناهيك عن شعوري برغبة في حك ظهري لكن دون أن تصل يدي للمواضع المصابة بالحكة الجلدية

لقد حفظت ذاكرتي بدقة لامتناهية كل موضع في السجن الانفرادي، التصدعات، الرواسب، السقف المتقطر، المرحاض المتسخ، الصنبور المعطوب، الماء البارد جداً، الأرض الباردة، الرائحة الرطبة، أصوات جلجلة السلاسل، صرخات بعض المعتقلات، اقتيادهم لمجموعة من الأطفال، تجريد مجموعة من الفتيات كل فترة من ملابسهن، الاغتصاب الجماعي, آثار الدم على الأرض، بقايا الشعر، مجموعة من العصي والخيزران والكابلات على كرسي، حبل متدلٍ في زنزانة، إخراج سجينة منتحرة أضربت عن الطعام وماتت جوعاً، مشاهد من القهر اليومي يتخلله أرق واستنزاف في التفكير، وصرخات تنبعث من مكان ما، شجار بالأيدي بين مجموعة من النسوة لأجل صحن برغل، ضرب مبرح بالهراوة على الرؤوس، إخراج المصابات عبر جرهن من شعورهن خارج الزنازين.

في هذه البلاد من الممكن فقط أن يتباكى القوي ويظهر مشهداً مؤثراً أكثر اتقانا من المظلوم ذاته، فلا يتذكر التاريخ سوى الذي رغبت السلطات الباطشة بإظهاره وهمُّ المقيدين أن يصبحوا رجال سلطة لا أن يتحرروا من قيودهم فحسب، لهذا يصبح الخوف بين المقتدر والمقهور الراغب في الاقتدار حالاً محله فيما لو نجح سجالاً تاريخياً متبادلاً ولا يقتصر

على حقبة زمنية، كما بودي الآن لو استطعت الظفر برشاش أو كلاشينكوف أو قنبلة كي أحرر بها نفسي وكذلك المسكينات اللاتي يمتن أحياء ذلاً وهواناً في هذه الأمكنة التي لا تصل حتى يد الله إليها، أقصى ما يمكنه الله فعله هو مراقبة أبناء الظلام من برجه العالي، يتفرج على هذه المأساة البشرية والتي هي جزء من ملهاته في معاقبة البعض وترك الآخرين يسرحون ويمرحون في ممارسة فنون القتل والإذلال باسمه.

من السذاجة بمكان تجسيد الله على أنه سادي حتى العظم يغضب لقول كائنة بائسة مثلي ما من شأنها التنفيس عن كرباتها، لقد حذا المتدينون حذو الوثنيين في ترسيم قسمات الله وإسباغ صفات محددة عليه، فالوثنيون نحتوا التماثيل كتجسيم لله بينما قام كل دين بتحديد صفات وملامح الله كل على نغمته المنسجمة مع البيئة والناس الذين يقطنونها فصار للإله ألف شكل وشكل فمن جماعة رأت أن الله قد فضلهم على الغير من أجناس البشر إلى جماعة اتخذت من إنسان ابناً لله ومن جماعة أعطت لنفسها الحق في الزواج بأكثر من امرأة

فالله في التوراة لا يشبه الله في الإنجيل، وكذلك الله في القرآن لا يشبه ما جاء فيما سبقهما من كتب هذا عدا الأديان الأخرى في الصين والهند وبلاد الاسكيمو فلهم في شكل الله وتقويله ما يشاؤون آراء وآراء.

لقد توالدت الأديان عن بعضها البعض كما تناسلت الأحزاب من بعضها وفرخت المزيد من الشروخ والأطماع والخلافات التي تلونت بالدم عبر التاريخ، واللاتي سرن على الحياد من الحياة لم يسلمن من حوافر الفيلة ولا من سهام ونبال ممتطيها، والذين ساروا ملتمسين الحياة الهادئة خارج سراديب الإيديولوجيات والعقائد إما أنهم نجحوا في الابتعاد والاعتكاف في حضرة الحياة الوادعة أو صاروا هدفاً

للأسقف المتداعية من غضب الطبيعة أو صاروا في ليلة وضحاها تحت رحمة حراس المنافع وأرباب المال،كأناي القعيدة في سجن صمم ليفقد الإنسان أغلى ما يملك، ليفقد الإنسان كرامته، نفسه، عقله، إباءه طفولته وحياته بالتدريج،لا شيء بإمكانه إعادتنا لما قبل الألم والوجع والاغتصاب والأذى

لا تحقيق العدالة، ولا حتى الانتقام بإمكانه إزالة هذا القتام، ولا حتى رؤية المجرمين في الجحيم،كل ذلك لا يعد شيئاً قياساً لمرارة هذا الواقع، إن غريزة السلطة وقتل الأضعف أو إرغامه على أن يظل نكرة لا يمكن ردعها بألف دين وفلسفة ووعظ ولا بأي شكل من أشكال الوعيد والتهديد.

تتلاطم أفكاري ببعضها كموج بحر هائج، سفن فوق ذلك البحر تحمل ملامح وجهك المتعددة، وكذلك تحمل سحباً سوداء تهدد بمطر غزير لكنها لا تحقق تهديداتها الأشبه بالتركية، الموت النزق لا يرغب بحملي على ذراعيه وإلقاءي في سرير الفناء، ولا يرغب في رؤية منظري الأشبه ببصل محترق في موقد شواء، أسمع داخل معدتي أصوات جوع الجوعى وحنين العطشى المعتقلين والعراة في العراء لقطرة ماء.

أسمع صوتك الخافت يقول لي أن عثرت على فتحة تحت السجن تعالي اهربي من خلالها فأصدق فأنهض من فوري، وحين أجد صوتك وهماً أجهش بالبكاء

أصبحت مجنونة وينقصني فقط اعتراف خطي من مدير مصح الأمراض العقلية يثبت أن عقلي بات أشبه برأس مقطوع يترنح على رقبة تخرج منها نافورة دماء

فوضى بروحي وأحاسيسي، فوضى تشبه ما يدور في السجن من

عويل ونحيب وشقاء، أغمض عيني أحاول النوم والاسترخاء،أركز على استحضار أغاني برامج الأطفال ومحاولات أمي في جعلي أنام، أقوم بلمس وجهها بإخراج ثديها ووضع رأسي عليه، وتقبيله والعودة للرضع، أدغدغ حلمة الثدي أجعلها تضحك،فيطير النعاس من جفنيها، ثم أغفو بعد تعب لتضعني في مهدي، أعود مستحضرة المكان غرفة الضيوف، لوحة شاها ماران أي ملكة الأفاعي، تلك الاسطورة الكردية التي تعتبر معلماً ثقافياً ممتازاً، لقد عاشت بين الأفاعي بعد تمكنها من الهرب من الذين سببوا لها الأذى، وقد تم تنصيبها كملكة للأفاعي فالسكنى معهن أفضل من الحياة بين البشر، ما أحوجني للهرب، الغدر وموت الثقة والخوف من المحيطين بنا، يعيد حكاية ملكة الأفاعي لواجهة الحياة الحاضرة بما تحمل من مفاجآت تعيسة، كل تفصيلة في المنزل حكاية، وداخل كل حكاية تفاصيل متشعبة وآلام ناهضة من مراقدها لتكون أخاديد للمسجونين في الأسفل والضائعين الذين تواروا عن ذويهم ولم يعودوا مصدر تساؤل ولم يعد يعني لأحد فيما إن كانوا أمواتاً أم أحياء، لطالما حرصت على حياة هادئة وتركت معاقل الصراع للذين لا يعيشون دون مغامرات، قادني عشق الأرض لهذا المآل، لم أعد أخش الموت لكن الموت خشيني فتركني طعاماً طازجاً للوحوش البشرية السائبة

أناي حين كنت طفلة أحسها تخرج مني كجنية في غاية الجمال بياض طلتها أنصع من البدر في تمامه تجلس قبالتي، يحاول ضوءها أن يفتح عيني المغمضتين، تتفتح عيناي الباهتة المتعبة بصعوبة، أنساك لبرهة، يغيب طيفك ببطء يختفي وراء حلولها، طفلة ترتدي مريولها المدرسي هي أنا كما كنت حين دخلت المدرسة الابتدائية قبل أن أتم السادسة

من العمر ترتدي حقيبة زرقاء على هيئة سنفور وبداخل الحقيبة الجديدة دفتر، قلم رصاص وممحاة على شكل متوازي أضلاع عريض ملون بلونين سماوي وبرتقالي فأخوض وأناي الطفلة في حوار لا أتمنى أن ينتهي وفي الآن ذاته لا أحب إتمامه لأني أتألم بعمق:

- افتقدتك، تعالي أحتضنك، كدت أنسى أني أنت، لقد مررت بك سريعاً ودخلت هذه الحفرة العميقة جداً عمق الحزن وقبح الذل تعالي أحتضنك.

- لا لا تقتربي ان اقتربت اختفيتُ وقد لا أتجلى لك مثل الآن.

- لا تقولي ذلك، إنه الوقت الحقيقي لعودتك وتجليك أمامي، كدت أنسى جذوري.

- يا أنت يا ضلعي ونبتتي ويا رائحة القرنفل المتشبثة باستماتة بشباك نافذتي.

- لماذا تركتني، خنت براءتي، تقاعست عن حمايتي، لماذا لم تهربي وتوهمت للحظة أن بندقية وبقجة خبز تستطيع الوقوف بوجه الطائرات وما تقذفه من جحيم تحتها.

- قادني عشقي لحتفي، قادتني بسمتك، حقول الزيتون وتجاعيد أمي وآهات أبي الفلاح إلى حمل البندقية، تمنيت الموت لكني وقعت أسيرة واكتشفت أن الموت رائع وجميل وبهي كالحياة مقارنة باغتصاب الوحوش لي الموت يا صغيرتي حياة واقفة على قدميها كالأرض وهي تحمل الجبال والأنهار، الأشجار والأزهار ومختلف الكائنات.

- لا تقتربي أو تحاولي احتضاني، إنما أنا أنت، لكني طفلة تبكي لأنك وصلت بي لهذا القاع الرطب.

- آسفة يا صغيرتي إن حياتي حيث أنت كانت الأجمل، لا يضاهيها جمال-

أتعفن هنا ويكويني ندم بل شيء أشبه به لأني بيد القدر دمية لا أكثر حضورك يواسيني، يجعلني أنتشي طمأنينة وسط قيد ثقيل وواقع شديدة الوطأة يشنقني مراراً، يوزع نعي احتراقي بطاقات عزاء للرياح والنجوم الواجفة في أماكنها ذات شتاء قارس.

- تعالي، انزعي حقيبتي عني ثم ألبسيني إياها، وكذلك فكي ربطة حذاءي واربطي خيوطها بإحكام، لا لا إياك أن تقتربي، أنا أهذي فحسب.

هطلت دموعي فجأة وبغزارة وارتجفت شفتي السفلى ثم غصت في محيط عميق من البكاء، إني أبصر أناي الطفلة آه لو أنها لم تهددني بالاختفاء لرحت أطوقها بذراعي، وأهم في تقبيلها حد الجنون والوقوع أرضاً من شدة الهيجان، راحت دموع أشبه بقطرات ندى تنسكب من عينها لتنحدر ببطء شديد على خديها الورديين وابتسمت ابتسامة مونالیزية ثم تحولت لدمية ثم ما لبثت بعد سكون دام لبرهة أن لمست شعرها المجعد ثم أخذت تخرج من حقيبتها سندويشة معجون البندورة التي كانت تعده أمي لي لأكله عندما أخرج من الصف لساحة المدرسة، كانت رائحة معجون البندورة تملئ حقيبتي، الرائحة وحدها تقاوم جوعي،أستجيب لنداءها بقلبي، ابتسامتي تقاوم حزني باستماتة شديدة، والدموع الساخنة تتساقط كأمطار الصيف من سحابتي عيني المشتعلتين شوقاً ووجعاً كبيرين، تبدد سقف السجن المشحور تحول فجأة لظل شجرة التوت وارفة الظل، وتحولت الجدران لحقول القطن، وباتت الأرض معشبة، وانفصل جسدي عن مكان وزمان جاحدين بحقي كإنسية وصارا فسحة هادئة لا يرتفع فيها صوت لمواء قط أو نباح كلب.

سرب من الإوز لاح من فجر بسمتها أناي الطفلة تلاه سرب لصغار

البط، وبجعة تسحب نفسها كقارب صغير في بحيرة هادئة مليئة بالأسماك الصغيرة، صارت أناي تتحدث لي بينما صرت أضطجع شيئاً فشيئاً على حائط صيرته حقلاً ترتفع فيه نبتتي عباد الشمس مليئتين بالبزر،على بعد حقل مليء بالزيتون والزيزفون وورود العسلية،آه يا قلبي، ما قبل موتي يقوم الله بتكريمي، فيؤلف بين قلبي والمكان العفن فسيتبدله بالحقل والعطر ووجهك يا أناي وقت كنت طفلة في الصف الأول الابتدائي، ما أحلاني أقترب من حدود الموت معانقاً طفولتي مزهوا بجديلتي، بابتسامتي بطراوة خدي ونباهتي، يلاصق قلبي جرس المدرسة يشير إلى وقت الفرصة فيهرع الطلاب في التأهب للخروج، طفلتي ما بك تحدثي قولي أي شيء أريحيني، اقطعي علي ثرثرة روحي، قوضي وجعي، زلزلي التشنج الذي أحسه في بطني، اجعلي عيني المتهدلتين تتفتحان كورود الجوري الصغيرة

هذه المرة أحس الموت جاداً في أخذي إلى مملكته الآمنة، وأخذ الله يحيل كل شيء موجع وأسود إلى رغد وخضار، علمت في قرارتي أنه يريد أن أشعر بالطمأنينة وأن الحياة الأخرى ستكون يسيرة وخالية من هذه الآلام والأهوال التي عانيتها، شعرت بالحبيب الذي اعتدت على مخاطبته وتوجيه معاناتي إليه جالساً على طرف يتأمل تفاصيل الحوار مع أناي الطفلة ذات الوجنتين الأميل للخجل والتورد، أصبحت نصف إنسية ونصف روح تهيم في أنسها، جاءني طيف أبي، أخذ يجلس فوق رأسي، يمسح شعري براحته، ويغمرني بقبلاته الرابضة على جبيني والمبللة بدموع ساخنة وجدت في وجهي مجار طويلة لطالما التقت بمجرى دموعي، أبي الذي لا أعرف عنه أي أخبار، كل شيء بات مجهولاً،بالنسبة لي سوى يقين أنني أدنو من الموت قاب قوسين أو أدنى،أين أنت يا أبي،

رؤيتك هي الحرية، ما أمر استقبال الفناء دون مراسيم تجهيز، أنا الآن محض اتحاد شاق بين نطفة وبويضة أينعتاني للحياة لأموت خارج رحم أمي وبعيداً عن أبي ولا تشفع لي سوى الطفلة الجالسة قبالتي والتي تأبى الاقتراب مني أو حتى معانقتي

- احمليني واجعليني أبدو فوق مثل طائرة ورقية ترفعها الرياح إلى فوق.

- سآخذك إلى حقول الرمان خلف المدرسة، سأجلس معك تحت الظل فالشمس تشوي الظهر.

- اشتري لي بليرة واحدة أربع قطع من العلكة الملونة أريدها بالأحمر والأبيض والأخضر والأصفر.

- هل ستعلكينها كلها.

- نعم فمذاقها حلو ويبقى في أنفاسي لمدة أطول.

كالمسيح المستغيث بإلهه الساهي عن آلامه أنا، وما من أحد ينزلني عن صليبي، سوى طفلتي شديدة الإضاءة تلتقط وجعي بحواسها الكثيرة وابتساماتها المزيلة ليأسي، وقد اتخذت من الجذور منهجاً وسبيلا حقيقياً لمواجهة ما في هذا العالم من قتام وشرور، لقد نسيوني في المنفردة معتقدين أني سأقبل أن أكون واشية رخيصة وأنا الذي قدمت حياتي قرباناً لهذه الأرض الراسخة بي رسوخ التراب بطبقاته، وليكن فالألم وضيق الأنفاس وانعدام الرغبة في تناول الطعام مؤشرات جيدة للعبور من الحياة إلى الفناء حيث الراحة المعلنة أمام سوء تجربة أن يولد المرء إنساناً ويعيش داخل قفص، تمارس فيه مناهج استئصال الإنسان عن إنسانيته وجعله مجرد زومبي يصرخ بهستيرية ويجلس على فضلاته كخنزير بري، منذ وقت مضى كنت أستطيع الصراخ لدرجة كبيرة، قبل أن تنقطع حبالي الصوتية، الآن أبدو مجرد هيكل أتسلى في

عد فقرات صدري، أتحسس فقرات ظهري، وأحك ذلك الجلد فالقمل يحيطني وقد استوطن جسدي كله كما استوطن الأغراب مدينتي، وقد أصبحت على يقين تام أن الكائنات الأضعف تاريخياً هي غذاء طبيعي وصحي وكامل الدسم للكائنات الأقوى المتسلحة بالبطش والزيف، لهذا أعلن امتثالي للحقيقة لاعقاً عن طيب خاطر سمها الزعاف، ولا يعني ذلك استسلامي إنما امتثالي لساعاتي الأخيرة المتبقية لي ككائنة توشك على الانتهاء.

- لا تنسحبي طفلتي من حواري مع نفسي أنا وأنت امتداد وإن كنت لم تفقهي حواري الفلسفي هذا مع نفسي، فسذاجتك هي ذاتها سذاجتي حتى لو كبرت من بعدك وقرأت بضعة كتب هذا لا يعني شيئاً، إننا ضحايا ما نحن عليه، لا تكترثي لهذياني ابقي واقفة.

- أريد الذهاب للبيت، أمي بانتظاري، ألا تأتين معي.

- لا أستطيع، انك سجينة مثلي.

- أنا حرة أرحل الساعة مع الماضي.

- لا تذهبي.

- لقد جعت.

- وأنا جائعة.

جوعي مختلف هذه المرة، بضع لقيمات لن تجعلني أبدو في حالة شبع، جوعي للكرامة المسلوبة شديد، حجر رابض على بطني، أشواك تكاد تنمو داخل معدتي، لم أعد أستطيع التفكير بشيء، كل شيء يستنزفني، أيتها المتوجة طفلة عتيقة مليئة بالأحلام، أنيري قمراً فالظلام شديد، وليكن ردك على العبوس قاسياً، لوحي للحزن بعقوبات كثيرة قد تقض مضجع البكاء وتجعله يفلس من الدموع، أشعر برغبة في النوم، لكن

أخشى أن يغافلني فلا أصحو ثانية، لا تزال لدي رغبة في الحياة رغم حاجتي الماسة للفناء ورؤية تلك المملكة التي سمع بها الأحياء ولم يعرفوها بعد، حيث لا ميت بإمكانه العودة ليخبرنا فيما ان كانت ثمة حياة أخرى أم أن الحياة التي نحن فيها أولى وأخيرة، أستقر كآهة حزينة في وتر لا ينطق إلا بحكمة الحزن وليس عن عبث ليودعني لعالم كل ما فيه حشرجات تبعث على الصراخ، ولا صوت يسعف حنجرتي فحبالها واهية كخيط عنكبوت تقاعد من الخدمة ولم يعد ينسج، أستمع في أعماقي لكل الألحان الحزينة، طيف أناي الطفلة ينسحب شيئاً فشيئاً، ليأتي طيفك ويهم بمعانقتي وإيلامي في الاحتضان حد الاختناق،أتذكر كيف رشت أمي خلفي طاسة ماء حين غادرت بي سيارة الجيب، تلك اللحظة هي الأخيرة، ذلك هو القدر الذي هيأ لي من وقتها حياة كالحة،ملوحة الملح تكوي أنفاسي، تزجني في صدام مع العطش، أرفع رأسي بصعوبة بالغة، فينسحب ظهري للوراء اثر محاولة خائبة في النهوض، كل شهيق يصاحبه سعال متكرر أدمى حنجرتي، أما الزفير فمتبوع بصوت فحيح يشي بأن الصوت معطوب، يسيل من فمي بلغم شديد الاصفرار وآخر ملتصق بحنجرتي ولوزاتي الملتهبة يأبى الخروج بالرغم من شدة السعال، غادرتني أناي الطفلة فتوارت بغتة الحقول والأشجار، غابت عطور الأزهار، حل الظلام فاتحاً فمه الكبير لابتلاع النور، دخل السجن بضعة رجال، رؤوني في حالتي فدار بين ثلاثتهم حوار:

- ماذا نفعل أنتركها هنا تموت وتتعفن.

- لا أعلم، ألم تسمع إنها أوامر رئيس السجن أم تريده أن يغضب ويبعدنا عن المحرس، لست مستعداً لنقل آخر، أنا مرتاح هنا.

- إنها بحاجة للمشفى، يجب نقلها حالا.
- سأذهب لإعلام رئيس السجن لتمت في المشفى أفضل من السجن.
- أراك متعاطفاً معها هل وقعت في غرامها.
- اسكت أيها اللعين، أما تراها تذوي.
- ظننت أنك تحن لجسدها.
- جسدها انظر إنها هيكل يا رجل.
- أرجوكم الآن كفوا عن ذلك، اذهبوا وأحضروا من يقوم بإخراجها من هنا.
- حسناً.

نقلي إلى المستشفى من السجن القبر بالنسبة لي بمثابة حفل زفاف، الخروج من ذلك الجحيم إلى أي مكان بمثابة نصر أهم من أي انتصار على الإطلاق بل مثّل لي الحرية بشكلها الحقيقي، يغدو مجرد الخروج من باب السجن خلاصاً حقيقياً بل لا تكاد الفرحة تسعني، صحيح أنني أحتضر لكني أدرك وأميز وأفرق بين السجن وعتبته، ومن حسن دعاء أمي لي أن نقلوني من السجن للمشفى حيث ظلت أنظاري مشغولة باتجاه زجاج سيارة الإسعاف لشدة شوقي للخارج، لو تدرك حجم سعادتي الحقيقية حيث لمست المكان، ضوء الخارج علي شديد، عيناي لم تك لتحتمل ذلك بيد أن قلبي صار حسوناً صغيراً يضرب بجناحيه القفص منشداً نشيد الحرية الجميل.

رائحة طبقة الصملاخ في أذني باتت بارزة أما رائحة إبطي فباتت أشبه برائحة الجوارب المتسخة والخارجة لتوها من بوط عسكري مبتل، أحتاج البقاء في حمام شهراً كاملاً حتى أنظف، أحسست حينها أن لا فرق كبير بين الإنسان والخنزير بل يكاد يكون الإنسان هو الأقذر بين

الكائنات إذا أهمل نظافته الشخصية لشهر فقط،شعري المتساقط كالأشجار ذي الأوراق الصفراء ينهمر كدموع الخريف، أبدو في خدر لكن عقلي في تمام يقظته يدرك ما يجري، المشفى في عفرين قد خرج من الخدمة، بسبب ذلك الزلزال والهزات الارتدادية، ازدادت حاجتي لرؤية أبي، ظللت أردد هاذية أبي، أريد أن أراك يا أبي، لماذا تركتني،حين نظرت للمشفى، فوجئت بتهدم وتشقق بعض أجزاءه، وقعت أنظاري على طفلة قيل أنها نجت من الزلزال، حيث حدث شجار عليها بين إدارة المشفى وبعض عناصر ميليشيا السلطان مراد حيث ادعت الأخيرة أن هذه الطفلة تعنيهم، زادني ذلك شعوراً بالحزن والشفقة عليها،لماذا يريدون تلك الطفلة، لا يفلت من هؤلاء السفلة أحد.

دار حديث سمعته جيداً بين الطبيبة التي قامت بتشخيص حالتي فوصفتها بالميؤوسة قائلة للعناصر التي رافقت سيارة الإسعاف:

- حالتها صعبة للغاية، حبالها الصوتية مقطوعة، وتعاني من نقص حاد في التغذية وفقر بالدم وكسور في الأضلاع ونزيف مهبلي، إنها تتوجع وتحتضر.

- جدي لها حلاً سهلاً ورحيماً وخلصيها مما هي فيه.

- ماذا تعني؟

- أعني تصرفي بما يمليه عليك الوضع.

- هل لها أحد يمكن أن يزورها.

- هذا ممنوع، فهي إرهابية انفصالية ومحكومة بالسجن المؤبد وممنوع زيارتها من أحد أي كان .

- إذن ماذا أفعل؟

قاطع الحديث أحد العناصر ممن جلبوها إلى هناك قائلاً:

- أدخلوها في براد الجثث.

ما إن سمعت ذلك حتى دب الرعب في داخلي، وصرت أتحرك داخل سريري وزاد الألم، فحملني اثنان من الممرضين من سريري ليضعوني في سرير متحرك نحو براد الجثث، أدخلوني في البراد، وأنا ما زلت حية، ذكرني ذلك بالأفران التي أدخل النازيون اليهود إليها بعد قتلهم بالغاز، إلا أن الفارق، أنهم يدخلوني البراد وأنا ما زلت على قيد الحياة لأموت برداً،آه يا أبي، آه يا أمي، آه يا حبيبي، آه يا وطني، وداعاً، وداعاً، أسير إلى الموت وفي قلبي حسرة رؤيتكم مجدداً، أموت وفي قلبي أنتم.

أبو بروسك ظل يداوم إلى سجن عفرين بين فترة وأخرى، يذرع الطريق جيئة وذهاباً لرؤية ابنته دون فائدة، ففي كل مرة يتم طرده بطريقة مذلة وأحياناً يتم إدخاله للسجن وضرب قدميه بالعصي،

- تريد ابنتك العاهرة أليس كذلك، لو كنت أباً صالحاً لما ربيتها لتكون إرهابية وترفع السلاح بوجه الثوار، ثم يكمل العنصر البدين ضربه بالسياط من ثم ركله خارج السجن، يبكي أبو بروسك ليس من فرط وجع قدميه اللتين لا تقويان على حمله فحسب وإنما روحه التي تبكي،شوقه لابنته، تحسره عليها على ذلك القدر الذي ساقها للوقوع بيد لصوص الدجاج.

عند المحاولة الأخيرة ذهب وقال في نفسه:

- حتى لو مزقوني هذه المرة لن أكف عن طلب ابنتي هي كل ما تبقى لي، فقال له أحد العناصر اليافعين ممن التحقوا حديثاً للخدمة كما بدا لأبو بروسك وبعد أن لحق به قال له هامساً :

- يا عم ابنتك في المشفى منذ عشرة أيام وقاموا بإسعافها بإمكانك السؤال عنها هناك.

- شكراً بني حماك الله
- كان الله بعونك

على وجه السرعة هرول أبو بروسك مقلاً لتاكسي أجرة نحو المشفى، هم بالدخول للمشفى مسرعاً، أوقفه موظف هناك:

- أين تذهب كأنك تدخل خاناً؟
- أريد ابنتي أين ابنتي؟
- اسمها من فضلك
- رونيا

أمعن موظف الاستعلام في السؤال عنها، ثم أغلق السماعة، قالها بأسف لأبو بروسك:

- ابنتك ميتة منذ أكثر من أسبوع، هي في البراد، قبل استلام الجثة تفضل وامضي على ورقة الاستلام هذه.

لم يستطع أبو بروسك أن يحبس دموعه، وقَّع على عجل

أخرج الممرض جثة رونيا من البراد، وتم لفها ببطانية تم طلبها من أحد المستودعات قام أبو بروسك بحمل ابنته على كتفه ليخرج من المشفى صوب سيارة التاكسي التي تنتظره، وهمّ في المسير بابنته الميتة المزرقّة والباردة لا يدري إلى أي مكان يأخذها، أإلى المقبرة، أم يغسلها قبلاً،والطرقات ركام والناجون في الخارج يفترشون الأرض خوفاً من زلزال جديد.

أنفاس تفترش الإعياء

التجوال في حي سور يشعر بيكس أنه وحيد، تردده للمشفى، لديه شعور مطمئن يتعلق بحالة ابنة أخته، هي تتحسن بسرعة، ستخرج من المشفى هذه الأيام، سيضطر لترك أورفا والاستقرار في ديار بكر، لن يستطيع الابتعاد عن تلك الطفلة اليتيمة وحيدة أخته الراحلة، أراد البحث عن عمل، رفض فكرة إكمال الدراسة، شعوره بخوف كبير من الاعتقال، أو اعتداء البعض عليه لكونه سوري وفوق ذلك كردي ونازح من مدينة باتت تحت سيطرة المعارضة السورية المتطرفة والاستخبارات التركية، خوف يقبض عليه، يزجه بعنف في زنزانته فيشعر أن الأرض عبارة عن سلسلة ممتدة من الأغلال والقيود، يتأكد أن ما يحسه وهم عندما يركل الهواء بقدميه،علاقته بزيلان علاقة أخوية صرفة، إنها تعوضه عن أخته وفي ملامح العم أوسمان يجد طمأنينته ثقته بنفسه والغد،أحياناً يذهب لتلك الشقة التي استأجرها والمقابلة من بيت العم أوسمان آمدي، يشارك زيلان في الطبخ، راح ينشر خبر عثوره على عمل في محل صغير ضمن سوق الزبادي، والواقع في حي سور،وهو حي يكاد يخلو من أناسه الأصليين، أما زيلان فراحت تتردد بين حين وآخر لدار الثقافة الكائن في حي زيا فتستمع للموسيقى والعزف، في داخل زيلان عراك نفسي يتعلق بتلك الرهبة من ممارسة السياسة ضمن حزب سياسي لكثرة تنبيهات جدتها لها:

- انظري ابنتي نحن لا نزال نحمل بداخلنا وجع فقداننا لابننا الذي هو والدك لقد تركك منذ كنت صغيرة وورط أمك في السياسة ومتاعبها

فانغمست فيه دون أن تدري وتستشعر مدى خطورة ذلك، لقد دفعا كلاهما ثمناً باهظاً حينما ولدت دونهما، فلا تعيدي ذات التجربة وتسلكي ذلك الطريق المسدود والذي لا نتيجة له، ثم شعرت برغبة في البكاء وتابعت:

- لا أريد فقدانك أنت أيضاً، لا تقتربي من الخطر، فكري بحياتك بدراستك وعيشي واستمتعي فالواقع الذي يحيطك ليس وليد ولادتك ولن تنتهي معضلاته من بعدك.

تقول في نفسها:

- حالنا كحال العصافير الصغيرة في الأقفاص تأنس ببعضها حين ينعدم الخضار وتضيق المساحة ولا تبقى للأجنحة فائدة حيث لا يمكن التحليق داخل القفص، صعب لمن لم يتقنع بحياة وسنن القفص بأن يعيش على قيد السلامة، ثمة أسئلة وجودية تفضي إلى النهاية علي تجنبها لأن الأسئلة كلوح صابون أو قشرة موز والمتزحلق بها تنكسر قدماه وربما أضلاعه أو فقرات ظهره، لقد خلقنا لا لنخوض سباق البحث عن الأجوبة وسط أسئلة كالألغام قد تتفجر بمن يحاول البحث عن إجابات لها، لا يجب أن نبدو كثيران مجنونة تناطح الجدران بعناد، استهوتها كثيراً، فكرة تأمل التجاعيد على جبين وحول شفاه المسنات والمسنين، شبهت ذلك بخارطة النقوش المسمارية على الألواح وكذلك النقوش داخل القلاع الغابرة وآلمها وجود جيل لا يأبه بمعاناة الأسلاف ولا بالمراحل التي عاشوها لحين بلوغ الحياة هذا المستوى،دخولها للأسواق الضيقة الشعبية مخالطتها بدماثة واضحة لكل فئات الناس دون ترفُّع لقي استحساناً لدى الناس واستهجاناً لدى الذين نصِّبوا كعيون تراقب وتكتب التقارير،هنا في «سور» اندلعت أعنف المعارك

بين وحدات حماية المدنيين وقوات الشرطة التركية، تتذكر زيلان ملامح قتيلين رفضت الشرطة تسليم جثامينهما لذويهم بل قاموا برمي جثمانين آخرين في الشارع لترهيب كل منتفض، الجثامين الأربع ظلت لوحدها دون أن يجرأ أحد على الاقتراب منها وعندما طال الأمد قامت الشرطة بقتل اثنين آخرين وهكذا أصبحت الجثامين ستة تبع ذلك قصف للحي، كان سبتاً دامياً أحداثه مكتوبة بعمق محفورة كتجاعيد في ذاكرة الناس.

أينما تتجه زيلان ترى الخوف مثل ظلال عريشة العنب على الأرض في ليلة مقمرة، تراها في العيون المنطفئة كأسرجة خالية من الكاز، تلتقي الخوف في تلك الأبنية القديمة وفي سحنات الناس المتحدثة التركية بصوت مرتفع كأنها تغازل بندقية الحرس والشرطة المتجولة هنا وهناك كرجال الحسبة عند داعش، الناس في الأسواق تبتاع حواجيها، والعمال في المطاعم يعملون كخلية نحل تلبية لمعدة الزبائن، رائحة الشواء تدغدغ الحواس.

هم في ذهاب و إياب بينهم بعض من السياح الذين لم يحالفهم الحظ في الخروج من تركيا بعد بسبب الزلزال،رائحة السمك تفوح على الجانب الآخر من الحي، باعة السمك منشغلون في عرض الأصناف وقائمة الأسعار، وبعض من اشتاقوا لتذوقه لا يستطيعون شراؤه كونهم فقراء، سيبدو ما بعد الزلزال الكارثي صعباً على المرشحين أنفسهم للانتخابات هذا العام، حنق واضح يزين الملامح والقسمات، غضب لا يمكن إخفاؤه، واقع اجتماعي محبط، ركود اقتصادي وانهيار في الليرة. يبدو الكهول أكثر حديثاً عن السياسة ما بين ساخط على الحكومة وآخر راض وحديث لا يخلو من الحذر يسود النقاشات:

- إن لم ننتخب أردوغان يا سادة فسوف يزداد أعداد المثليين سيأتي العلمانيون الكفرة ويجردوا النساء من ثيابهن وليس فقط من حجابهن لا تزال تمسك بالدين من مؤخرته يا عم صدقي هون عليك، إن لم نتخلص من أردوغان في الانتخابات القادمة وإن فاز سيلعن آباءنا ويزج الصغار المتبقين قبل الكبار في المعتقلات، سيصب جام انتقامه وغضبه على الذين لم يصوتوا له، الناس التي تراها في الغالب ستنتخبه لا حباً به بل خشية من انتقامه سأضيف هنا شيئاً:

- تفضل

- لا شيء أفضِّل عدم الحديث

ثم يغمز بعينيه مشيراً إلى شخص كبير الأذنين وجه أذنه صوب الحديث، غادر دوغان المقهى متذرعاً برغبته في الذهاب للمبولة، زيلان لم تعرف رئيساً آخر غير أردوغان حيث شبت وكبرت على زمانه، رغم اهتمامها بالتاريخ على عكس دراستها للجيولوجيا إلا أنها لم تنخرط في أي حزب سياسي وترى في الامتناع عن التصويت أمرّ الحلول الممكنة فغالب الأحزاب قومية الطابع شوفينية التطلع عنصرية التوجه، هي نسخ مقلدة ورديئة عن الحزب الحاكم، وانسياق الكورد للمعارضة هدفه الوحيد إسقاط الرئيس وليس حباً بتلك الأحزاب المعارضة، إذ كل الأتراك بداخلهم وحش يميني فاشي يظهر بملامح أكثر الأتراك يسارية وتوقاً للأممية، هذا ما قالته التجارب عبر حقب زمنية قديمة ومعاصرة، لا حل في الأفق، تحاول زيلان ملء وقتها في المطالعة والذهاب للنادي الفني للاستماع للموسيقى، وكذلك تبحث عن عمل يقيها الحاجة كي لا تضطر لقبول المصروف الذي ترسله جدتها إليها كل شهر، تشعر بالهدوء والتصالح مع ذاتها أكثر حين تقرأ بلغتها الأم النتاجات

التي تنشر بالكردية والصادرة عن دور نشر تتأهب للحظة قرارٍ تعسفي بإغلاقها من قبل الحكومة، وأحياناً تستشعر قرب حدوث ما هو متوقع ومحتمل جداً.

تميل لتكرار التنفس العميق تلقائياً، عندما تمر من جانب دائرة أمنية أو مفرزة لشرطة، تتفحص المكان بعين سائحة وأخرى منقبة عن أشياء تبحث عنها باستمرار كتساؤلاتها العديدة التي تسبر لأجلها الأغوار نحو إجابات مقنعة وكافية، لطالما تعلقت روحها بفئات البسطاء ممن لا هم لها سوى ألا يجدوا أنفسهم غداً بلا عمل أو معيل، تشعر بحنق المحيط الذي يتأتأ بالتركية حين ترد عليهم بكردية فصيحة، تتلقى الآذان الخائفة لغة غير لغة الخوف فتقشعر، تشعر إحدى صديقاتها من خطر الاستمرار بمعاشرتها فتقول ممازحة لها:

- تحدثي التركية أي مثلنا نحن لا نفهمك.

فتضيف فتاة تعود جذورها لعائلة كردية متنفذة شاركت بقمع انتفاضة ديرسم.

- كفي عن التحدث بلهجة الإرهابيين.

فلا تستطيع الصمت فتجيبها:

- أنا كردية وأتحدث الكردية لقد ميزني الله بها كما ميز سائر الأعراق الأخرى بلغاتها، أنا لست إرهابية.

تخرج من تلك الفخاخ وملامحها تتحدث لغات الحنق كافة، بين حفنة من جموع العبيد تسير ويتربص بها شبح الخوف، فلا مكان للحر هنا، سوى الحذر من لطمة لا تُعرف من أي تأتي، الطقس بارد، الرياح ترتطم بالأعناق، تفرك الآذان الحمراء بقسوة، وترسم آثارها على الأنوف، تقف كعائق أمام أن يكمل الفاقد أهله بكائه على راحته، فالقلق يزين

الدواخل المنهكة وهي في ذروة صدمتها تتحسس الهدوء فتجده محتضراً بيكس فقد شهيته للطعام، ولم يعد يستطيع النوم كفاية ذلك أثر على فعاليته في العمل كقاطع تذاكر، على الأطراف غير المنكوبة من الزلزال كل شيء شبه طبيعي لا شكوى أو تذمر سوى من سحنات المهاجرين الذين ملئوا الأمكنة.

حين يتم حشر البشر واستخدامهم كسترات واقية أو فئران تجارب، ويصبحون طعماً في سنارة الحملات الانتخابية ليكون طردهم على رأس الوعود، تصبح القيمة الإنسانية بخسة كالليرة التركية في ميزان مضاربات سوق العملات، أن تفوز عليك أن تصبح فاشياً لأعلى مستوى، ثقافة السلطة في تركيا هي ذاتها ثقافة الشعب، كن أكثر عنصرية تنل أغلبية الأصوات، فكر بالإصلاح ستجد نفسك ميتاً في ظروف غامضة مع صديقك الإصلاحي تورك أوزال، في تلك البلاد لا قيمة للحريات وحقوق الإنسان.

التفكير في ظل الخوف صعب لاسيما أنه مكلف، لزيلان رغبة في العمل السياسي والنضال لأجل هويتها، لكنها متذمرة من سلوك الأحزاب وايديولوجياتها التي تقدم الثقافة الحزبية على القومية، وقد بات همُّ الأحزاب الكردية في شمال كوردستان أي جنوب شرق تركيا هو الحصول على الفتات وإقناع شراذم مؤيديها أن هذا الفتات والتشبث بتحقيقه والنضال لأجله والحصول عليه نصر عظيم، في نظر الكثيرين والكثيرات كزيلان أن تلك الأحزاب تم إخصاءها كما تم إخصاء الجماهير بالخوف من السجن أو التصفية بأبشع صورة، التوحش الطوراني أربك الفرائص وجعل الناس تفضل جني المال والعزوف عن التمسك بالكرديايتة وكوردستان والاكتفاء بدلاً من ذلك بمنافسة

الأتراك الأقحاح والإثبات لهم أنهم الأكثر تركية منهم إما خوفاً منهم أو نفاقاً لهم أو الاستماتة في محاولة تصديق أن الانتماء لغير العرق التركي القوي المسيطر والمتحضر بمثابة انتحار وهرولة إلى الوراء حيث التخلف والعيش في العصور البدائية القبلية.

وهي تعلم جيداً أن أمناء الأحزاب الكوردية في عموم الأجزاء الأربعة من كوردستان تفوقوا على الحكام العرب في ممارسة الخيانة وتطبيق مفهوم فرق تسد وتأليب بقايا المجتمع المريض على بعضه بعضاً، عبر زرع الشك والالتباس والتخوين وقيادة الحملات الإعلامية ضد بعضها بعضاً دون شعور بالخجل، حيث باتت النخب الثقافية الإبداعية تتسابق مع النخب السياسية في فتح الصندوق الأسود للحزب الذي تناهضه، كي تثبت تلك النخبة أنها توقظ الشعب من سباته وتمنعه من الوقوع دون أن تنشغل تلك النخبة المناهضة بالتفكير لو قليلاً بإيجاد الحلول والبدائل، أطباء في التشخيص، عباقرة في التحليل، منقبين ممتازين عن العثرات والكبوات والجرائم التي يمارسها ذلك الحزب أو ذاك بحق الشعب، لكنهم عاجزون عن إيجاد بديل مقتدر يمكنه تصحيح المسار.

وإن لم يوجد هذا البديل فإنهم كمن يقولون أيها الشعب القطيع اذهبوا وانتحروا خير لكم أن تنضموا لذلك الحزب وتظلوا ضحايا سياساته العميلة الخاطئة.

هذا المشهد الذي تقدمه بعض النخب المناهضة لسياسة بعض الأحزاب مفضلة أخرى أو مناهضة لها أيضا فتح المجال لبروز الاغتراب والاحباط والتشاؤم لدى الجيل الشاب في نفسها تتحدث:

- الأمم الضعيفة تنحو للحضيض والقوية تقتات على ضعفها وتبني

بنيتها الفوقية والتحتية من كد تلك الأمم وبقاءها دون قيادات ذات كاريزما.

لم تجد زيلان عملاً، راسلت الكثير من شركات التعدين دون فائدة، إنها تحتاج لوساطة فهذه البلد لا تعترف بالكفاءات إنما بالعلاقات، لا شيء يسير بطبيعية، وحده الذباب يطير بحرية على الأطعمة المكشوفة وذكور النحل الأصفر تحلق كالبط على الفواكه الناضجة للغاية والحلويات المباعة في الأسواق والحواري القديمة، تعود للشقة الصغيرة الواقعة قبالة حجرة العم أوسمان آمدي منهكة، وتتواصل مع المنظمات الإغاثية لإشباع حسها الإنساني المرهف في مساعدة العوائل المنكوبة المتضررة من الزلزال، يعود بيكس، تلتقيه مصادفة على الدرج يصعدان معاً يريان العم أوسمان واقفاً على باب بيته يرحبان به، يبادلهما السلام والابتسام، يستجيبان لرغبته المتتالية بالدخول لبيته، فيدخلان معاً، يصطدمان برائحة الحساء الساخن الذي يجيد صنعه العم أوسمان، فيقومان بإعداد الغداء فقد كانا جائعين، يكمل بيكس ما ينقص المائدة بإحضار الخضار من الماركيت الواقع قبالة المبنى، يصنع سلطة خضار فهو لا يحب تناول الحساء كثيراً، يجلسون معاً، يشعر العم أوسمان بجو العائلة الذي يفتقده لاسيما حين يتأمل بين فينة وأخرى صورة زوجته إيمو وولده الشهيد، يشعر بعودة الأيام الخوالي

زيلان تتأمله بين لقمة وأخرى كيف تتهاطل دمعاته وتتباطأ لتخرج من عينيه الزرقاوتين كأن خرزات زرقاء تتساقط منهما، بيكس يبدو جائعاً، يتناول سلطة الخضار مع وجبة الأرز التي جلبها من براد حجرته،مع توالي الأيام وكثرة الجلسات المطولة التي تتخللها أحياناً وصلات مواويل تكوي الأرواح وحوارات عميقة تذكي في دواخل بيكس وزيلان الأصالة

القومية المكسوة بوجع فقدان الهوية،باتوا أسرة واحدة تعيش في شقتين متقابلتين، شعرت زيلان بذلك تجاه بيكس كأخ صغير لها، وتجاه العم أوسمان كجد يحوي بذاكرته روحاً طبيعية عمادها الفن،خيّل لها أنها تقطن في سفارة كوردستانية، في جو كردي صاف لا تعكره شائبة، غاصت في بحر خيالها الرهيف ودخلت في عالم كل ما فيه حنين لزمن ميدي تليد لم يبق منه سوى تلك الآثار، الجو في الخارج يبدو مشمساً، الشمس تتدلى كحبل رفيع من سقف سماء عالية زرقاء، تجولت لوحدها في منطقة أييل، تبحث عن حكمة الأنبياء، لتتلقفها في نفسها، تتقنع بها كحرز يقيها من الشعور باليتم والتصافي مع الذات، تلك المنطقة تبعد عن قلب المدينة مسافة ٥٢ كيلو متراً، فمع انشغال الناس بأجواء الانتخابات، تذهب هي إلى هناك، تتأمل الأوابد الأثرية، تمارس الرياضة المائية هناك، وأصرت هذه المرة أن تأخذ بيكس والعم أوسمان لجولة عبر السفينة، هذا ضروري لبيكس الذي لا يزال يعيش صدمة فقدانه لأخته وولديها، هناك يمكن للروح أن تتشافى من عللها، بعيداً عن الناس وأجواء النفاق والكذب على طريقة اعتزال زرادشت للناس وذهابه للطبيعة، بيكس يزور منطقة أييل للمرة الأولى، شعر بالسلام والسكينة، ثم ذهبا إلى مطعم لتناول السمك، رائحة شواءه لا تفارق المعدة الفارغة

يروي العم أوسمان ذكرياته مع العائلة في قضاء سلوان، على جسر مالابادي رائحة أمجاد الأيوبيين تفوح في كل معلم أثري تشهد على الدور الكردي الجلي والبارز في العهد الإسلامي ، هناك عند قلعة زمبيل فروش يطيب للعم أوسمان أن يغني الأغنية عن بائع السلال وكلمات الأغنية تروي قصة محاولة إغواء أميرة لبائع السلال بعد أن وقعت بغرامه،

فاستدرجته حيلة للقصر إلى حجرتها وأخذت تراوده عن نفسه فأبى كونه ذو عفة وحسن تدين وخرج من المكان متذرعاً بقضاء حاجة فلم يجد مخرج نجاة فما كان منه سوى أن ألقى بنفسه من شرفة القصر لتنتهي حياته، يغنيها العم أوسمان ويتخلل الغناء وقفات عن تلك الحكاية المأساوية عن بائع فقير يعمل طوال النهار ليعيل زوجته وأطفاله الجياع والعراة،فضّل أن يرمي بنفسه من السطح على أن يخون زوجته وأولاده، تحاول الأميرة أن تثنيه عن الانتحار فلا تستطيع،فتلحقه منهية حياتها هي الأخرى، عينا زيلان الخضراوان تسترسلان في التأمل فتلمعان بتهيب الدموع واستعدادها للخروج لكنها لا تخرج بل ترطب الأحداق لتبدو في لمعان كأنما الندى على رؤوس العشب الأخضر، لا يحتاج العم أوسمان لأي آلة موسيقية ترافق غناؤه أو سرده للمواويل التي تتضمن قصة حدثت في الماضي أو ملحمة غنائية ذائعة الصيت يقول:

- الموسيقى يا أبناءي شريط يوثق الحزن الكردي منذ القدم، ويؤكد على مدى ارتباطنا بالحياة والطبيعة والقيم النبيلة التي جبلنا عليها نحن أبناء التربة الفيضية، فمن ملحمة دمدم إلى مأساة مم وزين ودرويش عفدي كما أن الوصف الجسدي للمرأة يدل على تلك الغزارة الفنية وجرأة الطرح التي يمتلكها الكردي الموهوب، فالطنبور يغرس بألحانه حب الأرض والارتباط بها أما البزق فيدعونا للانغماس في فهم الزمن العميق بدلالاته ورؤوانا المتداخلة بها والناي صوت الجبل، يروي ذود سكان زاغروس عن أنفسهم إزاء هجمات الطامعين والغزاة عبر التاريخ وكان الطبل والمزمار يدشنان قران الرجال بالنساء حيث تقرع أياماً وليال لتدشين صروح الحياة المشتركة، نحن الكورد المتربعين في جغرافيا جبلية غنية بالمياه جهة الغرب الأسيوي، فالمقامان الموسيقيان الكورد

والنهاوند خرجا حاسري الرأس من تربة آمن أناسها بالخير والحق والجمال.

فلولا الموسيقى لزالت آثارنا وانكمشت حياتنا أكثر فأكثر وضاعت، لطالما عرف أعداؤنا خطورة فننا فلاحقوا الفنانين وعذبوهم وساقوهم للسجن في كافة الأجزاء المغتصبة من كوردستان فلأجل الأغاني التراثية قضيت أكثر من نصف شبابي في السجون، عندئذ سكت أوسمان آمدي موجهاً نظره لأشجار السرو البعيدة، كأنه يبحث عن شيء قد توارى خلف تلك الأشجار، شعر بانقباض، سرى توتر وارتباك في وجهه، تغير لونه، وبهتت ابتسامته فجأة، تغيرت سحنة بيكس بتغيره، اكفهر وجه السماء، تساقط مطر غزير، وتدافعت جحافل البرق، دخل الجميع للمطعم وتوارى البعض داخل المظلات، هكذا تناغمت النفس المتعبة مع الطقس الذي انقلب فجأة، تلتهم نيران الذكريات روح أوسمان، تذكر زوجته التي لطالما تجول معها في الكثير من الأماكن، لم يعشق سواها، مضى أكثر من ٥٠ عاماً على زواجه بها، أحس كأن فقدانها هو أمس وليس قبل عشر سنوات ماتت حزناً وكمداً إثر استشهاد ابنها الوحيد وذهاب وإياب رجال الأمن واستجوابها على نحو مهين، وضرب زوجها على مرأى عينيها كونه طالب بجثة ولده أو معرفة بيد من، لم يعثروا على الجثة ولا القبر ولا المقبرة التي دفن فيها لا أخبار عن رفاته، سوى تأكيد وجزم بخبر استشهاده،الحزن وقف كحاجز عسكري من أكياس التراب في رواق الروح المنكسرة، الحزن يأكله، يلتهمه ويقذفه من مشهد لآخر ككرة قدم بين أقدام لاعبين مهرة، أحس أنه سيارة يقودها ثمل فيصدمها بالسيارات المارة الواحدة تلو الأخرى، فتتهشم أخيراً حين ارتطامها بمفترق الأوتستراد، حين يصل المرء الكهل لأرذل العمر يحيطه

واقع غريب لا ينتمي إليه، انتماؤه الأكيد للحياة التي مضت، وعزاؤه أن يجد جيلاً يحسن التصرف ويتجنب أكثر الأشياء التي كانت سبب تأخره عن الركب وسببت شقاءه،الأماكن مكتظة، اللافتات في كل مكان، صور المرشحين، كلماتهم، وعودهم، الناس في ذهاب وإياب، سيارات سوداء تلوح بالإعلام التركية، وتزّمر على طول الطريق في تتابع وتوال،أعلام لأحزاب متعددة، سباق وتناطح بين أنصار الحكومة والمعارضة، تراشق في الشتائم، شجارات فردية، مداهمات مستمرة للكورد بحجة تعاملهم مع حزب العمال الكوردستاني، مشهد من الخوف يلف شوارع آمد «ديار بكر» لا يشعر أوسمان بأي انتماء لهذا العصر، يحاول أن يهزم الموت بصوته الفتي وحنجرته التي لا تقر بالشيخوخة والاقتراب من الفناء، يقرر الغناء، كلماته الكردية مصدر إزعاج للقوميين على اختلاف اصطفافهم خلف المعارضة أو الحكومة، كلاهما ذات الرائحة الزنخة العفنة، توحش حتى الثمالة ورفض لوجود غير التركي يعيش على هذه الأرض.

- أغلق فمك أيها العجوز الخرف، وإلا أغلقناه لك بأحذيتنا!

يصيح بيكس بوجهه:

- احترم العجوز المسن إنه بعمر أبيك.

-خسئت أيها القذر أن يكون هذا الكوردي العبد نعل أبي.

وقبل أن يقوم بيكس برد الإهانة على العم أوسمان، يهجم عليه مجموعة من الفتيان الرافعين شعار الذئب بأصابعهم.

- ربوا هذا القذر.

يقوم أحدهم بسحبه من معطفه القطني، أين هويتك؟

- أنا كوردي من سوريا.

- وتتطاول علينا في بيتنا أيها الكلب!

تنهال عليه المجموعة ضرباً ولكماً تتدخل زيلان، تقوم امرأة انضمت إليهم بصفعها بشدة ودفعها للوراء:

- لا تتدخلي دعوهم يربونه.

- كوردي قذر وفوق ذلك سوري مهاجر.

قاموا بلكمه وسحله وجره من شعره، توقفوا عن ذلك بعد أن تأكدوا أنه قد أغمي عليه، فلم تجد زيلان والعم أوسمان سوى سيارة أحد الذين شاهدوا ما حدث فتطوع لنقلهم للبيت وليس المشفى عبر سيارته، حيث نصحهم بعدم أخذه للمشفى فقد يعيدونه لسوريا، أو يسجنونه ويوجهون له تهمة الإرهاب، طيلة الوقت الذي قضياه في السيارة للعودة إلى البيت قضاها العم أوسمان بالصمت والغضب، بينما واصلت زيلان البكاء.

- أخي حبيبي سلامتك ماذا أفعل ياربي، أين أذهب.

ذهبت لعيادة طبيب مختص بالكسور، وكان على وشك أن يغلق، تعامل مع الوضع بإيجابية، الطبيب ميران طبيب شاب تخرج من كلية الطب حديثاً، صدم حينما رأى بيكس على هذه الحالة، أدخله للعيادة

- من فضلكم اجلسوا في الخارج، سأفعل ما بوسعي.

- حسناً.

لقد تعرض بيكس لضرب شديد ولحسن حظه فإن الضربات ملئت جسمه

رضوضاً وتورمات في الوجه لكن لم يُكسر له ضلع أو ساق أو ذراع، حيث لم تك هنالك أدوات حادة قد استخدمت سوى لكمات جاءته تباعاً من كل جهة و سببت له إغماء، قام الطبيب بتعقيم الجروح ولف

ركبته اليمنى وذراعه اليسرى برباط وقام بوضع لاصقات للجرح تحت عينيه وخده.

- حمد لله على سلامته، سيتعافى قريباً، بإمكانكم أخذه للبيت، سآتي كل فترة لأكشف عن جرحه وأقوم بتبديل الضماد.

قالت زيلان بتألم:

- لا أعرف كيف أشكرك، ممتنة لحضرتك.

أضاف العم أوسمان: شكرا بني.

أجاب الطبيب:

- إنه واجبي فنحن كورد

الألم يضغط كامل جسمه، لكن ألم النفس أعظم، فعلى طول هذه الرقعة من جحيم يسمى بالوطن يُضرب الإنسان على الهوية، وتحسب على أنفاسه فاتورة يجب دفعها من طمأنينته، الاستقرار والأمان بدا حلما بالنسبة لبيكس، أصر العم أوسمان بأن يبقى في بيته ليتداوى فنقله إلى غرفة ابنه ليتمدد على سريره الخالي منذ أن ودع البيت للأبد.

يشعر بخدر وألم جراء ضيق التنفس، زيلان تراقبه بين لحظة وأخرى، وميران يأتي بين فترة وأخرى لتبديل ضماده، نظرات دافئة تبادلانها، كانت تشعرانهما بشيء مريح وسط غمامة الانتخابات وسحبها الرمادية العجاف، زيلان تحدثه عن بيكس وهو بطيء في الإجابة ويكاد يقع في سهوه حين يتأمل عينيها الخضراوين، تقع روحه على حقول نضرة مشعة لم يجد لها مثيلاً في جزيرة بوطان كلها، هو من هناك لكنه أحب آمد ووجد فيها عيادة بسهولة وبمساعدة معارفه وأصدقاءه.

ميران شاب في منتصف العقد الثالث من عمره،طويل القامة يتمتع ببنية جسدية رياضية، ووجه بيضوي، وجبهة عريضة ورقبة متوسطة

الطول وأنف معتدل الحجم بارز للأعلى نسبياً، إلى جانب تمتعه بعينين سوداوين حادتين وبشرة حنطية، مولع بالمطالعة ومحب للفن إلى جانب مهنته كطبيب

لقد شعر بما لم يشعر به حين التقت عيناه بعيني زيلان ودموعها المتساقطة وسط مشهد درامي مأساوي لا يخلو من الصدمة والشعور بالخوف، شعور ممي آلان المتنكر انتابه وهو يسقط أرضاً عند تعثره بزين في احتفال نوروز، إذ لطالما يفخر ميران بأنه ابن جزيرة بوطان قبلة العشق ودوحة العشاق الأحرار ممن إن أحبوا أخلصوا وعاندوا الدنيا لأجل من يحبون، لقد جمع في شخصه بين مهنة الطب وحب الآداب والفنون بل وامتهانه للشعر وعشقه للشعراء المتصوفة فحين يستمع للأغاني وينصت للمواويل وصوت الناي يغيب عن المكان روحاً ويحلق في الماضي البعيد ويتعمق بحسه المرهف في الملاحم الكردية القديمة وقصص الحب، يشعر أنه واحد مجهول في كل ملحمة خرجت من كوردستان، لم يجرب العشق ولم يحس بمرحلة النزاع الروحي إلا وقت صادف زيلان التي هي الأخرى بعد أن اطمأنت على سلامة بيكس راحت تتمدد على سريرها مبتسمة مغمضة العينين في حالة من شرود، كأن ألف ملاك يدخلون صدرها على وقع طبول النبض ومزامير الآهات، الملائكة الألف كلهم يحملون وجه ميران ويمتشقون وسامته سيفاً وصوته غمداً، التقى القرينان الروحيان والتقت معهما حيوات كل العشاق الأسلاف، امتلأت زيلان بضحكته كأنها وعاء ما يبثه من عواطف وخيبات، وجلست تنتظره حتى يغير من الضماد وتكون لها فرصة في الجلوس معه وشرب فنجان قهوة تعادل الدنيا وما فيها من حوادث وصعوبات، وما إن انتهى من عمله، مبتسماً على عجل لبيكس

وطمأنه وعينه بالكاد عليه:

- معافى صديقي، أيام قليلة وستعود طبيعياً وستخف هذه الرضوض والكدمات.

- سأنتظر أياماً أخرى!؟

تذكر بيكس والديه راح يتفقد هاتفه : وردته عدة مكالمات لم يجب عليها على الواتسآب وكذلك ماسنجر الفيسبوك والانستغرام راح يتصل بوالدته، كأن والدته ملتصقة بالجوال، ردت على الفور:

- بني أين أنت، منذ أيام وجوالك مغلق، خيراً طمئنا لم ندخر وسيلة إلا واتبعناها كي نهتدي إليك.

- لا تقلقي أمي كنت متعباً

- هل أنت مريض

-نعم قليلاً

- سلامتك ألف سلامة يا رب

- كيف حال أبي

-إنه مشتاق، خذه يريد الحديث معك

- اعطني إياه

- مرحبا بني كيف حالك أنت بخير، لماذا كل هذا الغياب وأنت تعلم صعوبة الحياة وقلقنا عليك، حرام عليك كان يجب ألا تثير قلقنا بهذا الشكل، ظننا أن مصيبة حدثت ولفظتك.

- لا أبي الحمد لله لم يحدث شيء مجرد تعب، نتيجة ضغط العمل ربما

- بكل الأحوال أحمد الله على سلامتك لم يتبقى لنا سواك بني

-حافظ على نفسك وانتبه عليها.

- هل من أخبار عن صهرك وابنته

- لا سأحدثهم بعد قليل، أبي صهرنا يتصل سأرد عليه، نتحدث لاحقاً
- حسناً مع السلامة

ميران تسلل من الغرفة تاركاً بيكس يجري اتصالاته، توجه لغرفة الجلوس، كان العم أوسمان وزيلان جالسين، تلقف كل منهم قهوته

- قهوتك رائعة لم أذق مثلها إلا من يد أمي
- شكراً يسعدني أنها راقت لك

أضاف العم أوسمان :

- بارك الله بكما.

أحست زيلان بالخجل راحت ترمق ميران بنظراتها الخجلة

- هل تعملين
- ليس بعد أحاول إيجاد عمل لكن كما تعلم فهنالك صعوبة
- نعم ليس سهلاً إيجاد وظيفة بعد التخرج، الكثيرون ينتظرون بلا جدوى
- يرجحون قلة الوظائف بسبب كثرة اللاجئين
- ليست هذه المشكلة بالضبط وإنما الاقتصاد المتدهور، ما يزال تفكير التركي

منصباً في الحرب فالدولة التركية في عهد أردوغان وعلى غرار إيران تتوسع والكردي بطبيعة الحال يحلم أن يكون مواطن درجة ثانية في بلاد لا تقر إلا بوجود عرق واحد مهيمن وهو التركي .

العم أوسمان يتابع الحديث فيتدخل:

- عليكم ألا تيأسوا وأن تنتصروا لهويتكم، في التاريخ ثمة العديد من الممالك والامبراطوريات المستبدة دامت لقرون وفي النهاية سقطت، البعض منها اندثر للأبد والبعض بقي لكن ليس قوياً كما كان والمثال

على ذلك إيطاليا واليونان، الامبراطوريات التي حكمت منطقتنا كاملاً واستعبدتنا وأعني الأشوريين لم يبقى منهم في الوقت الحالي إلا بضع مئات، حضارة رائدة كالسريانية كانت لفترات طويلة هي السائدة، الآن السريان أقلية بسبب الاضطهاد الذي لقيوه وهجرتهم من أماكنهم إلى البعيد بحثاً عن الأمان، لا تيأسوا فأملي بالجيل القادم كبير، أنا لا أبيعكم آمالاً وتفاؤلاً فضفاضاً، إنما أريد أن أقول لكم أن الحياة تتغير وخيارنا الأكيد هو أن نحمي ما لدينا ما أمكن وأن ننقل هذه الأمانة لأجيالنا القادمة، كل طغيان سينهار مهما امتد به الزمن، كل دولة استبدادية سيلتف حبل مشنقتها على عنقها وتختنق، لا شيء يبقى على حاله وكوردستان ستشاد انظروا لما يفعله الطورانيون حين يقومون بنقل الكراهية وعداء الكورد إلى أبناءهم، ينقلون خوفهم منا، يروننا سبباً ومصدراً لتفككهم في الغد غير المنظور لذا لا يجدون سوى الكراهية والاستعداد للتنازع وسيلة لأنهم فهموا أنه طالما ثمة مواطن في هذه الدولة يقول لهم لست تركياً فإن البلاد في خطر، بنيت هذه العقلية على شكل سيضعها ويضع الأجيال القادمة في مأزق، لا شيء غير العنصرية والقهر، لا شيء سوى العيش في التاريخ والماضي، لكي يدفع الأجيال ضريبة أخطاء وحماقات الأسلاف، ووفق ذلك نجد أن الديمقراطية كذبة لا أساس لها فصناديق الانتخابات لعبة بيد الساسة والأصوات تذهب لمن يتقن الخطاب الشعبوي الشوفيني وفي جعبة كل من سيصل للسلطة وعوداً وتوعدات

- صدقت يا عم هل ترجح كفة أحد من المنافسين

- لا فرق بينهما كلاهما هلاك إلا أن أردوغان فاق أتاتورك نفسه في ربطه للتركية والإسلام ووضعهما في كفتي ميزان يدعم مسيرته في ذلك حزب

الحركة القومية وذيله الضعيف البائس حزب هدى بار، أما الحزب الجمهوري ومن لف لفها فلم يعد لا هو ولا حلفائه الذين تحلقوا معه حول تلك الطاولة مقنعين في الحقيقة للجمهور، ربما ينتزع الجمهوريون السلطة يوماً عن طريق انقلاب وهذا ليس ممكناً في الوقت الراهن، بيد أن أردوغان باقٍ كرئيس ما دام على قيد الحياة.

خرجا معاً من البيت بعد حوار جذب روحيهما للتفاؤل والشعور بالصفاء رغم سلبية الأجواء، أكملا تهامسهما وهما يمشيان، يخرجان من المبنى ليدخلا رواقاً ضيقاً يفضي لسوق شعبي خرجا منه إلى حديقة شبه هادئة سوى من أطفال يلهون ويتأرجحون على المراجيح

تنهدت زيلان بعد طول تأمل قائلة:

- الهويات أعباء يتم تحميلها فوق ظهورنا لنضعها بالتالي على ظهور الجيل الآتي، إلى متى سيستمر هذا السيناريو المنغلق على نفسه

- انهم بحاجة لذلك فالتفكير القومي يعني الاحتكار، وحاجة أرباب المال إليه كحاجتهم للدين هما بالتالي وسيلتين للتحكم وإكمال مسيرة الآباء والأجداد، لو استفتيت الآن الكورد وقلت لهم ماذا تفضل كوردستان أم البقاء مواطناً تركياً ستجدين النتيجة النصف أو ربما الأكثر ممن انصهروا تدريجياً يؤيد البقاء في ظل تركيا ونسبة متضررة ذاقت الويل تقول لك أريد كوردستان، إن الخيار الأول يتأتى عن مصالح ومنافع يحققها ذلك الرافض للاستقلال ومصادر تلك المنافع مادية، وأنت تعلمين أن نداء المصالح المادية قوي ومؤثر،فلن يؤيد قيام كوردستان مهددة ممن حولها.

وقد يهاجم كل من يؤيد ذلك، من يقوم بتغذية الروح القومية هدفه حماية تلك المصالح،فالمنافع هي التي تصنع الاتجاهات والانتماءات

- لكن أليس ظلماً رد القومية كلها أو جلها للعامل المادي ألى يقف العامل النفسي المتعلق بالظلم وراء تشبثنا بالحق القومي.

- إن العامل النفسي أو مفهوم الحق يدخل أيضا في بند الحفاظ على الأرض والموارد وهذه الأشياء مادية ودافع الظلم ناتج عن فئة تريد احتكار وأخذ هذا الحق منك.

- اذن الدافع النفسي هو نتاج خوف من ضياع المادي.

استغرق زيلان وميران في صمت عميق فروح الانشداه والحديث الغفير دام بينهما وقتاً أحسا فيه أنهما قد التقيا قبلاً في هذه الأماكن، أو كأنهما موعودان بهذه الأيام، هذا الحادث الذي أسفر عن إصابة بيكس وتوليه معالجته في عيادته ومن ثم في بيت العم أوسمان، جعلهما يشعران بأن الألم هو دافع ممتاز لذلك الاتحاد والتعاطف الرزين، راح كل منهما يتحدث في نفسه عن لغز التعلق، وهما في تمام الحرص على ألا ير أحد منهما كيف ينظر للآخر، وقد اعتبر ذلك من أجمل المحاورات فالعيون كانت تنقل لهما فحوى ذلك الكلام الذي لا يشبه أي حديث وقد أحدث ذلك الصمت نوعاً من الشعور بالأمان، فقد جالا الكثير من الأماكن، وراحت نبضاتهما تجول في الآفاق كعصافير تعانق أديم الغيوم وتحاول الوصول إلى ذلك القمر الذي أسدل جفنيه في ذلك النهار ما قبل قدوم الغروب راحت الطبيعة تتناغم مع ذلك النبض الخافت والمتقد في آن والذي يشير لبوادر تعلق غريب ومريح ويقترب من عالم الحب الخالي من كل سذاجة أو نزوة عابرة، وما كان يشد ميران في زيلان أنها انعكاس لضوء روحه وتطلعاته، ذلك الهدوء الذي تتمايز فيه عن أي أخرى عرفها ميران عن قرب أو بعد، إذ أن انسجام الجسد الأنثوي بهذا الاتزان الفكري يدفع الرجل للشعور بالهالة الروحية على هيئة تجسيم

الطبيعة الساحرة، يشده ذلك الصمت الغامض وذلك الخضار المشع يأخذانه لعالم بلا قوانين بشرية وفيزيائية لأرض بلا جاذبية كالفضاء تمارس فيه الكوائن التحليق على قدم المساواة، حين ينظر إليها دون أن تشعر بنظراته تصبح لدمعاته رؤوس وأعين تطل من أحداقه لتدمع هي الأخرى دون أن تنسدل خارج مساحة العين ممتثلة للكبرياء ولحداثة التعارف فيما بينهما

وتصبح زيلان مطواعة تتبع قلبها كما يتبع حمار جزرة والقلب حيوان ودود حزين يعارك العقل بما أوتي من قوة ولا يأبه سوى لشيء كالحرية ثمين يسمى الحب،لم تشعر قبلاً بهذا الإحساس وتخشى الإفراط به حين تغامر وتبوح به لهذا فإنها تدخر لمن يحوزها،طاقات عشق بثقل أكياس القمح والشعير المصفوفة فوق بعضها البعض في مواسم الحصاد

الناس خارج العشق متقنعة بفلسفة اللامبالاة فهي عارفة بأنها لن تستطيع تغيير شيء، والنخب المدركة الواعية تمارس حياتها على هذا النحو وتتفادى أي حديث يتعلق بالتغيير والإصلاح أو الثورة، فقد باتت هذه الدعاوي مجرد عقاقير مخدرة منتهية الصلاحية والتأقلم مع شروط الحياة الراهنة خير وسيلة لعيش اللحظة دون أن تكلف غصة إضافية تنضم لكرنفال الهموم المتداولة.

يتحدث ميران لها عن ضرورة تحقيق التوازن فالإفراط في اللامبالاة تشويه لنظامها، يؤرقه واقع بائس محفوف بالمخاطر، وتزيده أوهام المواطنة والوطن، مازال همّ الخروج من البلاد يؤرقه، فالأعين لا تكف عن مراقبته، ونشاطه الصحفي إلى جانب عمله كطبيب يؤرق الكثيرين ممن تطوعوا ليكونوا جواسيساً للدولة مقابل بضع قروش ومسحة

رأس أشبه برضا الصياد عن رشاقة وسرعة كلبه السلوقي .

- طبيعة النظام القومي العسكري في البلاد هي بطبيعة الحال جزء من منظومات مجاورة تتسم بخوفها من تطاول الشعب وخوف الشعب منها، فالخوف من الاعتقال والفوضى في الحالتين هلاك

تجيبه:

- لا يمكن إحداث توازن في بلد كتركيا، بالنسبة لمن لا حول لهم أو قوة ينبغي أن يدركوا أن القشة محال أن تواجه العاصفة وكذلك فالسفينة لا تواجه قوة الأمواج المتلاطمة التي تدفعها للتأرجح والانقلاب.

بيكس يستعيد عافيته ويود الخروج من هذه البلاد والسؤال إلى أين، بعد فوز الحزب الحاكم مجدداً بات الوضع أسوأ، الناس التي جددت أصواتها المؤيدة له فضلت الجوع ولثم الوعود بتحسين الحال على أن تصوت للكماليين، وانقسمت ما بينهما.

طيلة رقوده على السرير راح يفكر ويعيد قراءة تلك الأوراق التي عثر عليها تحت الركام، نجوى عاشق متعب وآثار احتراقات بقيت شاهدة على جثة مجهولة يحن لواشوكاني معقل الميديين وقد باتت اليوم في أيد مرتزقة تركيا، باتت بيوتها نهباً لشذاذ الآفاق هكذا راح يختلط أنينه الجسدي بالنفسي، أحس أنه في سجن ضمن سجون على هيئة تجاويف بصلة كبيرة، شعر بطوق حول رقبته وعنقه، يجعله يختنق.

التعب يخر كالدلف من أسقف الملامح الخائرة، الخارجون من المعتقلات السياسية يحزمون أمتعتهم ويهمون بالهرب من بلادهم الأشبه بسجن كبير، والذين يفدون للقارة العجوز يعملون أي شيء، يجمعون النفايات داخل القطارات، علب بيبسي كولا والمياه المعدنية، أي شيء، أو يعملون حراساً على الحمامات الواقعة في الكراجات

وأنفاق القطارات أو بعض المتاجر الكبيرة ودور المشردين، فقط كي يوفروا حظوظاً أفضل للاستقرار في المكان الجديد، القلق ينشر غازاته الكريهة في كل رواق، مقهى أو زاوية أو شارع، الجوع يفتك بمن لا عمل لهم، أخبار عن تشديد المنافذ الحدودية منعاً من تسلل المهاجرين أو مجموعاتهم عبرها، بيكس يفكر في الهجرة، الخيارات لديه تضيق، الواقع سلبي للغاية، ابنة أخته لا تزال راقدة في الفراش، يواصل والدها التفكير بإخراجها من هناك لمكان تتداوى فيه، يذهب للسفارة الألمانية، أملاً في الحصول على تأشيرة سفر علاجية ، بيكس رأى في ذلك فرصة لمرافقة ابنة أخته وبإمكانها بعد ذلك طلب والدها عن طريق لم الشمل، هذه الأماني الممكن تحقيقها خلقت لبيكس الأمل، وقد تمكنوا أخيراً من الحصول على موعد، أحد الأطباء وكونه تخرج من إحدى جامعات ألمانيا قبل عودته لبلده وكونه على معرفة ميران عن طريق صلة عائلية قديمة جمعت كلا والدي الطبيبين ببعضهما أيام كانا يتخفيان عن العسكر كي لا يلتحقا بالجندية، لقد شعر بيكس ببارقة أمل في أنه قادر على الخروج من هذا الجحيم،تمكنا من التنسيق مع المشفى الألماني في ميونيخ وقد سهّل مهمة موافقة السفارة على إخراج الفتاة الصغيرة على أن يكون بيكس مرافقاً لها في السفر، لقد شعر أن الكوة التي في السجن اتسعت شيئاً فشيئاً وتحول المربع الجداري إلى مستطيل استطال بسرعة حتى لم يعد الجدار المطل على مدخل السجن العظيم موجوداً ، زيلان وميران شعروا بالبهجة أنهم استطاعوا مساعدة بيكس والتخفيف عنه وعن ابنة أخته التي تحتاج لعملية عاجلة لرأسها جراء إصابتها أثناء الزلزال، أيام معدودة ويسافر معها،عله يبدأ حياته الجديدة، تاركاً خلفه الألم والمرارة، مدينته المنكوبة، والداه، وذكرياته

مع أخته التي لقيت حتفها مع ولديها في زلزال دمر ما تدمر مسبقاً.
مرت تلك الأيام بيسر، العم أوسمان، زيلان، ميران برفقة بيكس والصغيرة المريضة ووالدها معاً إلى مطار استانبول الدولي
العم اوسمان بعين تمتلئان دموعاً:
- ليكن الله في عونكما، أتمنى لكما السعادة والهناء، عساها تكون بداية جيدة لك يا بني، قدرنا ككورد أن نختار إحدى غربتين، لعل الغربة الأخرى تكون أخف وطأة من الأولى.
- أتمنى لك العمر المديد والصحة يا عمي
انحنى يقبّل يده، فلم يسمح له بتقبيلها
- حماك الله يا بني
زيلان تقدمت، عانقته، بعين دامعة:
- انتبه لنفسك ولابنة أختك نيركز
- هي روح أختي الباقية بالتأكيد سأكون لها ما أستطيعه
صافح ميران:
- لا أعرف كيف أشكرك، أنت طبيب نبيل وقبل ذلك إنسان شهم
- واجبنا فنحن كورد وبأمس الحاجة للتعاطف والتعاضد في ظروفنا هذه
اقترب ليحضن صهره:
- ابنتي في أمانتك هي كل ما تبقى لي، بعد فقدي لعائلتي
لم يستطع أن يمسك نفسه فاستسلم لنوبة بكاء.
بكت ابنته أيضاً اقترب ليحضنها:
- .لن أتأخر يا حبيبتي سآتي، خالك سيكون برفقتك وسيعتني بك.

عندها افترقوا بيكس ونيركز ذهبا مسرعين باتجاه المصعد المتوجه لمكان تفتيش الحقائب والمضي باتجاه الطائرة المتوجهة لمدينة ميونخ الألمانية أما ميران زيلان والعم أوسمان ووالد نيركز فقد خرجوا من المطار حيث استقلوا سيارة أجرة، انطلقت بهم لكراج الباصات.

في المطار راحت أعين رجال الأمن تتسرب في كل مسام من جسد الذين ينوون مغادرة البلاد لألمانيا بمعزل عن وسيلة السفر، اقترب رجل الأمن ذو الكرش الممتلئ كقبة مسجد، راح يحملق فيه بنظراته الجاحظة مستخدماً تقنية الترهيب والرعب، مرت لحظات الخوف كأنها دهر بالنسبة لبيكس، مروراً بنقطة تفتيش الحقائب، عبر تقنية التصوير المقطعي المحوسب لفحص الأمتعة بشكل ثلاثي الأبعاد عند مغادرته نقطة التفتيش والكشف وبعد أسئلة عديدة سمحوا له بالمرور لجناح المغادرة لانتظار الطائرة التي ستقل المتوجهين لألمانيا، تنفس الصعداء وما ان ارتفعت الطائرة للأعلى حتى شعر برغبة الطائر في الخروج من القفص نحو السماء الزرقاء والغيوم البيضاء مثل الوسائد الناصعة المطرزة بإتقان، أحس أنه طائر لا يشبه الطيور، مد جناحي روحه برفقة نيركز المبتسمة رغم شحوب وجهها.

يعانق الأعلى محاولاً كسر أقفاص التعلق و تخطي الجغرافيا الملعونة والتاريخ اللعين والهوية المفقودة متسلحاً بالطفولة وانعدام وعيه بكل ما من شأنه الحد من النزوع للإنسانية وممارسة الكينونة بكل ما أوتي من لامبالاة.

هكذا أراد وتمنى لكنه اصطدم بغتة بصخرة الحنين لمدينته سرى كانيه أو ما يعرف تعريباً برأس العين، قاطعت جموحه نبرة أمه الحزينة وأبيه المتوجع على فقدان كل ما يعد سبباً للحياة الآمنة، حل اليأس عليه مستولياً على استرخاءه.

الغد تابوت يأوي جثة الماضي ويمضي كحاضر أتخمه الثمل،الحب سرطان لا يميت ولا يحيي ويتغذى من خبز الشرق وماءه، كل العواطف ترتدي عُقداً موجعة في كوامن الداخل تدخل حرم التغرب والتنقل من منفى لآخر، لقد ترعرع بيكس لوحده آخذاً العزلة من مدينته المرمية على الحدود الملغومة والتي يتمترس خلف سكتها حرس الحدود المتقنعين بسحناتهم المسعورة كأنهم أشباح لحيوانات مفترسة بائدة وظلال لكوابيس ترابض على عتبات المدن والقرى الواقفة هامشاً على سطور التضاريس.

تحلق به الطائرة، فلا يلتفت لا يمنة أو يسرة سوى يده التي تتحسس خد نيركز وذراعه التي تحضنها بأسى وأمل خافت.

آذارٌ دامٍ

جنديرس -

20.03.2023

نسائم آذار تمكنت من أنفاس فرحان فتسربت لكوامنه، جعلته في حالة من هياج وشجن، سيشعلها ناراً بوجه الظلام، ضارباً بالحظر الذي فرضته عناصر البلطجة، « ثورجية آخر الزمان» عرض الحائط، أمام قدوم نوروز تنحني الرؤوس إجلالاً وفق تعبير دار في ذهنه، فغداً يحين اليوم الجديد المحتفل به منذ سنة ٦١٢ قبل الميلاد،هذه النار التي تكونت من نسائم آذار العليلة اشتعلت بداخله، أحالت خوفه إلى هراء، قال في نفسه : «سنحتفل بنوروز هذا العام حتى لو أمطرت السماء نيراناً وحجارة

هرع إلى أخويه نظمي ومحمد:

- أخواي تعالوا نوقد نارنا ولا تنسوا الدعاء وأنتم تبتهجون أن يكون هذا النوروز بداية النهاية لهؤلاء المرتزقة والذين يقفون وراءهم،خسأ الذين اعتقدوا أنهم استطاعوا إسكاتنا ووأد عيدنا

تحدث نظمي بخشية وتوجس:

- أخشى أن يحل مكروه ما إن ذهبنا هذا المذهب إنهم ينتظرون ذريعة لإيذائنا

- وهل قلت أني سأشعل النار فيهم، أريد إشعال النار قرب بيتي من له عندي شيء .

أضاف محمد:

- كعادتك نظمي تهول الأمر، لقد أخذوا منا كل شيء بيتنا أملاكنا وفي كل فترة يجمعون منا الأتاوة، لا حق لهم أن يمنعوا عنا رغبتنا في الاحتفال.

رد نظمي:

- كما تشاؤون لقد قلت لكم ما أحسه فقط، تتذكر فرحان أنك بمجرد أن طالبت باسترداد بيتك الذي استولوا عليه بعد غزوهم لعفرين قاموا باعتقالك ليومين، وأوسعوك ضرباً

- لا داعي لتذكيري لقد فعلوا ما فعلوه لكني لم أتنازل عن بيتي كما أني سأشعل النار ولن أطفأها، لا أخشاهم مهما فعلوا، إنهم ليسوا أكثر من جبناء

أثناء تجوال بعض من عناصر ما يسمى جيش الشرقية شموا رائحة دولاب يحترق،حيث راحت ألسنة الدخان ترتفع، راح حسن الضبع ينظر لجهة الدخان المنبعث فتبع جهة الاشتعال برشاقة كلب الصيد، تبعه صديقه الديري علي خلف

- رويدك ما بك تسرع الخطا

- المجوس يريدون الاحتفال بنوروز مجدداً، وقد اشتقت لإهراق دمهم القذر، لعمري أن ذبحهم حلال

- توقف لا نستطيع التصرف من تلقاء أنفسنا قبل أن نعلم القيادة أولاً.

- لا داعي لذلك اننا مفوضون للنيل من كل من تسول نفسه النيل من هيبة جيش الشرقية، لنمضي في الأمر ولا تكن جباناً.

- سيتخذون بحقنا إجراء أنا لست مستعداً لذلك.

- غبي أقصى ما يمكنهم نقلنا لكتيبة أخرى هذه ليست أول مرة نقدم على ذلك دون الرجوع لأحد.

- حسناً.

- لنر إلى أين سيصل بهم تحدينا لقد جنوا على أنفسهم.

لم ينس حسن الضبع صديقه وأخيه في الجهاد أيام كان ضمن صفوف تنظيم داعش «العكال» كيف تم اغتياله من قبل مسيَّرة أمريكية بتاريخ السابع من كانون الأول سنة ٢٠٢٢

حيث كان العكال على متن دراجة نارية وقد تم قتله في إحدى شوارع جنديرس، ماهر العكال كان متزعماً لشبكات تنظيم داعش في سوريا، وقد قدم إلى عفرين من منطقة كري سبي المعربة باسم تل أبيض، لقد كان حسن يؤمن أن كل التنظيمات الدينية تقاتل لهدف واحد وهو إقامة دولة الخلافة الإسلامية، فقد شب منذ كان طفلاً في كنف الجهاديين وله صلات طيبة مع جماعة الجولاني إذ لطالما أراد أن يكون واحداً منهم، إلا أن التنظيم قد انحسر واضطر مع آخرين

. لحلق ذقنه والانضمام لهذه الفصائل متعددة الولاءات

لم تتحقق رغبته في أن يعلن كل من الجولاني وأبو بكر البغدادي التوحد، وبعد موت البغدادي ازداد غيظاً ونقمة على كل كوردي واعتبر نفسه الموكل في القصاص منهم كونهم رأس حربة أمريكا في قتال الجهاديين عملاً بآية قرآنية فحواها «وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة» لقد ساهم الحسن ورفاقه قبلاً بإعدام شابين كورديين ومنع أهلهم من رؤيتهم أو حتى دفنهم،تقدمت العناصر باتجاه النار المشتعلة.

صاح علي خلف:

- قوموا بإطفاء هذه النار وإلا جعلناها أكثر أواراً واشتعالاً بأجسادكم أيها الخنازير.

توارى الطفل محمد وراء نظمي وتقدم فرحان صوب الضبع قائلاً:

- وأي ضرر تلقونه من تلك النار، إنها تعبير عن العيد، ثم أننا في بيوتنا والنار قربها.

- ممنوع إضرام النار إن لم تطفئها فستموتون كلكم
- وبأي حق تقول لي أطفئها، لن نفعل ذلك وافعلوا ما بدا لكم
صرخ حسن الضبع:
- أطلقوا النار.

أطلق العناصر معاً وابلاً من الرصاص، استقرت عشر رصاصات لوحدها في كامل جسد فرحان وأخرى على نظمي ومحمد وطفل آخر كان ماراً مصادفة قتله فضوله في معرفة ما يجري من شجار.

ولولت شقيقة فرحان بعد أن سمعت أصوات الرصاص وخرجت تصيح وأنفاسها، تلهث من الصدمة والرعب أشقائها جثث هامدة،أصوات الرصاص والجثث الملقية هنا وهناك جعلت كل الناس تتجمع حيث ساعدت في حمل الجثث على وجه السرعة ونقلها في سيارة كبيرة متوجهة للمشفى،قام بعض العناصر بتطويق المشفى الذي تم إدخال الجثث إليه، لم يتورعوا في مهاجمة السكان المتجمهرين،أطلقوا الرصاص للأعلى عسى يسيطر خوف الجماهير على غضبها لكن ذلك بدا محاولة يائسة في ضبط هذه الفورة البائسة، إبادة عائلة بسبب شعلة نار، جعل الحنق سيد تلك الحناجر المدوية والتي راحت تعبر عن ذلك القهر المتراكم، نسوة رصعن رؤوسهن بأغصان الزيتون ناشدن البارزاني والعالم لوضع حد لهذه الانتهاكات والجرائم مطالبات الأمم المتحدة بحماية دولية، نظر أحد قادة الفصائل إليها متعمداً السخرية منها بجحوظ عين وابتسامة ما لبثت أن تحولت لضحكة لم يستطع إيقافها أحدثت هزة ارتدادية في كرشه على مقياس الضحك الذي تجاوز الوقاحة مسافة فرسخ، قال لزملاءه الضاحكين مثله:

!تريد حماية دولية، اسمعوا واضحكوا من قلوبكم، لتتحرك كروشكم

- إنه أمر

علت الضحكات إلى جانب الغضب الذي تحول لبكاء البعض وفقدان البعض الآخر الرغبة في الحديث.

- ماذا حدث بالضبط يا قوم.

- لقد أشعلوا النار وقام بعض شبابنا بإطلاق النار عليهم والتبول على نارهم.

المرأة الغاضبة بوجه الكاميرا والمذيع الذي راح يسمعها معطياً لها الوقت للتنفيس عن قهرها، طالبت بإخراج الفصائل من عفرين ونواحيها وتشكيل إدارة يديرها سكان المنطقة، جعل من أحد قادة العناصر يرعد ويزبد

- أثمة من رجل بينكم يطفأ نار تلك المرأة الشبقة.

واستمر بالضحك لدقائق وردد بقية العناصر صدى ضحكته كأنهم كورس كامل

منصات التواصل الاجتماعي تضج بتوابع مؤيدي ما يعرف بالثوار يقومون بتزكية الانتفاضة الصغيرة بعد تلك المجزرة التي ارتكبها عناصر جيش الشرقية،وردد بعض الممثلين كعبد الحكيم قطيفان مقولات مفادها أن هذه التصرفات لا تمثل الثورة السورية ومبادئها، بدأ بعض من الناس يتساءل لماذا لم يقوموا بذلك قبل الآن وكأن القتل في يوم نوروز لا يشبه القتل في الأيام الأخرى، فسرها البعض أنه ضوء أخضر من الجهات التركية الميالة هذه الأيام ما قبل الانتخابات في مغازلة الحكومة السورية والتي تمهد لتبرئة نفسها من تلك العناصر أو التخلي عنهم بالتدريج البطيء.

كانت تلك الهبة بمثابة هزة ارتدادية على مقياس الرعب فيما لو استمرت

تلك الهزة حيث سيبدأ القمع الانتقام والتنكيل بكل من يقول لا أو يرفع العلم الكوردي متمترساً خلف مؤسسة البارزاني الخيرية،معتقدا أن فتح مكتبها في عفرين هو بداية خلاص من هذا الوضع المزري،الهزات الارتدادية الجماهيرية على مقياس الأمل لا تكفي لمقاومة حدوث انتقام، أو إيغال في الجريمة من قبل تلك العناصر المزلزلة، إنه تحد غير متكافىء بين قوى الهزات الارتدادية الشعبية وقوى الزلازل المدمرة لبقايا أرواح لهثت ركضاً خلف معونات تمت سرقتها في وضح النهار.

ثلاثون فصيلاً تقاسموا عفرين بعد غزوها من قبل الجيش التركي، وكل فصيل يحاول التمايز عن الآخر بطريقة قمعه للشعب هناك، يفرض الأتاوات، يقطع الأشجار، ينتهك الحرمات، يصادر الأملاك، وعلى طابور الصمت يقف القومجيون الكورد ينددون بممارسات تلك الفصائل ويعلنون أنهم لا يعترفون بها سوى أنهم سياسياً جزء من الإئتلاف الذي يعتبر تلك الفصائل جزء لا يتجزأ منها

حسن الضبع ورفاقه ممن شاركوا في المجزرة قبضت عليهم الشرطة العسكرية،

جلسوا معاً راح حسن يقول:

- لا تخشوا شيئاً يا أخوتي، سنخرج، لابد أن يطلقوا سراحنا

كان بودي قتلهم جميعاً وليس أربعة منهم لو لم يهربوا كالأرانب مذعورين

- لقد هربوا داخل المنزل وأحكموا إغلاق الباب.

عمر حبيب وبلال تبدو عليهم علامات الاستياء والشعور بالندم

يحاول الضبع فهم ما يدور برؤوسهم

-ما بكم صامتون كالعجائز.

- ما كان علينا قتلهم نحن الآن في السجن ومضت ثلاث شهور ولم يستجوبونا.

أضاف حبيب:

- لعلهم تركونا حتى تهدأ فورة الشعب.

تنهد بلال بضجر:

- اللعنة

حاول حسن الضبع تهدئتهم قائلاً:

- سيتدخل الأتراك قريباً ويرسلون أحداً من طرفهم ليخلوا سبيلنا كما يفعلون دوماً، سيحموننا من أي إجراء جزائي قد يصدر بحقنا تفائلوا خيراً.

أضاف بلال: قد يمنحوننا الجنسية التركية أيضاً

- نعم هذا وارد فقد قمنا بعمل ضروري

روشين جالسة لوحدها في ذلك البيت وصوت لعلعة الرصاص يتكرر في أذنيها تستيقظ مراراً أثناء النوم ثم تبكي بحرقة، للآن يصعب تصديق أنهم ماتوا جميعاً

الساعة السابعة يوم ٢٠ آذار المشؤوم، كانوا يجلسون خارج المنزل، مشهد رشق الحجارة الذي يمثل في مخيلتها، تقوم بوضع يديها لتحمي رأسها تلقائياً كأن الحجارة لا تزال تهطل عليها وحدها، تسمع صفير صوت الحجر القادم قبل أن يصيب أطراف جسدها، مشهد ضرب أحد أخوتها وقتله والتمثيل بجثته لا يغيب عن عينيها مهما أغلقته في المستشفى قال كبير الأطباء لها: خذوا الجثامين الثلاث إلى الخارج

- لن نأخذ سوى حقنا من هؤلاء القتلة أين هم؟

صرخت، ملأ صراخها المشفى، تجمع الكادر الطبي حولها حاولوا مواساتها، لكن عبثاً

عند خروجها من هناك راحت تصرخ وتقول لقد قتلونا، أخوتي ماتوا، لم

يعد لدي أحد أيها الناس، إلى هذا الحد بلغ بهم الأمر في قتلنا والتمثيل بجثتنا لحق بها

ثلاث مسلحين، حاولوا لجمها وتعنيفها، قال أحدهم:

- خذي الجثث، لقد جلبناها من المشفى، ادفنوها أينما تشاؤون في الشارع في المزبلة في غرفة النوم أو في المقبرة، خذوها ولا ترينا وجهك أيتها الشمطاء

- جبناء كلاب حقراء أنذال لعنة الله عليكم.

شارك الكثير من الأهالي في مسيرة جماعية بدأت من مدينة أطمة القريبة من ريف إدلب، صدحت حناجرهم بالهتاف والموت للقتلة الجناة، وتحول يوم ٢١ آذار إلى يوم احتشاد وتظاهر، كانت تلك بمثابة هزات ارتدادية بشرية تطالب الطبيعة الإنسانية بالعدل والقصاص، زلزال الغضب مستمر والآلام تتأهب لحمل صيحات الوجع، تفر الحياة من طلابها، ويفتح الموت ذراعيه لتلك الجثث الغارقة بدمها وحلمها المهدور في عيش حياة ذات كرامة.

« شبح الموت يطارده في البر والجو والبحر»

منذ أن أدرك الحياة وبدأها طفلاً، حنق عصبي يتمركز في حنجرته بأرجل لاصقة أشد متانة من أية مادة صمغية، في بيئة اعتاد فيها الكبار تربية الصغار وترويضهم على أنهم خيول جامحة، فالعنف خبز بائت لحياة موحلة، في تلك المدن الريفية النائية، هجير الشمس فيها يغطي الوجوه ليحيلها إلى هيئة قدْر مليء بالقمح المسلوق ملطخ بالسواد من أثر تراكم الدخان الناجم عن حزمات أغصان الشجر اليابس.

روغيان ترعرع في جو مشحون بالعصبية،وقد تعرض أذنه للفرك من قبل الأكبر منه سناً حسب ترتيبه كرابع فرد في تلك العائلة الكبيرة، إذا تأخر عن البيت فإنه يعاقب وعلى إثر ذلك يبكي ولبكاءه نبرة الفحيح، ذات مرة شاهده أخوه متعباً في معمل صناعة البلاط والسيراميك، تمدد على بطنه رافعاً قدميه للأعلى، آخذاً قيلولة قصيرة على سطح المحرك الذي يتم بواسطته وضع القالب الحديدي المحشو بالحصى المخلوط لصنع البلاط على أنواعه، فعلى الجانب الآخر ثمة جدار خشبي يحتوي على صور لأنواع البلاط الذي يعتبر بمثابة كتلوك بالنسبة للزبون الذي يطلب طلبية البلاط أو السيراميك، روغيان سريع البديهة، حنطي الملامح، يميل للسمرة خاصة في أشهر الصيف، يذرع الطريق ذهاباً وإياباً من المعمل للبيت، إلى جانب ذهابه للمدرسة، قبل البلوغ كانت لديه قامة قصيرة اعتقد الكثيرون أنه قصير القامة إلا أنه استطال بعد سن البلوغ، دائم الحركة، عصبي المزاج ويكثر من الكلام وتقليد الآخرين بسخرية لاذعة ومن مواهبه الاستماع لأحاديث النسوة

اللاتي كنا يترددن للبيت لزيارة والدته حيث كنّ يشكون سوء معاملة أزواجهن أو حمواتهن؛ ذات مرة طردته أمه قائلة:

- بني ما بالك تجلس ملتصقاً بنا في جمعة النسوة، اذهب عنا، من العيب أن تسترق السمع إلينا عند كل مرة.

حركات روغيان صفاته تمايزه عن أقرانه من الأطفال، عصبيته، ضحكته الساخرة، تقليده لحياة الكبار، كلها رسمت أقداره وكذلك تموضعت أمام طريقه هيئة الحياة التي ستلبسه لاحقاً ليكون إشارة استفهام معقوفة على أسطر وعرة منحدرة تكتب عليها سيرة الحياة ومصائر البشر.

عند دخوله المرحلة الإعدادية بدأت أحداث ذلك الكابوس الذي يعرف بالثورة السورية، استشاط ذلك البركان فنهضت من فوهته الجهنمية كائنات من نار تتشاجر وتلتهم لحوم بعضها البعض ثم تخرج من تلك الفوهة منتصبة كقرن الشيطان لتكسي بلونها الناري الأعشاب والأشجار والسهول الخضراء بالدم ولون الخضاب، حتى الطيور تغطت بالدم وولدت الأطفال من ظهر أمهاتها بعيون حمراء، راح روغيان يشارك الصغار الأشقياء ما يعرف بالثورة، وضع الأحجار في منتصف الشارع المزفت والمعبد برداءة مع بقية الأطفال الأشقياء لإغلاق الطريق أمام سيارات الجيب التابعة للشرطة،فقد خرج القصّر الذين رددوا ما يقوله الكبار كالببغاوات لإسقاط النظام بحفنة من شعارات جوفاء تعبر عن مدى حجم السذاجة والطهر العاطفي فقد كشف المشهد القمعي والحراك الشعبي عن ذاتهما على هيئة حالمة تعتقد بحلول عصر الحرية وانقلاب الظلام على عقبه بالرغم من قساوة الأحداث ودوام دمويتها يوماً بعد يوم.

روغيان العاق الذي أدمنت وجنتاه الصفع قد طبق مقولة يسوع إن ضربك أحدهم على خدك فأدر له الأخرى، فديدنه التحرك والتحدث عما يدور حوله وقد درس وتعب، وخرج إلى حلب ليقدم الامتحانات في ظل سيطرة التنظيم التكفيري على المزيد من الأراضي مهدداً بذلك مدينته كوباني، وقبل غزو المدينة بأشهر وأثناء عودته من حلب بعد إنهاءه للامتحانات، قامت عناصر من تنظيم داعش بإيقاف السرفيس قرب الحاجز وإخراج الأطفال منها ونقلهم إلى إحدى مقراتها لإعدادهم كأشبال للخلافة عن طريق ما يعرف بالدورة الشرعية.

دخل ذلك النفق في وقت أدرك فيه كثر أن الصغار لن يعودوا، سيتلقون تدريبات وسيتم ملء دماغهم بقيء التطرف، سيغفلون فيهم الأنا الأعلى مفسحين المجال للهو «بحسب فرويد» ليسرح ويمرح بهم على ضفاف عالم الجريمة الشرعية، هناك اتسعت أحداقه أكثر لهول ما يجري وحجظت أعين بقية رفاقه القاصرين رعباً وقلقاً على ما سيأتي فمن ضغوط الامتحانات إلى اختبار يتعلق بمدى القدرة على التوازن والصمود إزاء مكان يعج بالدم واستباحته.

منبج - آب ٢٠١٤-

فترة مفصلية في حياة روغيان، النفق يمتاز بتشعبه واتساعه يحمل لون علم الخلافة المزعومة بعد إسبوعين انتهت المعاملة الودية من قبل عناصر التنظيم للطلاب، من ثم بدأت أولى دروس تعلم كيف يصبح قلبك تمساحاً، أخرجوا معتقلا كردياً من زنزانتهم كان قد تم خطفه مع مجموعة من سكان المدينة، بدا متعباً عاجزاً عن المقاومة أو الأخذ والرد فقد أوسعوه ضرباً قبل ذلك، راحو يسنون سكيناً حادة بوجه

الأطفال أن انظروا بتمعن لطريقة ذبح الكائن البشري، ظهر الجلاد المقنع المرتدي لثاماً أسوداً نقش على اللثام عبارة لا إله إلا الله محمداً رسول الله، فسنّ سكيناً طويلة مسنونة من ثم كبَّر بنبرة ممتلئة مخشوشنة مقترباً من السجين الخائف وبدء ينحر بروية وقوة راحت أسنان السكين تنغرز بالجلد فخرج الدم بغزارة وانغمست السكين المسننة للأسفل أكثر متجاوزة طبقات الجلد واللحم حتى وصلت عظم الرقبة متموضعة بمنتصف فقرتي الرقبة حتى انتهت تقريباً من اختراق العظم ونجحت في فصل الرقبة عن الرأس وما أن انتهت من قص الرقبة حتى تمكنت في النهاية من قطع الحنجرة بسرعة ويسر فلم يعد للجلاد الصبر وما إن شارف على فصل الرأس بهدوء واحترافية حتى علت بسمته كأنما حمل مولوداً خرج من رحم أمه، رفع الرأس المفصول أمام الأطفال دون الثامنة عشرة ربيعاً دون السماح للخوف أو الرحمة في الدخول لقلب يود التقرب إلى الله بقتل كافر مرتد قيض الله له هذه الذبحة ليتم استئصال الكفر من خلاله.

الأطفال القصر لم يشاهدوا هذا المشهد حتى في كوابيسهم ولا في أفلام الرعب والجريمة،منهم من أغمي عليه ومنهم من تقيأ ومنهم أغمض عينيه دون أن يكترث بتوعد أبو أنس أن سيلحق الخائف بصاحب الرأس المقطوع إن استدار ولم يكمل النظر، لمشهد النحر حتى النهاية.

شعر روغيان برغبة في التقيؤ، أحس رزكار بدوخة شديدة جعلته يتبول من الخوف لا إرادياً وآخر إحسان الذي أغمي على الفور أما الآخرون ممن لم يبدو ردة فعل مباشرة فقد فتحوا أفواههم وتارة أغمضوا أعينهم كيلا يشاهدوا تدفق الدم من عنق باتت كنافورة تضخ دماً يسيل على الأرض بالتزامن من تحرك الجسد والكتفين عدة مرات حتى

استسلمت الأعضاء كافة لجمود أبدي.

أبو أنس الأنصاري عامل الصغار المختطفين بغلظة وقسوة بخلاف أبو علقمة المهاجر الذي يؤدي دوراً يمتاز بالطيبة والدماثة، فقد تعمدوا أن يأخذ كل منهم سبيلاً في التعامل مع الأطفال وتهيئتهم ليصبحوا قوة عسكرية لا تتوانى عن تنفيذ العمليات الاستشهادية» الانتحارية» لأجل الجنة والظفر بحورياتها،ذاق روغيان من أبو أنس جلدات عدة، وصفعات كثيرة عند محاولته الهرب والتي باءت بالفشل، ظل يلازم روغيان والأطفال الأشقياء من على شاكلته ليعلمهم أمور الفقه والدين الصحيح متخذاً مبدأ القسوة والصرامة.

بيد رقيقة وأخرى مشغولة بالضرب والصفع ومسك الكرباج أو السكين أو الساطور يصبح التعامل مع البشر بهكذا طرق سيد الموقف حتى يفهموا من جديد شيئاً من دينهم ويتعظوا في دنياهم قبل أخرتهم، يحشون الأدمغة الرخوة بما يريدون كما يتم عادة حشي الكوسا بالأرز أو عجينة المعمول بالتمر.

ولا يجرؤ ابن أنثى على العناد أو التمادي بالرفض فمصيره التعفن في السجن أو التحلل في الثرى.

لأبو أنس قامة عملاقة مكتنزة وملامح خشنة كجلدة دولاب القاطرة المقطورة من حيث السماكة وكذلك اللون، شعره أسود لا توجد فيه شعرة بيضاء رغم تجاوزه عتبة الخمسين من عمره، يخيل إلى من ينظر إليه أنه قد قدم من بطن التاريخ القديم وخرج من أحد مقابرها المسكونة، عينان حادتان تنظران للأعلى والأسفل لليمين والشمال كأنهما بوصلتان مبرمجتان على حفظ الجهات الأربعة، وعند رؤيته للأولاد الذين تم إنزالهم من حافلتهم وأمر بأخذهم إلى مكان أشبه بمدرسة

قديمة تم تحويلها لجهاز إصلاحي مخصص للأطفال والمراهقين ممن أتموا البلوغ،لابد بادئ ذي بدء من إخراج الخوف من دواخلهم فنحر بعض الكفرة يعتبر درساً أولياً غايته إدخال رعبهم في صدورهم الغضة وكذلك إخراج الخوف من دواخلهم، كي يمارسوا النحر والذبح فيما بعد عندما يصبحون جهاديين واستشهاديين يفجرون أنفسهم بالأعداء لينالوا الحوريات كثواب إلهي.

عند وقت النوم يبدأ بعض من القاصرين بالهلوسة أثناء النوم، يستيقظون عدة مرات والهلع يأخذهم على حين غرة معيداً أمام أذهانهم مشهد ذلك الذبح وتحول المذبوح إلى شاة مضرجة بالدم عند قرب عيد الأضحى.

بعض منهم صار يحدّث نفسه، البعض الآخر بقي يقظاً طوال الليل لا يستطيع النوم لو لثوان وعند قرب الفجر راح البعض نتيجة الإرهاق يغفو حتى جاء أحدهم صائحاً:

- انهضوا هيا، الصلاة خير من النوم، حيوا إلى صلاة الفجر.

يقول روغيان حينها هامساً بين نفسه حانقاً و بالكوردية: تباً لكم ولصلاتكم وإلهكم وللوحش الذي خرجتم من مؤخرته، لو أن أمهاتكم أنجبن الغائط لكان أفضل من إنجابهن لأمثالكم.

جاءته الصفعة على رقبته:

- بماذا تهذي أيها الفاسق الصغير.

- لا شيء أقرأ المعوذات بلغتي.

- يمنع الحديث هنا بغير لغة القرآن وأهل الجنة، أفهمت.

السحنات متعبة؛ الوجوه شاحبة، ولشدة ذلك الانشداه يرتبك الجمع في أداء صلاة الفجر.

ثم بدأت بعد ذلك دروس الفقه وإدخال الحقد بعد ضمان دخول الرعب داخل صدور التلاميذ، فلا يجرؤ أحد على التفكير خارج سور المدرسة، يتلقى الأطفال بعد ذلك دروساً نظرية عن تعلم استخدام السلاح الأبيض وكذلك المسدس الفردي، هنا تدور أذهان الأطفال على نحو دائري، يتم إفهام العقل ان المكان الذي هم فيه طاهر عفيف والخارج دنس لابد من إزالته بالعنف والغلظة في ممارسته دون رحمة، لاسيما أن وجود النساء هنا له مهمة في تثبيت هذا الاعتقاد ودوام رسوخه في الذهن.

روغيان يدور في فلك حزنه، يشعر بالأسى، لا تغرنه ازدواجية التعامل تلك ما بين عنف يبديه أبو أنس وطيبة يبديها أبو علقمة المهاجر.

تمارس هنا أساليب يملأها الرعب والخوف على القصَّر ممن قضوا نومهم في رحاب الكوابيس ليستيقظوا على رؤيته في النهار عند بدء دروس التلقين الدينية والخطب الحماسية شديدة النبرة وفي أغاني الجهاد والدوران حول الخليفة البغدادي وكذلك مشاهدة الفيديوهات المتضمنة مشاهد للعمليات الانتحارية للاعتياد على رؤية الجثث والأدمغة المتناثرة والأقدام والأيدي والأصابع المبتورة، وكذلك صور الذين يتم صلبهم على دوّرات الطرق، وكذلك إجراء أحكام الحد بشكل عملي كي يتمرن القلب الخائف على الشجاعة في ممارسة الذبح وكذلك ليذهب شعور الخوف وليحل بدل منه شعور الشجاعة والفخر كونك عضو من هذا التنظيم وعلى بعد خطوات قليلة من الجنة.

أبو أنس يراقب روغيان كيف يتحدث مع أمه على الهاتف:

- أخرجوني من هنا

بعد الانتهاء من المكالمة يقوم بسحب أذنه اليمنى كأنه يسحب حبلاً

مشدوداً حول رقبة كلب.

- أفهم من هذا أنك تريد العودة إلى حياة الكفر وأمك الكافرة.

يبكي من الألم دون أن يُظهر ذلك، في اليوم التالي يجد باباً مفتوحاً يفضي إلى الخارج يحاول ألا يهرب من خلاله وإنما عبر النافذة التي ستفضي به إلى ممر ضيق يطل على منزل مفتوح لكنهم يرونه فيلقون القبض عليه فيوسعونه ضرباً يجعله يبصر نجوم الظهيرة بجلاء ووضوح.،يأتي دور أبو علقمة المهاجر، يحدثه بنبرة أنثوية تدل على أنه مخنث من شدة التظاهر بالهدوء والطيبة والرقي الزائف

- إن هذا المكان لو تعرف يا بني لطاهر شريف سيشعرك فيما لو اقتربت من أناسه أنهم عائلتك الحقيقية، إن بقاءك مع تنظيم الدولة لهو من أنبل الفعل وحميده وفيه تقرب من الله جل علاه فهنيئاً لك السكنى مع الذين يؤثرون الآخرة عن الحياة الدنيا أولئك هم المفلحون

- أريد العودة لبيتي وأهلي ولتهنأ وحدك بما تراه جميلاً

يتحول هدوء أبو علقمة إلى زوبعة، فيمسك نفسه عن ضربه قائلاً في نفسه:

- لولا أنك في عهدتي وإني موصى في معاملتك بالرفق لفجرت رأسك أيها القميء.

ثمة تباين حول فكرة تقبل الوضع الجديد، عزيز، عماد وليد ورودي أصدقاء العودة من الامتحانات وقد أنسوا برفقة روغيان، عاشوا بخوف ووجل، عماد وليد وعزيز قطعوا أي أمل في إمكانية الخروج وجد عزيز في الإذعان لهم وسيلة لوقف ذلك العنف الذي يمارس إزاءه في الصباح والمساء بينما راح عماد يجاري ما يقوله المسؤولون عن تدريبهم العقائدي وعن رغبته في تنفيذ عملية استشهادية تمكِّنه من خلالها

في الفوز بالجنة وامتطاء جميع حور العين مدة مكوثه فيها،عزيز ذو النظارة الطبية الحديثة والتي صار يلبسها منذ الكشف الأخير من قبل طبيب العيون عليه، لقب بالمثقف حيث اعتقد أن من يرتدي نظارة فإن سمات الوقار وحب القراءة تبدوان على وجهه، تحول هدوءه إلى خوف دائم، أن يجد نفسه بغتة بلا رأس،رودي استيقظ هلعاً فقد رأى في المنام أن رأسه البيضوي الكروي انفصل عن جسده وقام مجموعة من رجال التنظيم برسم ملعب بدمه متخذين من رأسه الذي تم قطعه باحترافية كرة قدم تتدحرج بين أقدام اللاعبين،روغيان ومجموعة من الطلاب يسيرون بخوف، يخفضون رؤوسهم، يرفعون أكتافهم للأعلى كونهم يشعرون دائماً أن رأسهم سيفصل، وأن لا ضمانة لبقاء رؤوسهم بين أكتافهم، شكر عزيز الله على نعمة الرأس، وليد دائم التحسس لفقرات رقبته، راح يخمن أين راحت سكين الجلاد تنغرز مباشرة،أغمض عينيه متنفساً بتهالك لمجرد التفكير بذلك.

تمكَّن الخوف من الغوص عميقاً في محيط فرائصهم على إيقاع سورة الزلزلة التي ألقاها أحد التلامذة على مسامعهم.

« إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها»

لقد أحسوا بوطأة سماعهم للسورة فملامح الجلاد لم تغب لحظة عن الأعين، وكذلك الانتظار راح يجلد روغيان، إلى متى سيبقى في هذا السجن الجبري، ها قد مضى الأسبوع ثقيلاً ومفزعاً،يفكر بالهروب أين وكيف لا يدر، كل ما يعلمه أنه إن بقي هناك سيجد الموت في النهاية فاتحاً فمه الكريه بوجهه وكذلك ذراعيه اللتين تفوح منهما روائح الفطائس والذباب الكبير ذوات الظهور الخضراء المتربعات عليها.

موت وضيع بما تحمله الدناءة ينتظره وسيحيل بسمة أمه وظرفها إلى

اكتئاب أبدي وسيجعل من أبيه شاهدة قبر مكسورة الأطراف تراقب سماء بيضاء يكتنفها الغبار،العلاقة بين أعضاء التنظيم والرهائن الذين تم اقتيادهم لهذه المدرسة وفق ما أرادوا لها وتمنوا أن تكون عمادها الثقة والمحبة وفق نص قرآني ورد في سورة الفتح « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم « لهذا فلم يضعوا حراساً على المقر وبوابة الخروج، تركوا بعض المنافذ مفتوحة عن عمد، اعتقد عزيز كغيره أن بالإمكان النفاد من أحد المنافذ والهروب من هناك، جرّب ذلك في الليل، عندما أحس أنه لوحده والناس في الخارج، كل منهم مشغول بعمله، وجد الأبواب مغلقة وبقية الحرس ذاهبين إلى غرفهم حتى لم يتبقى عند البوابة الخارجية سيارة أو ظل إنسي وقد رأى عزيز هنا أن من السذاجة الخروج من الباب إذ لابد وسيمر أحد ليجده يمضي وحيداً وقد تستوقفه دورية تجوال عند الليل، فمن الأفضل في هذه الحال استخدام ممر آخر قبالة جدار وطيء مهترىء يطل على بيت غير مسكون رحل عنه أهله فمن الأفضل له الخروج من هناك، حيث ثمة مزرعة يمكن التواري خلف أشجارها وبالفعل وجدها فرصة مناسبة، حيث دخل تلك الغرفة ولم يشعل ضوءها وإنما استعان بالضوء الذي خارجه، دخل الغرفة المغبرة أحس برغبة في أن يسعل لكنه بطريقة ما استطاع ضبط سعلته إذ لم تك قوية ولم تتكرر، وجد مقعد صف دراسي وضعها تحت النافذة المفتوحة وبمجرد أن وضع أحد قدميه على منضدة المقعد حتى اختل توازن المقعد وتزحزحت إحدى قدميه من المنضدة فصدر صوت ضجيج قوي أيقظ من كان نائماً، جعل الحرس يخرجون من غرفتهم باتجاه مكان الصوت ممسكين بذراعي عزيز حيث سحبوه ونقلوه لغرفة أخرى اقفلوا عليه الباب حتى

الصباح ليبت أبو أنس بمصيره مضى ما تبقى من الليل ثقيلاً قبيحاً على عزيز، غفى على حين غرة فرأى في المنام أن شعره قد ابيض وأنه يمشي حافياً على منحدر حار شوته شمس الصيف بلفحاتها الساخنة استيقظ على إثر ذلك، وصداع شديد يقض مضجع رأسه بشكل نصفي، أحس هذه المرة باللامبالاة، قال في نفسه:

- لن يعاملوني معاملة الرجل الهارب، فلم أزل طفلاً حديث السن

لكنهم «بارتعاد قالها» لكنهم سيوسعونني ضرباً، وبرباطة جأش وبعد تنفس عميق قالها بصوت خافت وشبه مسموع:

- ليحدث ما يحدث فلن أستسلم

ثم عاود النوم مستعيناً بالتخيل، تخيل أنه لا يزال طفلاً في حضن أمه يتسلى بشالها، يضع طرفه داخل فمه، يعلكها كعلكة، ثم تنهره أمه، ويعاود هذه المرة اللعب بشعرها،يلف اصبعه السبابة بخصلة طويلة من شعرها، وحين يضغط على الخصلة عند اللف فإنه يوقظ أمه فتستدير صوبه لتضمه فيغفو على ذراعيها عميقاً حتى الصباح.

عربدة المفتاح في الباب أوقظت عزيز، وقبل أن يمد الحارس يده على ذراعه كي يأخذه عند أبو أنس، انتصب واقفاً مرفوع الهامة كأنه يستعد لتلاوة النشيد القومي

توجه الحارس الأحول ذو الجديلة السوداء به نحو مكتب أبو أنس، وحين دخل المكتب وجد كبلاً رباعياً على الكرسي الذي سيجلس عليه لم يك أبو أنس لوحده وإنما كان برفقته أبو عبيد العراقي واثنين من دواعش المنطقة،جلس عزيز محل الكبل، نظر أبو أنس وأبو عبيد بملامحه، كانت نظراتهما بمثابة نبال مسمومة تنغرز بعينيه، عزيز في حالة حرب ضروس مع خوفه

- ماذا سيفعلون بي؟!

مرت لحظات صمتهم بثقل، أطلق أبو أنس نبرة صوته العميقة والعالية كضربة جزاء دخلت مرمى أذني عزيز:

- أنت الوحيد الذي حاول الهرب من بين رفاقك الذين أتيت معهم، قل لي.

- . هل سبق ورفعت السلاح وحاربتنا؟

أمر أبو عبيد الحارسين بربط ذراعيه لأجل جلده،فهموا بتنفيذ الأمر، قاوم عزيز لكن بلا جدوى.

أضاف أبو عبيد:

- حركاته تنبأ أنه مدرب جيداً، لم أصادف بعمره فتى لا يعرف الخوف أعتقد جازماً أنه قد تلقى التدريب.

بدأت السياط ترسم خطوطها الوردية على ظهره، مع اللحظات الأولى بكي وهو يصرخ، علت زمجرة من أبو أنس:

هذه السياط من الجنة علها تثبت إيمانك، وتشعرك بأهمية وعظم ما ينتظرك من مهام خدمة لله والإسلام

ما لبثت أن تحولت الخطوط الوردية إلى زرقاء وتغطت بلون أسود حتى أغمي عزيز فتوقف الجلد،تحدث أبو أنس للحرس:

- أنزلوه ، طببوا له جرحه فإن برء أرسلوه إلى أبو علقمة يتولى شأنه

- حسنا

أبو عبيد يقترب من أبو أنس، يقول له:

- هل سيلتحق هؤلاء الأطفال إلى معسكر الأشبال أم سيطلق سراحهم

- حسب معلوماتي فإن التحضيرات للغزوة الجديدة لأجل انتزاع عين الإسلام من الكفار أوشكت على الإنتهاء، قد يتم إطلاقهم بعد الانتهاء

من الدورة الشرعية هم جند الغد القريب وسيعودون إلينا طواعية فلا خوف عليهم.

أدرك روغيان أن العناد وكذلك محاولات البحث عن ثغرات للهرب من خلالها لم تعد مجدية بل لها نتائج وخيمة هو بمنأى عنها في الوقت الحالي، عليه أن يداريهم مادام في دارهم،ربت أبو علقمة على كتفه قائلاً:

- لاتحزن فالله لابد أن يفتح بصيرتك بعد غشاوة وضلال

طأطأ رأسه بالإيجاب لاعناً إياه في قرارة نفسه،والداه ينازعان حزناً عليه كباقي العائلات الذين ينتظرون عودة أبنائهم القاصرين ممن لم يتجاوزوا الخامسة عشر ربيعاً،تحاول والدة روغيان زيارة ابنها، استطاع والده العثور على رقم أحد الدواعش، راح يتوعد على الهاتف:

- انتظرونا نحن قادمون لفتح عين الإسلام والنصر لنا

- نريد أن نر ولدنا الذي هو الآن مع بقية رفاقه عندكم

- يمكن لوالدته زيارته الجمعة بعد الصلاة

انفرجت أسارير أم روغيان فقامت بتجهيز نفسها وأخذ بعض الأحاجي والطعام لابنها، رافقها ابنها الصغير وذهبا لزيارته،فتح لهم البوّاب الباب، سارت قليلاً للأمام صاح روغيان بصوت كسير :

- أمي

راح أحد الحراس يهمّ بضرب روغيان بالسوط على طول تقدمه صوب أمه لاحتضانها، تلك السياط أوجعت قلب أم روغيان فكاد يغمي عليها من الألم وصدمة أن يقوم أحدهم بضرب ابنها على مرأى عينيها هو شيء قط لم تعتاد عليه ويشي أن ابنها طالما هو هناك فليس بخير.

مهلة الزيارة كانت قصيرة لم تتجاوز نصف الساعة قضاها روغيان مع

والدته وأخيه الصغير احتضاناً وبكاء

تلك الأيام جعلته يتحسس الحياة وجانبها المؤلم، سمع بقصص المفقودين الذين لا يعرف ذويهم أية أخبار عنهم فيما ان كانوا أحياء أم أمواتاً وضع ذلك الاحتمال المؤلم القاسي نصب عينيه، هذه الأيام التي يمر بها ثقيلة أرغمته على أن يهجر طفولته فقد رأى ما يجعل شعر الرأس يتحول لكومة قطن.

أدرك روغيان أنه قد يصبح فعلاً في عداد المفقودين أو السائرين إلى حتفهم عبر عملية انتحارية تصبح فيه أشلاءه منثورة كالحروف على الأسطر، رعب يخنقه، حزن يقذفه من فكرة لأخرى، مقر المدرسة لدى هؤلاء هو سجن، انهم يجعلون مكان تلقف المعرفة سجناً سيء الصيت، الدورة الشرعية بالنسبة لروغيان بمثابة حرق للأعصاب على نار الانتظار المميت، كلمة جهاد أصابته بالغثيان، فمعناه الموت والحاق الضحايا بالشخص الذي يفجر نفسه بينهم، هو في حيرة في أمره بين أن يجاريهم في عاداتهم وطريقة كلامهم كي يكسب ودهم وفي ذلك ما يفتح الباب أمامهم للتفكير بالإبقاء عليه بينهم وقد تراجع عن هذه الفكرة بعد أن تجلت له خطورتها، أو أن ينأى عن نفسه ويتظاهر بالبلادة وقلة الفهم وذلك قد يجعله موضع التباس فيطيحون به بين ليلة وضحاها، في الاثنتين هلاك

بقي هنالك حل وسط قد يكون معقولاً،وهو أن يكون على طبيعته دون تعنت إزاءهم أو تملق لهم

وضع ذهنه في حقل ألغام الهواجس، تخيل أكثر من سيناريو لمصيره، كلها تثير فيه إحساس البكاء، نصب خيمة عزائه، شارباً قهوة العزاء الكالحة مدخناً سجائرها الحمراء الطويلة والقصيرة والحمى تعقد

دبكاتها في رأسه، يوقظه ألم فكيه، ذكرته بلكمة أبو أنس، آلمته أذنه اليمنى لكثرة ما تم سحبها وكذلك أنفه الذي أحس أنه مكسور اثر لكمات متتالية من ذلك الحارس الأحول ذي الجديلة السوداء، فكر كثيراً في سر امعانهم في أذاه كأنهم ينتقمون منه أو يغسلون عارهم إثر امتطاءه لأمهاتهم أجمعين، لم يجد أي مبرر لهذا العنف والتوحش، كيف يقتل المرء إثر تأثره بنص ديني تم تأويله ليبرر من خلاله إراقة الدم الإنساني، كيف سيبني هؤلاء تلك الدولة الإسلامية ان كانت أركانها قائمة على فتاو تبيح القتل والجنس والجنون

حين يتجرد الإنسان من عقله وأخلاقه يصبح أبلغ من الوحش وحشية وأشد خطراً، حقائق راحت تلوح بذهنه، كل طعام يجلبونه إليه مغمس بالدم فلا يستطيع أكله رغم جوعه، كل شراب يشربه عندهم كأنما هو دم قان يخرج من عنق مبتورة تتدفق بشدة من صنبور معطوب

الدم لطخ كل لون، حتى لون علمهم الأسود كقلوبهم السوداء تغطى بالدم،جوزات سفر على طاولة مكتب أبو أنس مختومة بعلم الدولة التركية انبثق من هلاله الدم وتوسع على شكل متاهة باتت تكبر على نحو دائري لتحتوي كافة الأماكن التي يسيطر عليها تنظيم الدولة وتمد المتاهة بدوائرها للشريان الذي يمد تنظيم داعش بالملتحقين الجدد ممن تحط طائراتهم مطارات تركيا فيأتون منها عبر المنافذ التي تطل مباشرة على الحدود الجنوبية التركية

وعند بدء الحملة العسكرية من قبل داعش على مدينة كوباني بدءاً من قراها حيث سيطر التنظيم على بعض القرى هرب من استطاع الهرب منها وقتل من بقي أو تأخر في اتخاذ قرار الهرب حيث بقيت أنعامهم وكذلك رؤوس من الغنم استولى عليها عناصر التنظيم فتم

سوق تلك الأغنام كغنائم عبر شاحنات مفتوحة السقف حيث تم ذبح تلك الأغنام في محلات الجزارين في مدينة منبج وتوزيع لحمها على الناس هناك كبشارة من التنظيم بمناسبة بدء غزوتها لعين الإسلام تيمناً بسيرة الفاتحين في العهود المنصرمة

أطلقوا سراح الأطفال ومن بينهم روغيان وقد اعتقد التنظيم ان هؤلاء الأطفال الذين أتموا تدريبهم وتعليمهم للفقه وأمور الدين وأحكام الجهاد وبالتالي فإن غالبهم قد تم تأليف قلوبهم وتبديل عقولهم وحشوها بما يلزم كي يتحولوا إلى أشبال للخلافة، لهذا لم يجدوا ضرورة من إحتجازهم أو إبقاءهم عندهم حيث تمكن روغيان بعد مكوثه يومين عند ابن خاله في الخروج من سوريا عبر بوابة جرابلس حيث كان والده عند الحدود المتآخمة مع البوابة بانتظاره

أحس عندها أنه ولد مجدداً، كانت ملامح جنود الحربين العالميتين المنهكة ترتسم في محياه

إطلاق سراح الأطفال الذين تم خطفهم حينذاك هو نتيجة اعتقاد جازم بالسيطرة على كوباني حيث لم تكن هنالك أية احتمالات من فشل تلك الحملة وخصوصاً عندما ظهر أردوغان الرئيس التركي مراراً على التلفاز والإعلام ليؤكد أن سقوطها بيد التنظيم مسألة وقت أو قاب قوسين أو أدنى، ولم يرتاب العناصر أبداً من أن المدينة بلا ريب ستسقط بيدهم

لم يصدق أنه بات حراً، شعور كل العبيد ممن قام بعض الرومان بالتكرم عليهم ومنحهم صك حريتهم أحس به تلك اللحظة خاصة عندما لمح والده على الطرف المقابل من البوابة الحدودية يلوح له:

- أنا هنا تعال بني

ظل والده يتفحصه على طول الطريق كأنما رأى تمثالاً ذهبياً تحت الأنقاض، إحساس خلّده الدهر لا ينتسى، يظل في البال، لقد خرج روغيان للحياة مجدداً فاتحاً ذراعيه كطائر النورس مكتسحاً الغمام والضباب محلقاً للأعلى داعياً كافة النسور والصقور واللقالق لمأدبة الحرية

أمعنت داعش في قصف مدينته بالتزامن مع لحظات خروج روغيان وبعض من رفاقه من سوريا، أصوات القذائف وخوف الأهالي وصراخ الأطفال يشق كافة المعابر ممن تجمعوا هناك قرب الأسلاك الحدودية حيث يقف بعض عناصر الجندرمة التركية، عزيز ويبدو أنه قد تأثر بتعاليم داعش لم يبدي بِشْراً عندما عانق والده، تعجبت والدته من ذلك فسألته عندما أبدت استغرابها عن سبب عبوسه فأجابها

- أرثي حالكم لأنكم في كفركم وضلالكم وأنا المؤمن الوحيد بينكم، أية حياة سأعيشها بينكم!؟

- جحظت عينا والده، سرى أسى ثقيل بداخله

أما الآخر وليد فظل طوال الطريق برفقه أخيه الذي انتظره، يدندن أناشيد داعش حتى خيل له أنه قد جن تحت تأثير هوسه بالأغاني الجهادية التي تم تلقينه إياها لم ينس روغيان كيف قضى ثلاثة أيام بلياليها جائعاً يبحث عن ملاذ والخوف يكتظ بداخله خشية أن يعيده بعض العناصر لمقرهم فخف الخطا حتى عثر مصادفة على شخص يوصله لبيت ابن خال أبيه لاسيما وأن بعض الجندرمة التركية قبل وصول والده للبوابة عامله بعنف مع بعض آخرين، صار جسده مرمى رماية لكل من هب ودب ويريد استعراض عضلاته

بعض من رفاقه ممن تم إطلاقهم أصيب بحالة جنون، رودي ظل

الرعب ومشهد النحر يرافقه كشبح، صار يهذي بعبارات غير مفهومة، أثار دموع أخته الكبرى، تلك التي فرت من قريتها حافية وبلباس نومها مع أول سماعها لأصوات قذائف الهاون،شعر والد روغيان بالغبطة،لوّنت تقاسيم وجهه أثنى عليه محاولاً إزالة التعب عن ولده

- أنت ابن الأسود يخشى منك ولا يخشى عليك

عندما وصل بابنه إلى منطقة سروج كانت هنالك مجموعة خيم نصِّبت حديثاً لمن نزحوا من كوباني بعد اجتياح داعش لها، ركضت أم روغيان وأخوته الصغار جميعهم على هيئاتهم المتعبة وثيابهم الباهتة نحوه صاروا يحيطونه بالقبل والاحتضان، تلك اللحظات كأنما هي ضمادات وشاش قطن حاولت أن تخفف من غلواء الوجع الذي أصابه جسداً ونفسا، أدرك وقتها أن الحياة تخفي في جعبتها الكثير، نبهته تجربة وجوده رهينة عند داعش أن الحياة ليست سهلة وإن وراء رخاءها ودعتها قسوة ووحشية وصرخات تتعدى سرعة الصوت وكذلك الضوء، روغيان يشعر بنشوة غريبة وإحساس لا يمكن اختزاله بسطر أو ملحمة ينظر للسماء فيخالها مسبحاً مقلوباً حل محل السماء متجمدة مياهه كأنما هي سبائك جليد مستطيلة عملاقة وواجفة في مكانها لا تذوب وإن مسها هجير القيظ، يتأمل الأشجار فيحسها كأعمدة الإنارة تزين مساحات الريف النائية التي لما يصل إليها ضوء الكهرباء بعد، يشعر أنه ملك الاستغراب والتعجب حينما يبصر أشياء بسيطة قد ينظر إليها أي ناظر دون أن تحرك فيه شيئاً لكنما هو شعور الذي خرج من قعر بئر وما ظن يوماً أن سيخرج من هلاك محتوم لبر الأمان حيث يشعر أن كل شيء على مد بصره إنما هو ملك له ورهن إشارته، كأنه سليل مخلوق فضائي هبط بصحنه إلى كوكب الأرض ثم تعطل صحنه وأنس برفقة

البشر واستأنس البشر به ثم صار منهم أي فرداً من العائلة الآدمية والده المتعب الذي صار وجهه ليمونة من شدة التفكير به انقلبت ملامحه فصار يشعر شعور من ربح الجائزة الكبرى كانت سعادته تعادل سعادة منتخب نال كأس العالم، نظر لروغيان بفخر، وقد استغرق في التأمل والسمع الدقيق لكل ما يرويه فبات يتأثر بالأحداث الصغيرة قبل الكبيرة، أما والدته فلم تتوقف عن البكاء كأنما أدركت حقيقة أن ابنها قد رجع حقاً من ديار الموت

راح يروي للذين التفوا حوله من أهله وأقاربه ممن أتوا ليهنؤه بالسلامة تلك اللحظات، أصوات القذائف واشتداد المعارك تأتي من الطرف المقابل لكوباني التي تعيش الآن أوقاتاً عصيبة، راح يسترسل :

- كنت في الطريق حين ذهابي إلى حلب لأجل الامتحانات، وعلى ذلك الطريق غير المزفتة جيداً، أوقفنا حاجز التنظيم، أنزلونا جميعاً، كانت معنا بضع فتيات قد تجلببن قبل ذلك حيث نهنا السائق قبلاً بوجود حاجز قريب، إلا أن بعض من خصلات شعرهن قد خرجت سهواً من بين الحجاب، أقبل إلينا حينذاك أمير ضخم الجثة اسمه أبو هاشم الأنصاري، نزل من مركبة عسكرية قال بنبرة أحسسنا فيها أنه يمزح لا أكثر:

- اذهبوا الآن في طريقكم، لكن حين تعودون ستكونون في ضيافتنا.

لم نأخذ كلامه وقتها على محمل الجد، وحينما عدنا من حلب، قضينا أكثر من 12 عشر ساعة على الطريق، كنا نلتف عبر الحواجز، كل حاجز يوقفنا أكثر من ربع ساعة على الأقل ليتفقد ركاب حافلتنا، وعند وصولنا لمنبج وتحديداً عند الجسر، أوقفنا بعض العناصر على الحاجز فقام أحدهم بالجلوس عند السائق آمراً إياه بتحويل الجهة نحو مقر

المحكمة الشرعية بمنبج، وهناك قال أحد العاملين في المحكمة أنه بالإمكان أن تتابع الحافلة طريقها ويعود من فيها إلى ذويهم، إلا أن الأمير أبو هاشم الأنصاري كان له رأياً آخر، فقال لنا :

- ألم أقل أنكم ستعودون لتنزلوا في رحابنا ولن ندعكم تكملون طريقكم إلى ديار الكفر، فأمر أبو هاشم بنقلنا إلى مقرهم وهو عبارة عن مدرسة، قاموا بتحويلها إلى مركز أمني، في بداية مرور أسبوعين عاملونا بلين فكانوا يقدمون لنا مأكلاً، مشرباً ومسكناً لائقاً

أرادوا عبر اتباعهم لهذا الأسلوب أن يأخذوا بعض المعلومات حول وضعنا وانتماءاتنا السياسية وكذلك توجهات أهالينا الحزبية، وقد نالوا مرادهم في ذلك وأخذوا منا ما أرادوا من معلومات وأخبار، وبعد انقضاء الأسبوعين الأولين صاروا يأخذوننا فرادى إلى التحقيق لمعرفة أهل كل منا وماذا يعمل، أخبرونا إن من يخفي أية معلومات مهما كانت بسيطة فإنه سيقاسي في مكوثه سيتم أخذه لغرفة التعذيب وسيعذب عذاباً شديداً إن تم التنقيب عن ملفه واكتشفنا أنه لم يخبرنا كل شيء يعرفه عن أهله وذويه ومحيطه وبيئته

أضاف المحقق:

- ملف كل منكم سيأتي بعد خمسة أيام وسنقوم بمقارنته مع شهاداتكم وما أدلى به كل فرد فيكم

محاولتي للهرب تزامنت مع انتظارنا لملفاتنا، والتي باءت بالفشل، كانوا يسألون دوماً عن شخص يدعى محمود رشو عمر علوش، لقد كان هذا الشخص أرقاً للأمير أبو هاشم الأنصاري، الذي كان يسعى لإخافتنا بنقله لنا الأخبار في الخارج كما يريد متعمداً في إنهاك نفسيتنا، كان يحدثنا عما يجري في كوباني وعن تظاهرة طالبت من خلالها عوائلنا

بالكشف عن مصيرنا

محاولتي الأولى للهرب بعد الظهيرة وعند قرب موعد صلاة المغرب، كان ذلك اليوم صعباً فقد أتى أحد الأمراء وقد نصَّبوه والياً على حلب، شارك في لعبة كرة القدم مع بعض العناصر حتى موعد صلاة المغرب، تسللت من خلف المقاعد واختبأت عند الزاوية بانتظار أن ينتهوا من اللعب ويدخلوا غرفهم بيد أنهم مكثوا في الخارج مدة أطول، قاموا بتفقد الحاضرين حينها، كنت المفقود حينها فراحوا يبحثون عني، صرت أسمع ما يحدث من حركات خطا تروح وتأتي،أدخلوا جميع الطلاب لغرفة واسعة، أبو هاشم برفقة أبو سراقة وأبو مغيرة وأبو يوسف وكذلك أبو الوليد، برفقة ذلك الضيف الذي نصب كوالٍ لحلب، كل منهم سعى إلى جهة لأجل البحث عني والقبض علي،أما أبو الوليد فقد ركب سيارته السوداء الكبيرة وصار يدور حول المقر ببطء، أبو المغيرة وهو سعودي الأصل،كالح الوجه،كث اللحية، تفوح منه القذارة، جاء برفقة أبو أنس، كلاهما وصلا للمكان الذي كنت فيه مختبئاً، جلبوا معهم مصباحاً كبيراً، صوبوا ضوءه للمكان الذي جلست عنده، لكني وبسرعة رحت أطأ المقعد لأجل القفز عبر النافذة إلى خارج المدرسة، رآني أحدهم فأطلق النار صوب المكان الذي عقدت العزم على التوجه إليه، واضطررت للوقوف هناك، أمسك أبو أنس بطرف قميصي

- تريد الهرب أيها الخنزير الأرعن.

صفعني بشدة وجعلني أهوي باتجاه قبضة أبو المغيرة، والآخر قام بلكمي وجعلي أسقط وكلما حاولت الوقوف على قدمي باغتوني بالضرب حتى لم أعرف كم يداً تهوي علي، وعند الليل في تمام الساعة الحادية عشر بدأ أبو أنس برفقة أبو علقمة المهاجر يحققان معي وكان الكابل

الرباعي الكهربائي بيد أبو علقمة، أعطاه لأبو أنس، تناوبا على جلدي، شعرت بالعطش، طلبت ماء فرفضوا جلبه لي،وعند قرب منتصف الليل أخذوني إلى المربع الأمني، قاموا بضربي بواسطة خرطوم المياه ساعة متواصلة، حيث أنهكت يد ذلك الحارس الأحول ذو الجديلة لطول مدة ضربه لي وعندما أغمي علي، أمر أبو أنس بتحويلي عند أبي يوسف وقد أخذني لغرفة وبمجرد دخولي عند الباب صعقت وبدا جسدي يرتجف عندها علمت أنهم كهربوا باب الغرفة، فسقطت أرضاً، ثم قذفوني إلى غرفة ضيقة تحتوي على مجموعة من الفتيان، كنا ننام على جنبنا، علمت لاحقاً أن ذلك القسم مخصص للفتيان الذين لعائلاتهم صلة بالذين يعملون لدى الإدارة الذاتية الكردية وعددهم 43 فتى، لقد مهدوا لي مكاناً صغيراً عندما رأوا حالتي حينها، مبدين تعاطفهم حيالي، عشت الوجع في كافة جسمي طيلة الليل حتى قدوم الصباح.

روغيان يروي ما عاشه بالتقسيط المؤلم، لا ينوي إكمال التفاصيل لأهله، إنما رأى مدى صعوبة الحال، فلأول مرة تنزح العائلة خارج مدينتها وتعيش في خيم نصّبت على عجل، خرج مع أخوته وأخواته ممن نزحوا معاً فعملوا في حقل لسقاية القطن والعناية به، بيد أن أيام الاعتقال في ذلك السجن لم تغب لحظة عن مخيلته، حيث راح يكثر من التأمل بعين لم تصدق بعد أنها خارج تلك الدوامة السوداء والكابوس المخيف، فضول الآخرين لم ينفك عنه حيث أرادوا ما أمكن معرفة التفاصيل حول تجربته تلك دون أن يراعوا رغبته في عدم الحديث عما حدث، قرابة الشهر عمل في حقل القطن ثم حزم الحقائب مع أهله وخرجوا من مدينة سروج نحو مرسين، هناك صادف بعضاً من أقاربه وأصدقاءه من ذات الجيل، دليل ومروان ممن احتكوا

به عن قرب وأحياناً كانوا يجاورون بعضهم إن في العمل أو في المبيت، أحس أن الطبيعة خير من تستطيع إدخال الأنس والبهجة للذات التي رأت وعانت وحملت صخور الهم والفزع وهي لم تتجاوز السن القانونية بعد، العمل في تركيا شاق للغاية لا يراعي سناً حيث كانوا يمضون باتجاه الحقول منذ الصباح الباكر ولا يعودون إلا عند المغيب، تجربة النزوح تلك حالت بين أن يفكر بما جرى له حيث أوغل في المكان وصارت له صلات وصداقات، نزوعه لمعرفة ما يدور في عقول الناس ومجاورتهم لفهم عوائدهم وذهنيتهم ما شغله دوماً، وفي فترة أخرى راح يعمل في مزرعة الرمان لقطفها وملئها في الصناديق، تجول روغيان ودليل وغرناس معاً في حواري ميرسين، تذوقوا المشبك المحلّى في زوايا أزقتها، وصاروا يرون تعطشهم لمسامرة الفتيات ومغازلتهن بالتركية، شعور روغيان بطعم الحرية الغالية لم يذهب عنه ظل لأشهر يتذوق طعمها الأجمل من كل العسل الذي تفرزه ملكات النحل، فتح ذراعيه بشراهة للمتعة والموسيقى والتجوال كل يوم عطلة في الأسواق برفقة أصدقاءه نحو الشلالات أحياناً وفي إحدى الجولات قرر روغيان ومروان ودليل الغطس في إحدى البحيرات الكبيرة، ولتلك البحيرة عدة أقنية مائية متفرعة كانت تلك الأقنية متصلة بالجسور و التي تقوم بعض العنفات تحت الجسر بتحريكها أشبه بالنواعير حيث تعطي تلك الأماكن جمالاً وإطلاله مميزة، المياه باردة جداً كأنها تنبع من بين الجبال، حيث نزعوا أحذيتهم ووضعوا أرجلهم داخل المياه ثم أراد روغيان وقتها تناول حذائه فسقط من بين يديه نحو طرف الماء وبحركة عفوية حاول مسكها فلم يفلح حتى رأى نفسه داخل الماء وجرى بكليته إلى جهة حذائه الذي طفا وجرى أمامه بسرعة ثم تبعه دون أن يستطيع إيقاف جسده الذي ذهب

مع تيار الماء الجارف ولحسن حظه فإن الماء لم يكن عميقاً، كان ثمة من أناس تطوعوا ورموا بضعة أحبال صوبه وإلا لما استطاع الخروج من الماء الذي صار ينقله من ترعة لأخرى، باتجاه تلك المحركات والنواعير فإن ارتطم بها فإن تلك المحركات كفيلة بتمزيق جسده إرباً إرباً، كقطعة اللحم الحمراء داخل فرّامة اللحم، لا سيما وأن أرضيه الماء كانت لزجة يخيل للماشي عليها أنه يمشي على أرض مصنوعة من قشور الموز، ذهبت فردة الحذاء الطافية كسفينة ورقية واستطاعت الناس المتجمهرة على طرف الجسر إنقاذ روغيان عندها خرج راح يتنفس الصعداء، وبخه مروان صارخاً بوجهه:

- اللعنة على رأسك الأشبه بالبطيخ البائت لأجل فردة حذاء تريد أن تموت!

رجع روغيان من تلك النزهة المسائية إلى البيت بفردة حذاء واحدة وراح يشري حذاء جديدة في اليوم التالي،ولم يخبر والدته عن نجاته من الموت إلا بعد مرور أيام كي لا تنهار ألماً فها هو ينجو من الموت مجدداً، تلك الأيام على صعوبتها ممتعة ظريفة خفيفة الوقع على روغيان باستثناء أوقات النوم عند الليل حيث بات الوقت المخصص في الدخول لعالم التنظيم الأسود، فصراخه عند تلقيه لضربات الكابل والصفعات واللكمات ما برحت مخيلته، إنها تستوطنه فتشعره بأنه لا يزال رهينة لإشعار غير معلوم،تأمله لذلك العصفور الأبيض الذي كان يحط على إحدى صهاريج المياه، كان يتأملها من كوة نافذته، كمن يريد تقمصها لأنها تتمتع بالحرية تستطيع التحليق وقت تشاء، أغمض عينيه وقتها ليسمع أصوات العصافير وهديل الحمائم وأصوات المياه وحفيف الأشجار،حاول تنشق عطر العسلية والزيزفون علّ خوفه من

الآتي يتوقف، استسلم لصوت قطرة الماء المنبثقة من صنبور صهريج الماء الذي لم يغلق بشكل جيد، بعد سنتين من بقاءه في ميرسين عاد مع من تبقى من أهله هناك إلى كوباني، سجل في جامعة روجآفا قسم العلوم بعد نيله للشهادة الثانوية غير المعترفة من قبل الحكومة ولا من قبل أي دولة خارج تلك الرقعة المسماة بشمال شرقي سوريا، مع ذلك فإن الدراسة في جامعاتها تجلب للمرء فرصة العمل ضمن تلك الرقعة التي تشكل ضعفي دولة لبنان، قضى روغيان السنة الأولى كطالب في كلية العلوم إلا لكن غموض المستقبل وسوء الحال أجبرانه على ترك الدراسة الجامعية عند السنة الأولى ولم يكف عن المشاركة في المسرح وممارسة هوايته الخطابة والتي كان يحبها كثيراً إلى جانب ارتياده لمؤسسة الثقافة والفن وتعلمه العزف على آلة الطنبور، امتلأ وقته بكل ما يهوى ضمن محيطه البهي وتجواله في الحياة على الرغم من افتقادها للكثير، لهو معبّر عن إيمانه بضرورة وضع كل شائبة أو غصة خلف ظهره، حيث بدا يشعر أن السنوات الثلاث مثّلت ذروة استمتاعه بالحياة وطلبه للترقي واستقاء المعارف ومع بداية العملية التركية المسماة بنبع السلام واحتلالها لسرى كانيه وكري سبي في تشرين الأول عام 2019 أراد روغيان الخروج من غربي كوردستان إلى جنوبها فوصل إلى مدينة السليمانية بغية العمل هناك والتفكير بعد ذلك في الهجرة، بدأت حياة المشقة والاكتئاب تطارده فلم يوفق بإيجاد عمل يجعله بمنأى عن فكرة الرجوع لتلك البلد المهددة من قبل تركيا بعملية عسكرية، فقد باتت أجواءها مسرحاً للمسيرات وساحة تختبر فيه تركيا جودة طائراتها، وقد نجا مصادفة من قصف جوي تركي استهدف مركزاً أمنياً قريباً من المركز الثقافي، حتى وظيفة غاسل للصحون في

المطاعم لم يكن ليجدها بيسر، ظل يتردد على بعض الأماكن، وجد سوبر ماركيت داخل مول كبير فسأل أحد المسؤولين عن الماركيت فيما لو بإمكانه العمل والمبيت في المستودع، قالوا له في البداية يجب أن نجربك، قَبل ذلك، ظلوا يفلحون على ظهره كثور من الصباح وحتى الساعة الحادية عشر ليلاً بنقل صناديق المشروبات وكرتونات البضائع ونقلها من الشاحنة وترتيبها في المستودع، وحينما راح يخلد للنوم، طرق أحدهم عليه الباب وهو يغط في نوم عميق ليقول له أن ثمة سيارة أخرى فيها بعض من صناديق الكولا، تعال وانقلها للمشرب، بالكاد استطاع وقتها أن يرفع رأسه من الوسادة صارخاً بوجه الطارق لبابه بأعلى ما يمكن لحنجرته أن تطلقه من صوت :

- هل أنا عبد عندكم، أم حمار تحملون عليهم أحمالكم، أهذا وقت العمل أم وقت للراحة والنوم، أفي ساعة متأخرة كهذه تريدني أن أعمل، اللعنة عليكم وعلى اليوم الذي ترددت فيه لماركيتكم، لن أحمل شيئاً ومن فضلك اغرب عن وجهي، سأرحل منذ الغد وسأخذ أجرتي لقاء هذا اليوم الشاق

- ما بك جننت إنه عمل ويجب أن تعمل متى ما طلب منك وفي أي وقت كلنا نعمل هكذا، ثم لا تنسى أنك تنام في المستودع وليس لك مكان يأويك

عاد روغيان بعد أقل من شهر أدراجه إلى غربي كوردستان أي الشمال السوري، لمدينته كوباني، بعد طول مكوثه هناك عند بيت أحد أقاربه أملاً في إيجاد عمل آخر بلا جدوى،ليس ثمة عمل يحقق طموحه في الخروج من الشرج الأوسخ عبارة استبدلها عن سابق إصرار والتي رأها تسمية أنجع وأصح وأنسب للشرق الأوسط

عاد من معبر سيمالكا كما دخل منها و الذي تم فتحه سنة 2013 بعد الاجتماع الذي تم في مدينة هوليير أي أربيل، والذي أفضى إلى قرار يسمح بفتح ذلك المعبر للمبادلات التجارية ونقل المرضى والحالات الإنسانية

حيث يعد ذلك المعبر الوحيد بين جنوب كوردستان أي الشمال العراقي وغربي كوردستان أي الشمال السوري الشريان الحيوي الرئيسي بالنسبة للكورد السوريين يطل على نهر دجلة، بات هذا وسيلة ضغط وابتزاز سياسي يشعلها طرفي النزاع الكرديين كلما أرادوا، لهذا لا يعلم الناس متى يغلق فجأة وإن تم إغلاقه لا يدرون متى يعاد فتحه فمن يأتي للبلد يعلق فيها إن جرى إغلاق المعبر بعد دخوله، سيضطر للانتظار بضع أسابيع أو شهور ربما، والذي ينوي الدخول بعد إغلاق الممر يجب الانتظار في الاقليم بمعزل إن كان القادم يحمل جوازاً أوروبياً أو محلياً ومسألة الفتح والإغلاق تشبه مد الموج وجزره ومرتبطة بالتهادن أو الخصام السياسي

لسان حال روغيان كحال ألسنة من ليس بيدهم القرار بات يشعر أنه يعيش وسط مهزلة كبيرة، لا قيمة للإنسان فيها ولا وزن كأنه شيء زائد، عاد خائباً متعباً فلم يجد أي خيار أو بصيص أمل سوى الانضمام لمؤسسة عسكرية من مؤسسات الإدارة الذاتية يسارية التوجه، العقود فيها طويلة الأمد حيث اضطر لتوقيع عقد بقاءه في تلك المؤسسة ومدته خمسة سنوات، يقومون بتدريبهم على طائرات قديمة الصنع وعلى معرفة أجزائها وكيفية التحليق عبر الأجواء إلى جانب الدروس العقائدية، ما إن قطع روغيان السنتين ضمن تلك المؤسسة حتى استدعاه أحد المسؤولين وقال له:

- نريد تمديد العقد لك لعشر سنوات أخرى تحضّر لتوقيعه قريباً-
لقد سئمت العمل العسكري وأريد العودة لحياتي المدنية، لا أجد في نفسي الرغبة ولا القدرة في البقاء معكم
- لمن ستترك الساحة إذن، ألا تعلم المرحلة الحساسة التي نمر فيها، أهكذا يفكر الثوري الحقيقي، كف عن هذا التخاذل، راجع نفسك، هذه الطريق التي عبّدها الشهداء بدمائهم أمانة في دمنا وأرواحنا وأعناقنا،اذهب خذ إجازة لمدة أسبوع وأرجو أن تعود بعزمك وإرادتك الأولية التي جعلتك تنخرط في مؤسستنا
- رفيق لقد اتخذت قراري لا أريد الاستمرار، سأبحث عن مكان آخر أعمل فيه- .
- اذهب الآن، نتحدث لاحقاً.

تم وضع روغيان في حالة ضغط وإحراج مركزة، صارت الأعين عليه، تم خصم نصف راتبه،كعقوبة عن عدم رغبته في تمديد العقد،ولم تتوقف الاستدعاءات لغاية فكر في الخروج إلى بيروت عن طريق التهريب،لا حل سوى المخاطرة، إن تم القبض عليه في إحدى الحواجز سيضعونه في السجن ويجرون له محاكمة عسكرية والتهمة هي خيانة الثورة والوطن ونشر الوهن، استطاع الظفر بمهرب دفع له 500 دولار وتمكن بعد يومين من عبور الأراضي السورية إلى منطقة بلبنان تدعى نهر إبراهيم، هناك مكث في ضيافة أقارب والدته بانتظار أن يرسلوا له جوازه السوري الذي من خلاله سيتجه لليبيا ومن ثم ستكون الوجهة إلى إيطاليا، عند مكوثه هناك تحدث مع أخيه ريناس عبر مكالمة فيديو عن تجربته والأسباب التي دفعته للخروج:
- في تلك المؤسسة التي انضممت إليها والمتسلحة بالفكر اليساري

يتحدثون أبداً عن مناهضتهم للرأسمالية، رغم أن مبتغاهم الواقعي أن يصبحوا رأسماليين ويبلغوا السلطة بكل الوسائل، حيث يرفضون أي حديث عن الفرد وحريته أو حقوقه كونها في نظرهم بدع رأسمالية، جل سعيهم هو قولبة الفرد وجعله بكليته منسجماً متناغماً تماماً مع القالب الذي يريدونه هم فيه وليس العكس، بمعنى آخر يودون جعل كل المنضوين تحت سلطتهم نسخاً مستنسخة عما ينادون به، حاله كحال كل متدين متزمت ملتزم بحرفية بكل الطقوس الدينية مستوطناً برجه العاجي، حيث كونك عضو هناك فأنت مجبر على الخضوع لتدريبات مغلقة مكثفة فالجلسة فيها لا تقل عن 5 ساعات متواصلة، ولا يهم ماذا ستأخذ من مضامين تلك الجلسات وما كم المعلومات الإيديولوجية التي ستتلقفها وتؤمن بها حقاً، المهم هو أن تطأطئ رأسك إيجاباً وتثبت التزامك وتشبهك بهم، وإياك أن تقرأ أي كتاب خارج كتب القائد، فهو خاتم الفلاسفة بالنسبة لهم، ذات مرة رأوا في يدي كتاباً يتحدث عن عصر الأنوار، راح المشرف على الجلسة يقول لي:

- رفيق لماذا تقرأ هكذا كتب، ما بها كتب القائد، ألا تملئ ذهنك؟!، غريب أنت إذن فأنت لا تتقبل هذه الأفكار أو أنك ترى نفسك مختلفاً عنا

- ليس الأمر كذلك

-بلى هذا واضح.

هناك لا يجب أن تمشي لوحدك، ولا أن تترافق مع صديق أو اثنين من أصدقاءك،سيتم وسمك مباشرة أنك رجل تبحث عن الشللية أو ميال لإنشاء التكتلات، وتلك التهم جعلتنا نبتعد عن الانزواء أو الجلوس بمفردنا أو مع من نريد التحدث معهم، رغبتهم هي في إخراجك

من عالمك المألوف إلى عالمهم وتصورهم حيث يعقدون معاً حلقات الأناشيد أو قراءة الأشعار أو حتى تبادل النكت والعزف على البزق لكن كل ذلك يغطيه قالب واحد يمجد الروح اليسارية ويتعصب لقيم التحزبية بالمطلق حتى بالقهقهة أو مضغ اللقمة أو طريقة الجلوس، رغم ادعاءهم أنهم ضد اللون الواحد أو العقلية الشمولية، في هذه العوائد والطقوس وطريقة التفكير يشبهون كثيراً تنظيم الدولة الإسلامية بالرغم من عنف وتوحش الأخيرة، هم يعتقدون أنهم قمة في الرقي وفهم الحياة ومنبع الثورية والاشتراكية وحماة المجتمع إلا أنها في الواقع مجرد مزاعم لا صلة لها بالحقيقة، ذات مرة تنطع أحد الكوادر ليقول:

- رفاق اتركوا الأشياء المادية، تخلوا عن جوالاتكم، وكذلك الإنترنيت وتخلوا عن الحاجات الدنيوية وكذلك عائلاتكم، نحن الآن عائلتكم الحقيقية الجديدة

قلت في نفسي عندما تأملته وسمعت هذا اللغو:

- أين سمعت شبيهاً لهذا الكلام يا ترى من أبي سراقة أم من أبي علقمة المهاجر ذات المعنى لكن بنكهة يسارية !

والبعض من رفاقي تأثروا بهذه الأجواء وتاهوا في تلك المتاهة فالذين حرموا لأسباب تتعلق بشظف العيش من وسائل الراحة في بيوتهم أو كان لهم مشكلات عائلية مع أهلهم أو أقاربهم،تعلقوا بتلك البيئة الجديدة وتأقلموا معها، وقد فضّلوا علينا تلك الفئة تحديداً كونها سريعة الانقياد، عديمة الثقافة، قدمت من الأرياف ويسهل التعامل معها مقارنة مع الذين لا يسهل غسل دماغهم كونهم ينتقدون دوماً و يدافعون عن آرائهم وقد تم نعتهم بكونهم خارجون عن التنظيم فكرياً كما دأب تنظيم داعش تسمية الفئة الخارجة عنها بالخوارج أما عن

العقوبات فإن وجدوا في البعض أنهم مصدر قلق فإنهم يعممون اسمه بين كافة الرفاق لأجل مقاطعته وعدم الاحتكاك به وكذلك يخبرونه هو بألا يتحدث مع الآخرين تحت أي ظرف، وأية مخالفة لعقوبة المقاطعة تلك، يحال الفرد إلى محكمة عامة يسمونها بالبلاتفورم، حيث يتم إيقافك في ساحة واسعة بحضور زملاءك والهجوم الكلامي التعنيفي ضدك ليجعلوك تتمنى العودة لرحم أمك ويجعلونك تشعر أنك عار تاريخي، يجردونك من قيمك وأخلاقك وشرفك فتخرج من تلك المحكمة ولديك إحساس أنك عار بلا ثياب أو مجرد خرقة بالية، لم تك هنالك أية لحظات جميلة سوى بضع لحظات تتعلق بعقد الدبكات والرقص، وكذلك عندما كانوا يرسلوننا للمحرس حيث كانت لدينا هناك حرية في خلع بناطليلنا والبقاء بسراويلنا حيث كنا نستطيع أن نغني كما نريد،حيث لا يسمح ضمن المؤسسة بسماع الموسيقى عدا الثورية المعبّرة عن تأهبك الدائم لأن تكون فدائياً مستعداً للموت في سبيل الثورة، الحزب والقائد

عندما سمعوا بنبأ هروب روغيان إلى لبنان عن طريق التهريب، أصدروا بحقه مذكرة تحرٍ، أبلغوا العائلة بضرورة أن يلتحق أحد الأفراد ليملأ مكانه، وهنا أجابوهم بأن أخوته متزوجون لديهم أولاد وملتزمون بأعمالهم، عندها تم الصمت حيال هروبه كونه ليس الهارب الوحيد فخروج الشباب من عموم سوريا والمناطق التي تشبهها في عموم الشرق الأوسط هو نتيجة انعدام فرص الحياة بخاصة في سوريا حيث تشهد المنطقة ظاهرة غير مسبوقة بخروج الفئات الشابة أفراداً وعائلات للهجرة إلى أوروبا سالكين دروب الخطر وما روغيان إلا واحد من هؤلاء الذين فضلوا المجازفة بحياتهم لأجل حياة أفضل أو الموت دون ذلك

عبرت السيارة التي أقلّت روغيان ومن معه إلى المناطق الوعرة التي تتخللها سلاسل من هضاب ووديان، لتلافي الحواجز التي إن صادفته وأوقفته فإنه سيتم اعتقاله وتوجيه تهمة الهروب من الواجب وحكمها خمس سنوات على الأقل، استطاعوا الخروج من المناطق التي تسيطر عليها قوات سوريا الديمقراطية وكذلك تفادوا حواجز النظام السوري واحتاجوا يوماً كاملاً لأجل ذلك ثم تم وضع المجموعة في سكن خرب أبقوا روغيان لوحده لغاية صباح اليوم التالي، وعند قدوم الصباح أدخلوه في السيارة ليكملوا رحلتهم حتى وصلوا مشارف حمص، ثم أدخلوهم في تاكسي أكبر أشبه بحافلة صغيرة اكتظت بمجموعة نساء وأطفال وعند الوصول لمقربة من الحدود السورية اللبنانية، راحت يد بعض المهربين تمتد على النساء فأخذوهن للوادي اثنتين اثنتين فضاجعوهن الواحدة تلو الأخرى وبعد الانتهاء منهن عدن مكسورات القلب لوحدهن ليركبن الحافلة، ولم تفلح توسلات تلك العجوز الحلبية حين أخذوا ابنتها البكر إلى الوادي ولم تفد مقاومة أو تمنع أو صراخ أي منهن فعادت بنتها تبكي بصوت خفيض وكانت لغة التواصل مع الأفراد عبارة عن شتائم متعددة القبح وإهانات لا حصر لها توجه إلى من أعطوا ناصية القيادة لهم من مثل:

- يا أخوات الشراميط أخفضوا رؤوسكم كيلا يراكم أحد.

يزمجر آخر:

- يا كوردي يا جحش شو قلتلك أنا.

وأخيراً قطعت الحافلة الحدود وكذلك تلك الدراجات النارية الكبيرة التي أقلت أعداداً من الشباب فوق طاقة تلك الدراجات الاستيعابية وقطعت بعض الطرق والتلال مسرعة حتى وصلت إلى لبنان.

بيروت19.04.2023

كتب روغيان لريناس عبر الواتسآب

- ذهبت لرؤية البيت الذي سأنام فيه وهو قريب من المطعم الذي لم يمانع صاحبه في أن أعمل فيه لم يكن يصلح للسكن، فقد كانت نوافذ تلك الغرفة مكسورة، ولا باب للغرفة ولا حتى فراش يمكن النوم عليه، أضاف لي صاحب المطعم أن مدة العمل 12 ساعة، ولا توجد عطل ولا استراحات لدينا.

29.04.2023

لم نعد نستطيع الخروج من غرفتنا،عناصر الشرطة اللبنانية تلقي القبض على السوريين الذين دخلوا إلى لبنان عن طريق التهريب، ثم يقومون بتسليمهم للحكومة السورية، صار لي يومين لم أخرج، وقد ألقوا القبض اليوم على اثنين من الشباب ممن كانوا معنا في السكن، المخابرات في كل مكان.

ارتديت بلوزتي السوداء، وحذائي، كنت ذاهباً عند كاوا لأحلق شعري، تذكرت ما قاله فراس ابن عمتي زهرة أنه بين فترة وأخرى يغير من ثيابه وتسريحة شعره ليشبه اللبنانيين، كي يظل بمنأى عن الاعتقال، ارتديت من عنده تلك البلوزة التي لم يكن يرتديها،وبينما عدت من عند الحلاق كاوا عند حوالي الخامسة مساء وجدت نفسي فجأة بين الدرك اللبناني،كانوا قد مسكوا بعضاً من الشباب السوريين وأداروهم صوب الحائط، عندما أوقفني عنصر من الدرك سألته بلهجة لبنانية:

- باردون بوصتات نهر إبراهيم من أي ميلة بيمرقوا؟

فأرشدني العنصر لموقف الباص بكل أدب، وهكذا استطعت النجاة

من الاعتقال

أما أروهان ابن فجر المسكين وكذلك مصطفى قريب ابن عمي كاميران فقد كانوا يرتادون منطقة جسر الكولا وعند رجوعهم منها تم اعتقالهم من قبل الدرك لأنهم لم يحتاطوا و استطاعوا التحرر منهم بأن دفع أحدهم لعنصر لبناني مبلغ 200 دولار مقابل تركهم وشأنهم.

19.05.2023

أرسل روغيان صورة تذكرة الطائرة إلى أخيه ريناس الذي يتابعه عن كثب: غداً ليلاً سأذهب إلى مصر من ثم إلى ليبيا،أرسل أيضاً بعض الصور التي التقطها وهو يتجول عند الشاطىء والحديقة كتب أيضاً:

- تأجلت رحلتنا لأننا أخطئنا في توقيت ذهابنا للمطار، إنه خطأ المهرب الغبي، موعد مغادرة الطائرة عند الحادية عشر صباحاً وليس مساء

- ألم ينتبه أحد منكم لتوقيت الذهاب.

- لا

26.05.2023

يرسل روغيان لأخيه مقطع فيديو وهو على متن الطائرة التي ستحط في القاهرة مصر،وصل في الليل وبقي هناك في المطار لليوم التالي حيث ستتابع الطائرة رحلتها لمطار طبرق الدولي الواقع جنوب مدينة طبرق ويعتبر المطار من أقدم المطارات في ليبيا حيث حطت عليه شخصيات عالمية من رؤساء وملوك مثل مؤسس الفاشية الإيطالية بينيتو موسوليني والملكة إليزابيث الثانية ملكة المملكة المتحدة والأمير آندرو دوق يورك وكذلك ولي عهد أبو ظبي رئيس دولة الإمارات المتحدة

28.05.2023

وصل لمطار طبرق، هناك انتظر المندوب ليأخذه من المطار، تجاوزوا الحواجز الطرقية بأمان ومن ثم وصلوا فيما البعد إلى شقة، حيث يحتاج أربع ساعات حتى وصوله البحر قرب نقطة الذهاب، كتب لأخيه:

- تم زجي مع مجموعة من المهاجرين ممن يريدون الذهاب إلى إيطاليا هناك أيضاً ثمة صعوبة في الخروج والتجوال، حيث شددت الشرطة الليبية على المنافذ والطرق وضيقت على المهربين ممن ينوون الهجرة،في تلك الشقة احتشد أكثر من 24 شخصاً من مدينة كوباني وكذلك بعض المهاجرين المصريين وكذلك بعض القادمين من مناطق جنوب سوريا، أرى الخوف في عيون البعض، لكني لست خائفاً، معنوياتي عالية وأستمع لأغنية شاكيرا عبر سماعة التلفون، نذهب اليوم إلى البحر، لكني لا أعلم موعد الرحلة، نحن الآن سبعة أشخاص، أربعة منا من كوباني، سأغلق بيانات الهاتف الآن، سنتحدث في وقت لاحق

الساعة -22:43

- لقد وصلنا للبحر، نقطة الانطلاقة.

29.05.2023

- أهلاً أخي،حولي ضجيج، لا أستطيع الاتصال.

02.06.2023

- أمس عند الساعة الثالثة فجراً انتقلنا إلى شقة أخرى،الأحوال هنا معقدة الشرطة تعتقل الغرباء، لهذا خرجنا،نتحدث لاحقاً

- هل حدث بين المقيمين في ذات الشقة أي شجار أحد ضرب آخراً مثلاً

- ذات مرة تشاجر شخصين، فجاء آخر ليبي ضرب الإثنين.

- عدا ذلك يمنع التحدث بصوت عالٍ، يهينون البعض أحياناً والمصريون هم الأكثر تعرضاً للعنف هناك

- صحيح، المهربين مافيا وممارسة العنف لديهم شيء طبيعي،ستلاحظ في هذه المرة أشياء عديدة ومهمة، تعينك على كتابة رواية مؤثرة، كونك ذو تجارب تجربة بقاءك معتقلاً عند داعش الإرهابية، وكذلك عملك مع تلك المؤسسة اليسارية المتطرفة والآن عالم تجارة البشر.
- لا بأس كل شيء سيعبر، لنتخطى أولاً ما نحن عليه بعد ذلك يحصل خير

06.06.2023

قرأ ريناس خبراً مؤلماً عن غرق قارب يحمل 26 مهاجراً غالبهم من سوريا بينهم نساء وأطفال، و8 جزائريين، القارب انطلق هذه المرة من أحد سواحل الجزائر ولاية تيبازا وكانت الوجهة إلى إسبانيا، الناجون فقط شخصين أحدهم يدعى محمود رشو من كوباني والذي وصل سباحة إلى الشاطئ والآخر جزائري لم يعرف اسمه و قبلها بتاريخ 26 نيسان2023 غرق قارب انطلق من ساحل وهران الجزائرية نحو اسبانيا يحمل 17 مهاجراً، غالبهم من مدينة كوباني، حلمهم الوصول إلى أوروبا فالحياة تحت رحمة المسيرات التركية وانعدام فرص العمل والأمان هي موت من لون آخر، هذا سيجعل تجارة شبكات التهريب رائجة وفيرة مع غياب الرقابة وحماية حقوق الأفراد، فالتجارة بالأرواح طريق سهلة للحصول على المال بتغاضي الأمن أو تواطؤهم مع مدراء شبكات التهريب

07.06.2023

- روغيان هل لا زلت في الفندق؟
- أهلاً ريناس نعم أنا هناك، سمعت أن ابن عمي روان وصل لإيطاليا مجموعته سبقتنا ووصلت لوجهتها أصبح لدي أمل، بعد وصوله بالسلامة
- ألن نستطيع الحديث؟

- بلى ممكن في أي وقت تريد
- لماذا لا تعودون إلى الشقة؟
- في الفندق ثمة أمان أكثر

07.06.2023

- روغيان كيف حالك هل ثمة جديد
- أهلاً ريناس، أنا جالس في الكافيتيريا، أشعر بالملل استيقظت عند الرابعة لم أتناول شيئاً،أموري جيدة، أبي يرسل لي مصروفي، هنا الأسعار ليست باهظة مقارنة مع الدولار

09.06.2023

الخميس- الساعة :01:46

- أنا في المخزن الآن،غداً صباحاً نركب القارب وننطلق إن شاء الله

(قبل ساعة)

خرج روغيان آزاد وكاميران من الفندق، التاكسي بانتظارهم، الوقت في تمام الساعة الثانية عشر، من ثم نزلوا من السيارة، أكملوا الطريق مشياً حوالي الساعة والنصف، دخلوا الصحراء، المهاجرون هناك توزعوا على شكل مجموعات، تم فرزها على حدة حسب الجنسيات مصرية سورية باكستانية، أفغانية ونيجيرية وهكذا، هناك استقبلتهم عصابة ملثمة ترتدي ثياباً صحراوية، تلبس صنادلاً بلاستيكية، وترتدي بناطيل قصيرة، وبعضهم ارتدى الكلابية الخليجية،بيد بعض أفرادها سجائر حشيش، وجوههم أشبه بالكلاب المسعورة، تتحدث اللهجة الليبية بيد عناصرها خراطيم مياه وكرابيج،فمرَّروها على ظهور وأكتاف كل من نزل من السيارة إلى جانب عدد من الصفعات المحدثة دوياً على الخدود والرقاب، رتبوا لهم حفلة استقبال لائقة كتعبير عن

القتام الذي ينتظرهم :

- اجلسوا هنا وأنتم قفوا هناك كانت ثمة بضع سيارات ماركة تويتا تخصهم، واقفة هناك.

الساعة:01:30

وضعوا حوالي 300 نفر في شاحنة بلا سقف،باتوا كقطع البلوك المرصوفة لشدة الازدحام، حيث يمكن النظر من بعيد إلى طرفي الشاحنة لوجوه المهاجرين الكالحة فتخالهم رؤوس غنم يتم نقلها إلى المسالخ أو إلى الأسواق، أو فراريجاً يتم وضعها في أقفاص ونقلها إلى معامل تربية الدواجن، فبالكاد يمكن التنفس لشدة الاكتظاظ، صاروا فوق بعضهم بعضاً والصراخ وضيق الأنفاس والتأوه لا يكاد يتوقف للحظة، ناهيك عن محاولة إسكاتهم من خلال السياط، استمرت الشاحنة بالمسير بهم لنصف ساعة لمكان جبلي يشرف على واد سحيق، بعد ذلك أنزلوا من في الشاحنة كأنهم أكياس زبالة يتم قذفها، وأمروهم بقطع الطريق ركضاً حتى الشاطئ

- اركضوا أيها البهائم بأقصى ما لديكم من طاقة هيا.

أحد أفراد العصابة أوقف روغيان وقال له:

- من أنا

- وما أدراني من أنت

راح سوطه يلسع بشدة ظهر روغيان:

- أنا القائد يا حيوان!

راحت السياط تلسع ظهور ومؤخرات المتباطئين والمتأخرين عن زملائهم، استمر الركض حوالي الساعة، سقط كاميران لمرتين، مد له روغيان يده وتابع الركض، تأخر روغيان فقام آزاد بمسك يده حتى صاروا يركضون

معاً وطيلة ذلك الركض تناولوا الكثير من الصفعات ولسعات الكرباج حد التخمة، كانوا يوقفونهم بتلك الطريقة حتى تمضي المجموعة الأمامية وعند مرورها يسمحون للتالية بمعاودة الركض كأنهم في درس النظام المنظم.

03:00

ثمة بضع زوارق صغيرة تنتظرهم عند الشاطئ، الزوارق مؤلفة من طابق واحد وقبو، أدخلوا في كل زورق 40 شخصاً إذ كاد الزورق أن ينقلب إزاء هذه الحمولة من البشر عليه

- أخرجوا كل ما لديكم من مال بهدوء.

وضعوا أيدهم في جيوب الركاب وأخذوا كل ما وجدوه من أموال نقود ليبية أو دولارات، روغيان ورفاقه قبل ذلك دفعوا 100 دولار لأجل أن يظلوا في الطابق الأعلى، بعد أن همّ شخص أسود الوجه طويل الشعر والقامة بدفعهم باتجاه القبو، فالقبو لم يكن بالضرورة مخصصاً للنساء والأطفال وإنما أدخلوا فيه مجموعة باكستانيين بسطاء يتملكهم الحمق والعند في كثير من الأحيان، وعبر تلك الزوارق ساروا بهم إلى نقطة القارب في منتصف البحر، لم يسمحوا للجميع بركوبه فالذين لم يدفعوا مبالغاً إضافية قاموا بإرجاعهم.

- قبل أن تركبوا القارب قوموا بإلقاء كافة أغراضكم.

جلب البعض مياه الشرب وقطع البسكويت كي تسد رمقهم في الطريق لكن المشرفين على القارب أرغموا الجميع قبل الركوب على إلقاء ما قاموا بجلبه رجل ستيني مريض أراد أن يصحب أدويته معه فرفضوا ذلك، أخذوا منه أدويته وقاموا بضربه، عندها أدرك روغيان والبقية المأزق الذي هم فيه، بخاصة عندما تفاجئوا بأعداد المهاجرين الهائلة

التي تم زجها في القارب، حيث لا يستطيع أحد التراجع أو العودة من هناك،أجلسوهم في الطابق الأعلى وليس في القبو بمجرد خروجهم من الزورق و دخولهم لذلك القارب الذي يسمونه بالجرافة، حتى انهال عليهم مجموعة مصريين ضرباً بالأيدي، كانوا برفقة قبطان السفينة وكادوا يضعون روغيان وآزاد وكاميران في القبو لولا أنهم دفعوا مائتي دولار فسمحوا لهم في التموضع والجلوس في الأعلى.

العتمة توشك على الانجلاء وبدأت السماء تلبس لون البحر الأزرق رويداً رويداً وما زالوا يكدسون ظهر القارب بالمزيد من المهاجرين كباراً وصغاراً، أطفالاً ونساء، كل فرد صار يجلس مكوماً ركبتيه التي باتت بمحاذاة صدره، حتى يتسع المكان لمن يتم زجهم زجاً لضيق المكان، حيث لا مجال لتغيير وضعية الجلوس أو المشي، فمن يضطر للمشي فإنه يعبر على أجساد من حوله، أما الصراخ وإطلاق الشتائم والضرب فلم يتوقف، ترنح القارب ومال يميناً ويساراً كأنه سينقلب إلا قليلاً، وبالكاد يمكن للغالبية أن يتنفسوا، كأنهم يتأرجحون على أرجوحة ثم وزعوا على كل مهاجر رغيف خبز وبضع تمرات لأجل يوم واحد.

10.06.2023

ازدادت حالات الإقياء هنا وهناك، صاروا يتقيؤون على بعضهم بعضاً بالتزامن مع اشتداد هبوب الرياح بشكل مفاجئ، مما ارتد ذلك القيء على الجالسين ولوثت وجوههم ملابسهم وغطت أعين البعض الآخر وسط صراخ الأطفال و بكاء الأمهات، الطعام والشراب يكفي إلى غد بيد أنهم ألقوا بكميات الطعام من جبن وتمر وخبز وماء إلى البحر، بذريعة أن وزنها ثقيل وكي تخف حمولة القارب، أصوات الشجار بين مجموعة باكستانيين ومصريين صارت تتصاعد وتيرتها شيئاً فشيئاً،

محرك القارب يتعطل كل ثلاث ساعات ثم يعاود العمل، صار الجوع والعطش سبباً من ازدياد الضيق والغضب من ثم الشجار العنيف، ثمة مجرور مياه أصابه الصدأ يستوطن مكاناً من القارب وضع أحد المصريين المشرفين على سلامة القارب قدمه فيها، راح البعض يشرب منها وهذا الماء أيضاً نفد في اليوم الثالث، مما اضطر العطشى لشرب مياه البحر، روغيان توسل لأحدهم ولنصف ساعة أن يعطيه قطرة ماء واستجاب له بأن شرب تلك الجرعة المتبقية من تلك العلبة، مذاق تلك الجرعة ممتزج بطعم الشحم.

11.06.2023

مر يوم الغد ثقيلاً مشمئزاً، طاقم القارب يصرخ على المهاجرين لتبديل أماكن جلوسهم يميناً ويساراً، خشية من انقلاب القارب، الحاجة للطعام والماء تزداد مع الوقت، كبار السن والأطفال صار بعضهم يسقط على الأرض، بعض الأطفال أغمي عليهم، روغيان كغيره أراد التبول، لكنه لم يستطع لسبب نفسي، شعور التأهب والاستعداد منع الكثيرين من الاسترخاء وقضاء الحاجة، عند روغيان علبة ماء فارغة قرّب فوهتها من قضيبه، مثانته ممتلئة ومع ذلك لا يخرج البول، راح ينشغل بالحديث حيث وضع أحد أصدقاءه يده على ظهره وعندها نجح في التبول،لم يكن من السهل التبول فحالة الكثيرين النفسية حالت دون ذلك، حمودة صار له ثلاث أيام لم يتبول، عندما يريد الذين انتهوا من التبول أن يلقوا تلك العلب المحتوية بولهم إلى البحر فإن الرياح بدورها تهب لترد بولهم على وجوههم، كلما أراد أحد التبول واقفاً راحت الرياح تقوم بتحريف مسار بوله باتجاه الجالسين، روغيان ورفاقه لم يتبرزوا لأسبوع منذ رحلة مسيرهم من مكان لآخر، فمن يريد التبرز فإنه

يستخدم كيساً والبراز في غالبه عبارة عن سائل حيث أصيب الكثيرون بالإسهال،فعندما يتم إلقاء هذه الأكياس بعد الانتهاء من التبرز فإن بعضها وبسبب هبوب الرياح يرتد مجدداً على المساكين كأن السماء تتساقط قيئاً، بولاً وخراء.

12.06.2023

شعر القبطان لوهلة أن البوصلة انحرفت عن مسارها وإنه يمضي باتجاه اليونان وليس إيطاليا، اقترب أبو شادي الليبي من القبطان ليعطيه بعض التوجيهات، بعض الناس خوفاً صارت تستغيث وتدعو الله وتصلي في قرارة أعماقها، لم يستطع القبطان ولا الطاقم الموجود معه في السيطرة على الأصوات والذين بدأوا في الشجار،وصار المهاجرون عندها يتحدثون شذر مذر، واندلع شجار بين بعض مصريين وباكستانيين، عن طريق الخراطيم وباستخدام اليد التي لم تتعب من إرسال لكماتها على الوجوه، وجرى استخدام السكاكين أيضاً في ذلك الشجار العنيف في القبو أسفر عن ذلك الشجار مقتل ستة أشخاص أربعة باكستانيين واثنين من المصريين، مما اضطروا لحمل تلك الجثامين الستة معهم، لقد قطعوا بعضهم تقطيعاً وبات القبو عبارة عن مشرحة بشرية.

13.06.2023

- هل من أحد يجيد التحدث بالإنكليزية، سنطلق استغاثة لأحد المراكز المعنية بإنقاذ المراكب.

شخص اسمه سيف تولى مهمة الحديث مع وكالة الإغاثة،برفقة ثلاث نساء، إحداها حملت طفلها في يدها ثم راحوا يتبادلون الحديث مع الوكالة حيث صعدن مع سيف إلى الطابق الأول، فراحوا يطمأنون الناس

بأننا قد طلبنا المساعدة وسيأتون سريعاً لإنقاذنا، راحت مروحية تحلق لمرتين حول القارب،تصاعدت وتيرة الشجار بين المهاجرين استجابة لغريزة البقاء على قيد الحياة، صاروا يسرقون اللقمة من يد بعضهم البعض قبل أن تصل الفم، كذلك المياه، حيث تأهب الجميع للحظة السطو على المياه لو جرعة صغيرة، فقد اعتادت الأيدي وتمرست على الشجار والقتال والاستشراس في سبيل ما يسد الرمق، فالصراخ والزجر والأنين من شدة الوجع أو الجوع والعطش عم أرجاء القارب كأنها أعداد كثيفة من النحل تتحلق حول الشمع لاح الضباب السابح في البحر وكشف عن قرب وجود سفينة تنقل النفط مكتوب على ظهرها ممنوع التدخين، استبشر المهاجرون خيراً، فاعتقدوا أنها قادمة لإغاثتهم، عند اقترابها راحت ترمي علب المياه إلى المهاجرين العطشى بواسطة حبال، فقام بعض مما كان في السفينة ببدلاتهم الأنيقة وياقاتهم الجميلة بتصوير ذلك المنظر عبر كاميراتهم مستمتعين برصد حالة الجنون التي عمت القارب بغية سد ذلك العطش اللعين والذي ألغى أي دور للعقل أو الصبر،ألقى روغيان بنفسه إلى علبة ماء فقام بشربها وأعطى العلبة لآزاد وكاميران وبدأوا، بالشرب، بيد أن الكثيرين لم يتمكنوا من الوصول للمياه والارتواء من شربها، فذهبوا باتجاه علب المياه الملقية على يمين القارب مما مال بشدة وكاد ينقلب عندها،أطلق البعض بيأس صحيات الاستغاثة باتجاه تلك السفينة فلم تستجب لتلك التوسلات، فلوحوا لهم بإشارة لا، تغيرت حركات المهاجرين وباتوا أشبه بالوحوش فالصداع يزداد والجفاف يكوي الحلوق العطشى منهم من أصيب بالهلوسة وصار يهذي والبعض أصبح شبه ميت.

14.06.2023

بعد منتصف الليل جاءت سفينة خفر يونانية على متنها أفراد مقنعين، حمل بعضهم: السلاح، وفي مقدمة السفينة كان ثمة دوشكا، فقال أحدهم لنا:

- اتبعونا سنأخذكم إلى حيث تريدون.

القبطان أصيب حينها بالجلطة مما أدى إلى وفاته على الفور، وتوقف محرك القارب فجأة، فناب مساعد القبطان عنه في إدارة دفة القارب بعد إصلاحه، وظلوا يتبعون سفينة الخفر اليونانية لمدة الساعة والنصف حتى تعطل المحرك فجأة وتوقف القارب، فعاد سفينة الخفر تلك إلينا ليفهموا أسباب التوقف.

حيث قامت بربط منتصف القارب الجهة الخلفية، بعد تقريبها إلى سفينتهم مدوا بحبل سميك ومتين إلى منتصف السفينة وقاموا بربطها بإحكام ولكي يتوقف ميلان القارب يميناً ويساراً بسبب تلاطم الموج، قاموا بنفخ بالونين كبيرين على جانبي الحبل الكبير وأبقياه كدعامتين تمنع القارب من الميلان عند المسير، حتى تأكد الجميع أن القارب سيتبع السفينة كما لو كانت جزء منها وعلى نحو مستقيم فبدا القارب خلف السفينة أشبه بقطار مؤلف من فارغونتين، راحت السفينة لربع ساعة تقريباً تمضي بهدوء إلى لحظة فصلهم للحبل والاستعاضة عنه بكابل رفيع تم ربط القارب من خلاله بسفينة الخفر التي ابتعدت عن القارب لمسافة وظل الكابل الرفيع يستطيل بينهما، فأقلعت السفينة بسرعة مباغتة واستدارات وعند التفافتها المفاجئة انقلب القارب بقوة بمن على متنه فتساقط الناس منه كطبق المقلوبة على الصينية لحظة الانقلاب بدت مرعبة لروغيان الذي كان على الزاوية المقابلة لتلك المتهاوية في المياه فقز إلى الخلف فوقع في القبو ظل بضع ثوان

داخل القبو، سمع أصوات الناس العالقة في القبو وطرقها للباب عساها تتمكن من الخروج، فلم يجد نفسه إلا وقد خرج عبر النافذة إلى جهة أخرى تحت المياه، حاول خلع ملابسه، معطفه في البدء،علقت ذراعه قبل أن يتمكن من التخلص من المعطف، فلم يعد يستطيع لا نزعها ولا لبسها، تمكن أخيراً من تحرير إحدى ذراعيه وتمكن عبرها من تحرير ذراعه الأخرى، نزع حذائه، بينما ذهب لأسفل سطح البحر، حاول نزع بنطاله، إلا أن وصل إلى قدميه ولضيق فتحته عند القدم بقي عالقاً لبرهة عند قدميه، فعاود لبس بنطاله وشد قشاطه، وعند دخوله في الماء أحس بسكرات الموت وأنه بات يفقد مقاومته، أعداد الجثث الطافية تزداد فوق البحر، راح يعصر نفسه قائلاً:

- يا الله ، لن أموت في هذا البحر، إلهي أخرجني، لن أموت اليوم ما يزال لدي أهداف وأحلام

شعر بموته المؤكد،لساعتين بقي في الماء وعندما أخرج رأسه من البحر بدأ إنفه يدفع الماء بعيداً فانبعثت غرغرة ما عند دفع الماء متنفساً بعمق وسرعة، أحس بأمل بات يلغي موتاً مؤكداً، لم يعثر على أي قطعة أو لوح خشب،عندما رجع جسده أسفل الماء مع ذلك لم يتبدد أمل نجاته،راحت تلك الأكوام البشرية تحاول إنقاذ نفسها بالتسلق على أجساد بعضها بعضاً،،تشبث أحد برقبة روغيان، فأبعده الأخير عن رقبته بواسطة لكمة من يده، في الآن ذاته قام روغيان باستخدام أحد الأجساد المتهاوية كوسيلة لمحاولة الطفو على الماء والتنفس، حيث راح يمسك أحدهم ويصعد عليه كي يطفو كما فعل آخر صعد عليه كي ينهض، ثم فجأة مسك أحدهم بكامل جسد روغيان لينزل الاثنان معاً للأسفل، ولم تك سوى اللكمات وضربات الأرجل سوى وسيلتين

لإبعاد المتسلقين المتهالكين، عندما دخل الماء استرخى وعمه الهدوء لدقيقتين وعندما بدأ صدره يضيق بدأ يستجمع قواه حتى طفا مجدداً ورفع رأسه من البحر كصاروخ يحاول الانطلاق من القاع مبدياً أقوى ما لديه من إحساس في التنفس العميق هذا الدخول والخروج كان بمثابة تعذيب متكرر لم يجد من بد لعيشه، عندها تأكد أنه قادر على الطفو عندها راح يبتعد عن الناس ما أمكن له ذلك حتى من سفينة الإنقاذ تعلم روغيان كيف يبقي على نفسه ممدداً في الماء دون أن يحرك نفسه ذات مرة أراد أن يستغيث فشعر أنه ذهب إلى تحت فعدل عن تكرار الاستغاثة، راحت أطياف العائلة تحوم حوله وبينما راح يسترسل في التذكر واستحضار وجوه عائلته بزغت من جديد سفينة الخفر تلك، شعر ببارقة أمل، ومع قرب مضيها باتجاهه أطلق صيحته المدوية بكل ما يملك من قوة فصار تحت المياه وبصعوبة راح يطفو مجدداً، رموا إليه حبلاً فلم يفلح بمسكه عند المرة الأولى وغاب تحت المياه مجدداً وخرج فرموا إليه مجدداً ذلك الحبل نجح في التقاطه كأسد جائع يلتهم فريسته، لف بالحبل ذراعيه ويديه ورقبته وساقه بينما هو بداخل الماء فخارت قواه واستسلم تاركاً المهمة لفريق الإنقاذ حيث أخرجوه من البحر وصار على السفينة.

مناورات الموت والبحر

كل من ريناس ورودر الأكثر حديثاً وتواصلاً مع روغيان، يروي هنا رودر حالة الانتظار لغاية سماع نبأ عن مصير روغيان:

- عندما اتصل بي في يوم الخميس عند الساعة الواحدة بعد منتصف الليل لم أستطع النوم فيما بعد كتب يقول:

- الأجواء جيدة، نجلس على رمال الصحراء كمجموعات، اليوم سنكون في القارب بتمام الساعة الثالثة والنصف وسننطلق بعد ذلك إلى وجهتنا المفترضة إيطاليا، وبمجرد وصولنا سأحاول الاتصال بك في أقرب وقت آخر إشارة أرسلها لي عندما كانوا في قارب صغير يسمونه بالجرافة متوجهين إلى ذلك القارب الأكبر الذي سيتوجهون به إلى إيطاليا

مرت الأيام الأربعة على نحو يسير حيث كنت أعلم أن هكذا رحلة تستغرق قرابة الأسبوع، عندما كانت الأيام تمضي دون أن أسمع أي خبر بخاصة بعد أربعة أيام، أحسست بصدري بدأ يضيق من هذا الانتظار، حيث لا أستطيع شيئاً حيال ذلك سوى الترقب وما من أحد بإمكانه أن يعطيني خبراً، بدأت أشعر أني غير متوازن أو بعبارة أخرى أن خطباً ما قد يحدث أو قد حدث أو سيحدث، ثم بدأت أتصفح مجموعة على الفيسبوك اسمها عرب أوروبا، وتوقفت عيني على خبر غرق لقارب يحوي حوالي 750 شخصاً بينهم نساء وأطفال،انطلق من ليبيا وتحديداً من ميناء طبرق، وبسبب تعطل البوصلة فإنها انحرفت بوجهتها ودخلت المياه اليونانية،هذا الخبر صدمني بشدة، لكني لم أكن متيقناً منه أو لعلي لم أكن أريد الاعتقاد أن هذا القارب قد يكون ذاته

الذي أقلّ روغيان ومجموعته، فقد انطلق يوم الخميس قارب ومن ثم تلاه في يوم السبت عبور قارب آخر فأي قارب منهما هو الغارق،قرأت خبر غرق المركب يوم الثلاثاء الساعة العاشرة مساء، لقد عانيت هذا الانتظار البشع أكثر من غيري،ولمدة يوم كامل، كنت أتحرك على جمر ساخن،بعد ذلك صرت متأكداً أن هذا القارب الغارق هو الذي أقلَّ أخي ورفاقه وابن عمي البكر، رحت كالمجنون أكاتبه مرة على الواتسآب ومرة أخرى عبر الفيسبوك أن كن قوياً وشجاعاً ولا تمت ، ذهبت لعملي وقتها ولم أعمل، قدّر زملائي ما أنا فيه من ضائقة وقلق، عيني فقط على الهاتف، ورحت أتواصل مع بعض المصريين وكذلك الليبيين بغية معرفة تفاصيل ومعلومات أكثر عن حقيقة الوضع.

وفي الخامسة عشر من حزيران عند المساء اجتمعت العائلة بحضور أطفالها وصراخهم،صاروا يتتبعون الأخبار عبر التلفاز، الحزن واليأس يحيط بهما،أمي صارت تبكي، أبي لم يعد يستطيع الحديث، أصبح الجو أشبه بالعزاء،باعتقادهم أنه لا أحد قد نجا من هذه الحادثة،عندها سمعت بخبر نجاة 104 أشخاص فصرنا جميعاً نتمنى أن يكون أولادنا من بين من نجوا، وفي تمام الساعة العاشرة والثالثة والعشرين دقيقة، هذا التوقيت لا ينتسى وتعد اللحظة الأكثر حرجاً في حياتي رغم بلوغي 34 سنة إلا أني لم أعش لحظة كهذه اللحظة لم أكن أعتقد أن الأخ بهذا الوزن والأهمية الروحية، وفقده مؤلم لهذا الحد، خصوصاً على شخص لديه عائلة، وبينما كنت منشغلاً في الرد على تساؤلات واستفسارات أشقائي هنا وهناك تأتيني رسالة ماسنجر عبر الفيسبوك روغيان يكتب فيها:

- مرحبا أخي، أنا بخير وما زلت أعيش، ثم تلاها بعد دقائق

رسالة عبر الواتسآب من رقم يوناني، يقول فيها:
- لقد أخذت تلفون إحدى الممرضات، أنا في المشفى الآن، لقد نجوت من الموت بأعجوبة، لا أخبار بخصوص ابن عمي كاميران، لكني لا أعتقد أنه من الناجين، كانت لحظات الغرق بمثابة القيامة عانيت لوهلة من سكرات الموت، أنا الآن ميت وحي في آن معاً
هذه اللحظات يصعب وصفها فقد كانت أسعد لحظة بين لحظات بشعة ألقت بظلالها على حياتي كنت أهذي ولم أك واعياً بما أتحدث به أما ريناس فلم يشعر بالتوتر وجدية الموقف إلا بتاريخ 15 حزيران، راح يتأمل السماء الملبدة بالغيوم، وقبل ذهابه للعمل قرأ عبر الفيسبوك عن خبر غرق قارب، لكنه أنكر بين نفسه أن القارب هذا مستبعد أن يكون روغيان ورفاقه فيه، أكد الخبر ذلك الهرج الذي حدث في مجموعات العائلة على الواتسآب وكذلك عن مواقع تلفزيونية إخبارية باتت تنقل هذا الخبر، وعن ضرورة الذهاب إلى اليونان ومنطقة نقل الناجين إلى المشفى، مدينة كالاماتا الواقعة في جزيرة كريت اليونانية هناك ينقلون الناجين وكذلك الجثث الغارقة، أما اللحظة الجميلة هو سماعه بنجاة أخيه خرجت الدموع الممتزجة بضحكة هادرة أعلنت الاحتجاج على هذه السماء التي ذكرته بلحظات تأكيد خبر موت عمه محمود في 2001 أيام كان ريناس طالباً في الصف التاسع الإعدادي، كثيراً ما كان يتأمل روغيان فيشعر بوجه عمه الذي لقي حتفه في حادث حافلة كانت في طريق عودتها إلى منبج، راح بولمان سياحي فاخر قادم من جهة حلب بدهس تلك الحافلة التي باتت مدهوسة تحت إطاراتها الأمامية،حيث قضي كل من كان بداخل الحافلة نحبه من بينهم عمه، لم يدر لماذا سيناريو ذلك الانتظار والترقب البشع حل عليه فجأة، كان

قلبه يستصرخ وذهنه في حالة تشوش أن يكون هذا الشبه بين روغيان وعمه علامة على أن سيموت مثله شاباً في مقتبل العمر إلا أن زوجة رودر أخبرته أنهم يتحدثون مع روغيان الآن، بمعنى أنه حي، هذا الخبر جعله يخرج من دوامته تلك، التفت صوب زوجته عانقها، وعانق ابنتيه التوأم، من شدة الفرح، تواصل عبر الواتسآب وكتب إلى رقم الواتس اليوناني ذاته، الرقم الذي تحدث عبره روغيان إلى رودر ليطمئنهم أنه بخير

مكالمة الفيديو تلك أشعرته بتتمة ذلك الفرح الجميل أن تتحدث مع شخص نفد من الموت بإعجوبة وللمرة الثالثة، بدأت إجازة ريناس ومدتها اسبوعين،في السادس عشر من حزيران حيث ستكون الوجهة مدينة أثينا حسب أنباء جاءته من روغيان أن سينقلونه وكافة الناجين إلى مخيم مالاكاسا الواقع شمال أثينا، قطع تذكرة سفر برفقة شقيقته وزوجها، تقلع الطائرة إلى أثينا في الجمعة عند الصباح الباكر، أثناءها بدأت الاتصالات تتوارد إليه ومن أرقام مجهولة تسأل عن مفقودين لا أخبار عنهم هنا وهناك، تواصل بعض الصحفيين مع ريناس لمعرفة بعض تفاصيل حادثة الغرق تلك، إذ تتنافس وكالات الأنباء وكذلك الصحفيين لأجل حيازة سبق صحفي مميز، إلا أن ذوي الضحايا لا يهتمون فكثيراً ما كان البعض يقوم بشتم الصحفيين أو منعهم من التقاط الصور،فأحزانهم ودموعهم ليست وسيلة لكسب المال، وكذلك ليست ملامحهم الباكية لوحات تزين الصحف، إلا أن ذريعة الصحفي ووسيلته لإقناع الضحية بأنهم هنا لأجل أن تصل الحقيقة للناس، بالنسبة إلى ريناس فتواصله مع صحفية فرنسية تعمل في جريدة لوموند ومقيمة في أثينا لمدة طويلة وتدعى مارينا رافنبيرغ هو

لأجل الاهتداء إلى مكان المخيم الذي تم نقل روغيان إليه وكذلك قد ترشده إلى وسيلة يمكن من خلالها إرساله إلى ألمانيا حيث يقيم هو لعل ذلك سيغنيه عن إكمال مغامرة الهجرة غير الشرعية وكذلك العثور على مهرّب آخر، التقاها في مركز المدينة برفقة مترجم فلسطيني يدعى إياد وذهبوا معاً إلى الكامب المسافة ما بين المدينة والكامب تستغرق ساعة أو أكثر عبر السيارة، فالمخيم يبعد عن المدينة ويحتاج أكثر من وسيلة مواصلات حتى يمكن الذهاب إليها والإياب منها

الكامب مسور بأسلاك معدنية تحطيه بشكل مربع في مكان جبلي عالٍ تربعت الأسلاك الشائكة فوق جدرانه المعدنية وأرضية البوابة مزفتة وعند باب المخيم يقف عند المدخل بعض المقيمين ممن يطيلون النظر إلى سحنات القادمين من الخارج عند ساعات المشي أو عند جلب الغداء والفطور، أو عندما يأتيهم زائر من الخارج،، أما عن أماكن المبيت بالنسبة للمقيمين داخل المخيم فهي عبارة عن كابينات خشبية مكونة من غرف صغيرة وبسيطة يقيم فيها الأفراد كل اثنين أو ثلاثة في غرفة،، عندما وصل ريناس وروشن برفقة تلك الصحفية والمترجم، أحس أن المخيم أشبه بمعتقل فوجوه عناصر الأمن عابسة وعندما اقترب من المكان ليسأل عن أخيه الناجي روغيان أبعده عنصر الأمن وآخر معه يتحدث اللهجة المصرية برفقة عاملة بدينة قصيرة القوام تقوم بالتسجيل هناك قالت :

- بالنسبة للذين نجوا من حادثة الغرق، تم جلبهم اليوم صباحاً إلى المخيم.

ولا يمكن أن تروا أخيكم إلا إذا وافق الطبيب النفسي على ذلك ولا نعلم متى يبت الطبيب بذلك فالقرار يعود إليه ربما غداً وربما بعد أسبوع

- لكن إجازتنا قصيرة وسنغادر بعد يومين إذ لا نستطيع الانتظار والمكوث كثيراً في أثينا، لا يعقل أن نعود الآن أدراجنا ونحن هنا لأجل أن نطمئن عن أخينا لقد جلبنا له حوائجه وكذلك تلفوناً ليحدثنا من خلاله

- لا يمكننا تجاوز القوانين من فضلكم تنحوا جانباً، فالأخذ والرد لن يفيدكم ثم أنه أخيكم ولا أعتقد أن من اللائق أن تعودوا سريعاً،مالم يبت الطبيب بقرار فغير مسموح إطلاقاً أن تروا شقيقكم، كلامي واضح لم يجدوا جدوى من هذا الحوار العقيم خرجا من هناك كانت الصحافة بعدسات كاميراتها التي راحت تصوبها جهة باب المخيم متواجدة بكثافة بالإضافة إلى بعض الأقنية التلفزيونية، حاولوا أخذ تصريح أو معلومة، واضطر ريناس الإدلاء بما حدث معه منذ قليل.

أدرات الصحفية مقود سيارتها باتجاه المدينة، ركبوا معاً عائدين أدراجهم خائبين، إلا أنه وفي منتصف الطريق، اتصل رقم أحد المشرفين على المخيم بإياد المترجم، بأن من المسموح الآن زيارة الناجي روغيان، الذي كان قد انفجر بوجههم بعد أن علم أنهم رفضوا السماح لريناس وروشن وزوجها بالمجيء لرؤيته، أشار إياد لمارينا بالعودة لمخيم مالاكاسا، علت أسارير البهجة بملامح ريناس وروشن ورجعوا للمخيم، استقبلهم عنصري أمن أحدهما مصري هنأهم بسلامة روغيان وبإمكانية اللقاء به لساعة واحدة فقط لكن بدون وجود الصحفية وزميلها المترجم، بدا اللقاء دراماتياً مفعماً بالفرح والأسى، قال ريناس لروشن

- بدون دموع من فضلك، لا أريد أن يشعر روغيان بالحزن

أقبل روغيان صوبهما باسماً احتضن أخته روشن، التقط ريناس بكاميرة جواله صورة عناقهما، من ثم عانقه هو، راح مباشرة يسأل عن

مصير ابن عمه فأخبره بأسف وبنبرة يعلوها الأسى:
- أنا على يقين أنه ميت فالذي قام بإغراق القارب هو الخفر اليوناني الذي أنقذنا ليحفظ به ماء وجهه وليتستر على جريمته .
مرت تلك الساعة بسرعة البرق تخللتها عدة تلفونات، لم يردوا على كثير منها، انشغل ريناس بالتقاط بعض فيديوهات عن بعض ما حدث لروغيان تحدث كل ما كان يدور بذهنه حديثه حول مجموعة هواجس وأحداث وتفاصيل غير منتظمة ولا يجمع بينها ارتباط سوى تعبيراً عن رغبة بإخراج ما بداخله من حنق وألم عما كان يجري في القارب عن محاولة صديقه آزاد فاروق في النجاة والذي أضحى أول من تم إنقاذهم، وكذلك عن احتيال ما يعرف بأبو غيفارا وقريبه أبو ريزان وأكاذيبهما بخصوص الرحلة والمركبة في ذلك القارب:
- ليتهم لم يقذفوا علب المياه إلينا، فقد تدافع العطشى كالزومبي نحو الماء غير منتبهين أن توجههم لمكان الماء يعني فقدان توازن القارب وميلانه، لثلاثة أيام انقطعنا عن الطعام والماء، فإن رأى أحدهم بيدك جرعة ماء فإنهم يهجمون عليك لالتقاطها، لم يبر أبو غيفارا بأي وعد قد قطعه لم يكن ثمة من طعام في القارب، أخبرنا أن كل شيء على ما يرام وأن لا أعطال في القارب وحدث العكس، أخبرنا أن 400 شخص فقط سيكونون على متن القارب والحقيقة أن أعداد من كانوا معنا بحدود 750 شخصاً يجب إعادة المال بأي طريقة منهم لو بقوة السلاح.
- أما عن كاميران فلا أعلم كأنه أحس بميعاد موته، يأتي كل لحظة يلقي يده على ركبتي ليقول:
- ألم أخبرك أننا سنموت يا ابن العم، ها قد متنا، قالها ونحن ما نزال على المركب.

- هون على نفسك يا ابن العم، لن يحدث شيء، انظر للطائرات إنها تتبعنا هذا يدل على أنهم سيساعدوننا قريباً

بيد أنها لم تفعل شيئاً حيالنا أو تقدم أية نجدة، وعندما رموا إلينا علب المياه من تلك السفينة الأمريكية العالية وبعض من في السفينة راحوا يصورون عملية المساعدة تلك كان معنا بعض مسنين وصغار ماتوا بسبب الجوع والعطش، فعند ارتطام تلك العلب بإحدى زوايا القارب يهم الجميع في الذهاب عند اتجاه سقوط العلب مما تأرجح القارب، يمنة ويسرة وتعطل محرك القارب، يعود للعمل لبرهة قصيرة ثم يعاود الانطفاء، لغاية تعطله بشكل دائم ونحن في منتصف البحر، وعند تعطل المحرك فإن الثقل يزداد على القارب وينخفض باتجاه الأسفل قام الخفر اليوناني بوصل قاربنا بحبل وتابع المسير لربع ساعة من الوقت ثم مضى فجأة بسرعة مما انقطع ذلك الحبل الوحيد وانقلب القارب بي ثم لحسن الحظ عند انقلابه خرجت من نافذة القارب لجهة أخرى فالكثير ممن كانوا يجيدون السباحة غرقوا والبعض القليل نجا، عانى الكثيرون من نوبات الهلع والهلوسة والاختلاج فلأجل بضعة تمرات كانوا يتقاتلون بشراسة، ما رأيته لا يصدق

ما كان في القارب لم يسد الرمق في اليوم الأول من مضينا، اضطررنا لشرب مياه البحر كنا نضع بضع تمرات داخله حتى تخف الملوحة ومن ثم نشربها لم يسمحوا لنا بأخذ حقائبنا،كنا ثلاثتنا أنا وآزاد وكاميران جالسين معاً ولم يكف كاميران عن ترديد جملة أننا متنا ولا خلاص إلا أنه قبل موته سد عطشه وشرب كفاية من علبة الماء التي نجحنا في انتزاعها بعد شجار عنيف مع من حاولوا باستماتة أخذها منا، ثم ألقينا أنفسنا من ذلك القارب المتهالك إلى البحر، دخلت للأسفل، مغمض

العينين، عندما أخرجت رأسي أخذت شهيقاً وناديت الله، كنت أنادي أبي وأمي في البداية، ودار بذهني شريط تذكر أخوتي أخواتي وأطفالهم، وكذلك أكثرت من مناداة صديقيَّ كاميران وآزاد، لكني تخليت عن مناداة كل شيء واكتفيت بالله، بميلان القارب نحو السقوط سقط من على متنه العشرات كل من يسقط يحاول التشبث بغيره فيصبح الآخر إثر ذلك التعريش في الأسفل، تلك المحاولات اللاإرادية في النجاة من قبل الضحايا على حساب سحب آخرين تم سحبهم للأسفل والركوب على جسدهم سببت في إغراق الكثيرين، لقد نلت نصيبي من ذلك فقد قام البعض بمحاولة سحبي وكنت أصدهم، وأضطر للكمهم وإبعاد أيديهم عني بكل قوة حتى تمكنت أخيراً من الابتعاد عنهم وعن القارب لمسافة جيدة، رغم جهلي في السباحة إلا أني قمت بتحريك جسمي يدي، قدمي حتى رأيت نفسي ابتعدت عن المركب المتهالك، دخلت ببطن البحر ثم رأيت رأسي في الخارج عندها أخذت نفساً عميقاً ثم عاودت الدخول مجدداً،كنت أحياناً آخذ وضعية الاستلقاء ثم يقذفني الموج مجدداً باتجاه القارب وتارة بعيداً عنه، لقد نجوت بمعجزة حيث أنني لا أجيد السباحة مطلقاً وعندما داومت في فترة مضت إلى المسبح لم أتعلم كما يجب، لم أستطع السباحة فيه رغم أن عمقه لم يتجاوز مترين، فكيف في بحر عمقه أكثر من 4000 متراً المئات ممن سقطوا كانوا يمسكون بي وكنت أذهب بهم للأسفل وأعود مجدداً في الطفو للأعلى،كنت أشعر أني أخرج من تلقاء نفسي دون محاولة مني أو جهد بقيت لساعتين ونصف في الماء حتى اقتراب الخفر اليوناني ومساعدتهم في إخراجي عن طريق حبل أزرق رفيع رحت ألفه حول ذراعي ورقبتي بينما كنت أنزل للأسفل، أحسست أن قواي قد خارت تماماً بعد ذلك، لم أعد أتذكر

كيف أخرجوني وبأي طريقة، لأني وقتها كنت غائباً عن الوعي، ما فعلته هو إحكام ربط نفسي بالحبل، نقلوني من خلال قاربهم إلى سفينتهم هناك استيقظت ببطء، رأيت بطني ممتلئة كامرأة حامل في شهرها الأخير، صرت أتقيأ باستمرار، دام تقيوءي العشرين دقيقة، أحسست أن أنفاسي ضاقت كأني سأموت من أثر التقيؤ، وقد تقيأت وأنا في البحر كون الماء المالح كان يدخل فمي مراراً، فحين يدخل الماء بجوفي فإن القيء يخرج من أنفي وتارة من فمي، صراع البقاء دام لساعتين، لو لم يأتي زورق الإنقاذ لانتهى كل شيء فقد أبصرت سكرات الموت بعيني وأحسست باقتراب الأجل رغم إرادة الحياة لدي، فظل الموت لم يبارحني لساعتين، شعرت بأني ما بين الحياة والفناء،تردد في مخيلتي صدى ما كان يحدث في ذلك القارب قبل أن يتهاوى، عن حالة الهستيريا والجنون التي عمت الناس، خيم علي العجب والاستغراب والذهول، شعرت في نفسي أني ما زلت هناك، أصوات العطشى وصراخ المحبطين لا يزال يتردد في أيوان ذهني، صرت ألتفت لأراهم، لكني أدركت أنهم بداخلي، أحسست أني ذلك القارب، عندما تكون رغبة كل ضحية عطشى شرب الماء على حساب هلاك الآخر لا يمكن عندها التفكير بالبعد الإنساني، كل فرد فينا منشغل بقتل ذلك العطش، يحلم بالماء، بقنينة ماء،راحت قناني المياه تستوطن محل النجوم، حلمت في المنام أني أشرب الماء، الأيام الثلاث التي مرت لحين انقلاب القارب كانت مزدانة بأحلام الحصول على الماء والطعام، كل طعام صرت أشتهيه من يد أمي صرت أحلم به، صار الحلم الوردي هو الحصول على ما يسد ذلك العطش الأحقر من الموت بذاته، أتذكر الذين صاروا يبكون كونهم حبسوا بولهم في مثانتهم لثلاث أيام ولا يستطيعون التبول،

تذكرت أيام عملي في تركيا في مزرعة كنت أرش بقايا الروث على شتلات الخيار والبندورة، اتصل يومها أخي فقال ماذا تعمل، قلت له أني أنثر الروث فضحك، ثم شعرت أنه غضب فقال: لا تأكل الهواء أصدقني القول ماذا تفعل. فقلت له أنا أعني ما أقول، لم يصدق أن ثمة عمل هكذا، مناسبة القول هذه أن ما حدث في القارب ذكرني بهذا العمل فعندما كنا نعبرّ عن مللنا ويهاتفنا أحد ما كان يسألنا عن الطقس فكنا نجيبه : السماء تسقط غائطاً هذا ما حدث ونحن على القارب، فالذي يتقيأ كان قيؤه يرتد علينا وكذلك بوله وغائطه تيقنا حينئذ من صواب تلك الإجابات الفكاهية المشمئزة فقد عايشناها بواقعية، فالريح الجنونية حولت الفضلات إلى أمطار ووزعتها بالتساوي على رؤوس الجالسين المساكين، فصرت أمازح رفيقي، انظروا إنها تمطر يا شباب تمطر غائطاً ثم ينفجر من حولي ضحكاً، لقد تحول بكاء البعض بالنسبة لنا لمناسبة نضحك فيها كالحمقى، وكاميران كان يموت ضحكاً بضحكي، وفي ذروة يأسنا يضحك آخر فأقول له: تباً لك، كفى تصنعاً لتلك الضحكة التي تشبه قهقهة بائعات الهوى في حضرة أحد الزبائن، لا ترني سحنتك البلهاء،نعم لقد ضحكنا في وقت كان البكاء فيه فريضة واجبة، أحسست يقيناً بحقيقة أن الزومبي ليست مجرد قصة خيالية تتعلق بالموتى الواقفين على أقدامهم ووظيفتهم عض الأحياء فحسب إنما الزومبي رابض في البشر وحين يجوعون أو يعطشون ليومين فإنهم يتحولون لوحوش تريد أن تنهش وتفتك لأجل البقاء على قيد الحياة والارتواء من الماء، رغم بعض درايتي بالإسعافات الأولية إلا أني لم أستطع فعل شيء يذكر للذين عانوا من نوبات الصرع أو الاختلاج، لقد كنت أتفادى التواصل مع المحبطين ذوي الطاقة السلبية ممن

كانوا يكثرون الحديث عن الموت وغياب الأمل، فمنذ أيام اعتقالي على يد داعش ومحاولتي في الإفلات من قبضتهم كان لدي صديق جبان برفقتي وكاد أن يتسبب في اعتقالي مجدداً، من حينها ترسخت لدي قناعة أن مرافقة الجبناء توقع المرء في المهالك وتجعله أسير خوف بات ينمو محل الشجاعة لهذا فاختيار الأصدقاء وظيفة هامة فهي تحدد مصائرنا وسير حياتنا أيضاً، فالذي يرفعك أو يخفضك هم الذين من حولك، حيث راح كاميران يربت على ركبتي مراراً ليقول لي لقد متنا ألم أقل لك، فرحت أصرخ بوجهه لا تمت نفسك مالم يأتك الموت لا تقل لي مثل هكذا كلام مجدداً، لكن كلامه عن الموت سرى بداخلي دون أن أشعر مع الوقت، بخاصة عندما أحسست برغبة شديدة في الماء الذي بات منعدماً، فلأجل أن أحصل على الماء صرت مستعداً لفعل أي شيء حتى ذبح إنسان، رأيت مجموعة أشخاص من مدينة درعا السورية وهم أبناء عمومة وخؤولة يتقاسمون الماء فرحت أنتزع القنينة منهم انتزاعاً وبشراسة رحت أجلس عند القنينة ضاغطاً عليها بقدمي وشربت بنهم عندما راحت السفينة تلك ترمي إلينا بعلب المياه الكبيرة، رحت أعطي العلبة لكاميران وأنا أضغط عليها، فشرب حتى ارتوى، راح المتساقطون من القارب المتهاوي نحو البحر كعربة الباطون المسلح المليئة بالأسمنت على الأسطح يتقاتلون ويتشبثون ببعضهم باستماتة يفترسون دقيقة أكثر للبقاء فيها على قيد الحياة قبل النزول للقاع حيث عمق البحر هناك 4000 متر أو يزيد، إنه شجار عنيف يشبه لحظة اشتباك الفرسان والجبابرة في معارك طاحنة، لم أغرق أحداً بل تفاديت محاولة أن يغرقني الآخرون، كنت أعتمد على نفسي وازداد اعتمادي على نفسي منذ تجربتي مع داعش وكذلك مع تلك المؤسسة العسكرية

اليسارية، فقد أشعرتاني أني وحيد وأن لا أحد بإمكانه تخليصي مما أنا فيه سواي المصريون ممن كانوا معنا كانوا يتعاملون بعنف مع الآخرين، صحيح أنهم لم يضربونا كثيراً إلا أنهم آذوا الباكستانيين أكثر في ذلك المكان المكتظ بالسفالة والقذارة والوحشية،لقد عرفت باحتمالات هذه المغامرة مسبقاً من حيث ان السعي وراء الحياة الأفضل في بلادنا لا يمر إلا بركوب المخاطر ورؤية الموت فما يربطني بذلك الوطن هو ارتباطي بالعائلة التي ولدت بينها وعشت في كنفها، أخوتي وأخواتي أمي وأبي باختصار، والأشخاص الذين أحببتهم، لا شيء عدا ذلك يربطني ببلاد المقاصل والحواجز، حيث وطن الغرباء إن أحسنت إيواءي فإنها تنوب عن وطني وما أستطيع تقديمه للعائلة بعد ما حدث هو أن أزورهم إن تمكنت من ذلك أو أكون لهم سنداً ويد عون، عندها يمكن القول أني أقوم بواجبي، والصداقة الحقة التي صرت أعرفها وأؤمن بها بعد رحلة القارب تلك هو أن تحقق لأصدقاءك المصلحة بشقيها المادي والروحي بمقدار ما يحققونه هم لك، فمهما قلنا أن الحياة بالألوان إلا أن العتمة والنور يسودانها، إله الخير والشر يتناوبان على قدر متساوٍ الحكم فيها على البشر،أتذكر الآن وليد الصغير ذو السادسة عشر ربيعاً وهو على متن القارب،وأمنيته الصغيرة هو أن يكون هنالك ثمة تلفون يتصل من خلاله بوالدته ليقول لها فقط عبارة:

- أنا أحبك يا أمي

أكمل وليد قائلاً:

- آه لو بإمكاني سماع صوت أمي حتى لو انقطع الاتصال أو بدا غير واضح فقط سماع صوت أمي سيخفف من وطأة قدوم الموت لو أني أستطيع القول لها أحبك يا أمي لما خفت بعد ذلك من قدوم الموت يا

أهلاً به طفل مصري لم يتجاوز العاشرة ظل يبكي ويظل مكرراً عبارته عند البكاء

- أنا عايز أرجع مصر، أنا عايز ماما

دموعه ورغبته بالعودة ورؤية أمه لا تغيب عن بالي

ثلاث نساء أخريات كنا صغيرات، حاولن الاقتراب من مقدمة القارب الأمامية رافعات أيديهن للسماء، يلهجن بالدعاء بيد إحداهن طفلة بهية الملامح إلا أن أحدهم أنزلهن للقبو

هؤلاء يعبرون مخيلتي أحياناً، إلا أن كثافة القسوة والوحشية التي رأيتها وعايشتها غطت بعتمتها على كل مؤثر رأيته، لقد شعرت بانتصار قوى الشر الساحق على كل شعور بالخير والنبل فنجاة 104 شخصاً من أصل موت ستمائة وستة وأربعين شخص دليل على ما أقوله فالشر هنا ابتلع الخير المتجسد في تلك الكثرة الميتة، كنت أبحث بعد رؤيتي لذلك الشجار المسفر عن مقتل ستة أشخاص عن شيء حاد أدافع به عن نفسي، فلم أعثر إلا على ملعقة نجحت في سرقتها من غرفة القبطان داخل القارب، الذي مات هو الآخر ذلك اللعين، تجار البشر هم جنود الظلام وأكلة لحومهم، لقد خرجوا ليقتلوا فهم الذين أوصلونا لما نحن عليه، هم جزء لا يتجزأ من الأنظمة القمعية التي حولت أوطاننا الجميلة العريقة إلى مزابل ومقابر.

لقد سعيت في رحلة كما غيري إلى الحياة كغاية وإن كان الموت ثمناً لبلوغ تلك الغاية فلا بأس، الأهم هو عدم العيش مثل الميت، منطقي لا يحتمل أن أعيش كحي ميت والسعي إلى الحياة الأفضل خيار وحيد ومطلق بالنسبة لي

صحيح أن الحياة متنوعة إلا أنه ثمة ثوابت وأشياء لا تحتوي إلا على الثنائيات فهي تحكم الحياة وتتحكم في خياراتنا المصيرية فلا يمكن أن تريد ولا تريد في آن معاً يجب أن تختار إما أن تكون أو لا تكون، فحين تصارع القطبين بضراوة لن تستطيع إلا أن تكون جزءاً من أحد قطبين متنازعين أما الخيار الثالث أو إيجاد توهم وجود قطب ثالث فهو وهم وهراء.

كتب ريناس إلى منظمة حقوقية بخصوص حالة روغيان بتاريخ 19حزيران 2023 التالي:

« لقد تواصلت مع إحدى الصحفيات العاملة في مجلة دير شبيغل وأرشدتني إلى عنوانكم شقيقي روغيان، الشاب الكردي السوري من مدينة كوباني هو أحد الناجين من حادثة غرق القارب على سواحل اليونان وذلك في 14 حزيران الجاري من هذا العام، حيث كانت مجموعته من ذات المدينة 35 شخصاً والناجون من تلك المجموعة فقط 4 أشخاص، وهو يعاني تداعيات نفسية صعبة ويقيم حالياً في اليونان أثينا - مخيم مالاكاسا. لقد كنت أول أمس في زيارة إليه، حدثني عن ظروف غرق القارب وعن تفاصيل جعلته يعيش أزمة نفسية وشعوراً بانعدام الأمان والاكتئاب.

أخي لا يريد البقاء في اليونان كما معظم الناجين الذين ركبوا المخاطر لأجل الوصول إلى ألمانيا بغية البحث عن حياة أفضل بعيداً عن الحرب واللاستقرار والتهديدات التركية واستهدافها للمدنيين في شمال شرقي سوريا، حيث اختطف شقيقي قبلاً قبل هجوم داعش على كوباني في أغسطس عام 2014 وأفرج عنه مع بقية الطلاب الذين كانوا قادمين

حينذاك من حلب بعد انتهاء تقديمهم لامتحانات الشهادة الإعدادية وفي عام 2023 نجا أخي بأعجوبة من قصف تركي عبر طائرة مسيرة استهدفت منطقة تعج بالمدنيين وحادثة غرق القارب هي بمثابة المرة الثالثة التي ينجو فيها أخي من الموت بأعجوبة.

لقد التقطت بعضاً من صور وفيديوهات تشرح ما يعانيه حالياً من آلام وصعوبات التأقلم في المخيم وبدوره رفض راجياً أن تنشر وتستخدم كخبر صحفي وكذلك فإنه يعتقد أن نشر تلك الفيديوهات قد تجعله في وضع صعب مع السلطات الأمنية في اليونان وهو بحاجة لعلاج نفسي خصوصاً وأن المكان الذي يقيم فيه يذكره بخفر السواحل اليونانية وتعمدهم إغراق القارب بدعوة مساعدتهم لضحاياه وفق سرده لتفاصيل الحادثة حسبما شاهد .

لهذا أناشدكم للتدخل والسماح لأخي بالمجيء إلى المدينة التي أقيم فيها ليقدم له علاج نفسي هناك إلى جانب الاستقرار والاندماج في المجتمع الجديد، فهو كغيره من الناجين يريدون مواصلة الرحلة على ما فيها من مخاطر إذا لم يجدوا وسيلة قانونية أو منظمة حقوقية تستطيع تقديم العون لهم،بدلاً من البقاء وتقديم اللجوء في اليونان،شكراً لكم على تفهمكم وبانتظار ردكم»

تمت

24.02.2023 11.07.2023

ريبر هبون في سطور

- هو ريبر عادل أحمد
- من مواليد منبج – سوريا 1987
- درس اللغة العربية في جامعة حلب
-يقيم منذ عام 2015 في ألمانيا ويحمل جنسيتها
- يكتب باللغتين الكردية والعربية
- مؤسس دار تجمع المعرفيين الأحرار للنشر الالكتروني

*المؤلفات :

في الشعر :

- ديوان صرخات الضوء باللغة العربية عام 2016
- جوقات كوردستانية 2019 مشترك مع الشاعرة بنار كوباني
- ديوان Qêrînên roniyê بالكردية 2020

في النثر و الفكر والدراسات النقدية :

- أطياف ورؤى 2017 نصوص ودراسات
- دلالات ما وراء النص في عوالم محمود الوهب- دراسة نقدية2019
- فك المرموز في روايات حليم يوسف - دراسة نقدية2020
-الحب وجود والوجود معرفة - فكر2021
- rewrewkên xwînî بالكردية 2021
- كيف تصبح كاتباً حقيقياً

في الحوار والمناظرات :

- معرفيون ومعرفيات – حوارات
- أفكار صاخبة – مناظرات
- قراءة للمشهد السياسي في غربي كوردستان
- عفرين مقاومة العصر
- بارين أيقونة الزيتون
- التطرف

في الجرائد والصحف :

- عمل على تحرير صحيفة الحب وجود والوجود معرفة
- له العديد من المقالات والدراسات المنشورة في مختلف الدوريات والصحف الالكترونية كالحوار المتمدن، مركز النور، صحيفة الفكر وصحيفة المثقف والفيصل ونواكشوط – الليبي – المدائن بوست، القلم الجديد، مجلة لوتس وصوت كوردستان.

في الأنشطة الأدبية والفكرية المختلفة :

- شارك في الملتقى الأدبي الثالث لشعراء مدينة منبج 2008
- أقام العديد من الندوات والأمسيات الأدبية في منبج وحلب كنادي التمثيل العربي واتحاد الكتاب العرب.
- وكذلك في ألمانيا شارك في العديد من المتلتقيات الأدبية وله العديد من المقابلات الإذاعية والتلفزيونية الكردية.
- عضو في اللجنة الإدارية سابقاً لاتحاد مثقفي غربي كوردستان HRRK
- قدم برنامج معرفيات و معرفيون باللغتين الكردية والعربية
- مؤسس منتدى دوسلدورف الثقافي-

تم
بحمد
الله

فهرس

الإهداء ٣
أفواه فاغرة بفم الحطام..... ٤
موت ساخن ١٠
أوراق على قيد الحياة ١٥
موت طارئ ٤٥
هزات ارتدادية ٥٦
آلام وركام ٦٦
في ضيافة الماضي ٧٤
أنفاس تفترش الإعياء ١١٦
آذارٌ دامٍ..... ١٤٢
«شبح الموت يطارده في البر والجو والبحر»..... ١٥٠
مناورات الموت والبحر..... ١٩٦
ريبرهبون في سطور..... ٢١٢

دار لوتس للنشر الحر

مصرية مغربية، تأسست في مايو 2017

www.lotusforpub.com

رقم الإيـــداع

2023MO3299

ISBN

978-9920-604-51-2

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف